

من مفاهيم عقيدة السلف الصالح

الولاية والبراء

في الإسلام

تأليف

محمد بن سعيد القحطاني

تقديم فضيلة الشيخ

عبد الرزاق عفيفي

كارطية بيتر

مكة المكرمة - الرياض

مِنْ مَفَاهِيمِ عَقِيدَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ

الْعِلَالُ وَالْبِرَاءُ

فِي الْإِسْلَامِ

تَأَلَّفَ

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ الْفُحْطَانِي

تَقْدِيمُ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ

عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَفَّيْنِي

- الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ
الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ
الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ
الطبعة الرابعة ١٤١١ هـ
الطبعة الخامسة ١٤١٢ هـ
الطبعة السادسة ١٤١٣ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى :-

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْبُحُودَ وَالنَّصْرَى
أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ
فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

المائدة

وَقَالَ تَعَالَى :-

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ
إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ
وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ

آيَةُ ٤ المتعنة

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

« أَوْثَقُ عُمَرَى الْإِيمَانِ أَلْمَوَالَةُ فِي اللَّهِ وَالْمَعَادَةُ
فِي اللَّهِ وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبَغْضُ فِي اللَّهِ »

حديث حسن

هَذَا الْكِتَابُ

رِسَالَةٌ عِلْمِيَّةٌ تَقَدَّمَ بِهَا الْمُؤَلِّفُ لِنَيْلِ دَرَجَةِ
التَّخَصُّصِ الْأَوَّلِ " الْمَاجِسْتِير " مِنْ جَامِعَةِ
أُمِّ الْقُرَى بِمَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ ، فَرَعَ الْعَقِيدَةَ
وَقَدْ تَكُونَتْ لَجَنَةُ الْمُنَاقَشَةِ مِنْ :

١ - فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ قُطَبٍ الْمُشْرِفِ
عَلَى الرِّسَالَةِ : رَئِيسًا .

٢ - فَضِيلَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفِيْفِي : عَضْوًا .

٣ - فَضِيلَةُ الدُّكْتُورِ عَبْدِ الْعَزِيزِ غُبَيْدٍ : عَضْوًا .

وَمُنِحَ صَاحِبُهَا دَرَجَةُ الْمَاجِسْتِيرِ بِتَقْدِيرِ مُنْتَازِ
وَذَلِكَ لَيْلَةَ السَّبْتِ ٤ / ٨ / ١٤٠١ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فموضوع هذا الكتاب له شأنه وله أهميته في نفسه، وبالنسبة لكتابته في هذا الوقت، فبين كتابته وبين الوقت الذي نعيش فيه الآن مناسبة قوية. أما أهميته في نفسه: فذلك لأنه في أصل من أصول الإسلام هو: "الولاء والبراء".

وهما مظهران من مظاهر إخلاص المحبة لله، ثم لأنبيائه وللمؤمنين. والبراء: مظهر من مظاهر كراهية الباطل وأهله. وهذا أصل من أصول الإيمان، وأما أهميته بالنظر للوقت الحاضر: فلأنه قد اختلط الحابل بالنابل، وغفل الناس عن مميزات المؤمنين التي يتميزون بها عن الكافرين، وضعف الإيمان في قلوبهم حتى ظهرت فيهم مظاهر يكرها المؤمن.

والوا الكافرين أمماً ودولاً، وزهدوا في كثير من المؤمنين، وخطوا من قدرهم، وساموهم سوء العذاب.

ومن هنا: تأتي أهمية نشر هذا الكتاب في هذا الوقت الحاضر بالذات.

ولقد جاء المؤلف على جوانب الولاء والبراء، ونقل في ذلك كثيراً من كلام العلماء، وقدم له ومهد، وعقب عليه وعلق، وأستدل على ما جاء به من مبادئ الولاء والبراء بآيات من القرآن، وبأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، وبكثير من آثار الصحابة ومن تبعهم من السلف.

ويبين وجه الاستشهاد بهذا وبهذا، ورقم للآيات ويبين سورها، وأخرج الأحاديث والآثار ويبين درجتها في الغالب الكثير.

وبرزت شخصية الباحث في كتابه مما يدل على سعة اطلاعه وقوة بحثه.

وأسأل الله جل شأنه أن ينفع المسلمين بهذا الكتاب، وأن يهدي لمؤلفه إخواناً ينهجون نهجه، فالأمل كبير، الأمل في الله عظيم أن ينشأ كثير من شبابنا الحاضر على هذا المبدأ القيم، مبدأ نصرته دين الإسلام وإحياء ما أندرس منه فإن ربي مجيب الدعاء.

عبد الرزاق عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله وآتاه بهداه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد :

فإنه من رحمة الله سبحانه وتعالى وعظيم لطفه بخلقه: أن جعل الرسالة المحمدية هي خاتمة الرسالات السماوية، وجعلها سبحانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيغ عنها إلا هالك. وكتب تبارك اسمه وتعالى جده السعادة في الدارين لأتباع هذه الرسالة الذين قدروها حق قدرها، وقاموا بها على وفق ما أراد الله وعلى هدي نبي الله ﷺ وسماهم أولياء الله وحزبه. وكتب عز وجل الشقاء والذلة على من حاد عن هذه الشريعة وتنكب الصراط المستقيم وسماهم أولياء الشيطان وجنده.

وأصل هذه الرسالة الخالدة: كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" هذه الكلمة العظيمة - كما يقول ابن القيم -:

(التي لأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة

والنار، وبها أنقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، وأُست الملة، ولأجلها جُردت السيوف للجهاد، وهي حق الله على جميع العباد.

(وحقيقة هذه الكلمة: مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً، والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبة وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء لله، والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده.

(والطريق إليه: تجريد متابعة رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله)^(١).

هذه الكلمة العظيمة بكل مفاهيمها ومقتضياتها قد غابت عن حس الناس اليوم إلا من رحم الله، ومن هذه المفاهيم بل من أهمها موضوع: ”الولاء والبراء“.

ولئن كان هذا المفهوم العقدي ألهم قد غاب اليوم عن واقع حياة المسلمين — إلا من رحم ربك — فإن ذلك لا يغير من حقيقته الناصعة شيئاً.

ذلك أن الولاء والبراء: هما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة. وهو مفهوم ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة.

ولن تتحقق كلمة التوحيد في الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء، والبراء ممن يستحق البراء.

ويحسب بعض الناس أن هذا المفهوم العقدي الكبير يدرج ضمن القضايا الجزئية أو الثانوية ولكن حقيقة الأمر بعكس ذلك.

(١) الفوائد تحقيق جابر يوسف: (ص ١٤٣).

إنها قضية إيمان وكفر كما قال الله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَأَخَوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنُونَ كَسَادَها وَمَسْكَنٌ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ يُؤَالفُ اللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٣ - ٢٤]

وقال جل جلاله :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

وقد قال أحد العلماء - وهو الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله - : (إنه
ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم
- أي الولاء والبراء - بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده) (١).

ولقد قامت الأمة الإسلامية بقيادة البشرية دهرًا طويلاً حيث نشرت هذه
العقيدة الغراء في ربوع المعمورة، وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة
رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

(١) «النجاة والفكاك»: (ص ١٤).

ثم ما الذي حدث؟

- * لقد تقهقرت هذه الأمة إلى الوراء بعد أن تركت الجهاد وأخذت بأذنان البقر!
- * تراجعت بعد أن زهدت في الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام.
- * تبعت الأمم الأخرى بعد أن ركنت إلى حياة الدعة والرفاهية والبذخ والمجون.
- * تبلبلت أفكارها بعد أن خلطت نبعها الصافي بالفلسفات الجاهلية والمهرطقة البشرية.
- * دخلت هذه الأمة في طاعة الكافرين وأطمأنت إليهم، وطلبت صلاح دنياها بذهاب دينها فخسرت الدنيا والآخرة.

وبرزت صور موالاة الكفار في أمور شتى منها :

- (١) محبة الكفار وتعظيمهم ونصرتهم على حرب أولياء الله، وتنحية شريعة الله عن الحكم في الأرض، ورميها بالقصور والجمود، وعدم مسايرة العصر ومواكبة التقدم الحضاري.
- (٢) ومنها : استيراد القوانين الكافرة - شرقية كانت أم غربية -، وإحلالها محل شريعة الله الغراء، وغمز كل مسلم يطالب بشرع الله بـ "التعصب والرجعية والتخلف"!
- (٣) ومنها : التشكيك في سنة رسول الله ﷺ، والطعن في دواوينها الكريمة، والخط من قدر أولئك الرجال والأعلام الذين خدموا هذه السنة حتى وصلت إلينا.
- (٤) قيام دعوات جاهلية جديدة تعتبر ردة جديدة في حياة المسلمين، مثل: دعوة القومية الطورانية، والقومية العربية، والقومية الهندية، و... وإلخ.
- (٥) إفساد المجتمعات الإسلامية عن طريق وسائل التريه والتعليم، وبث سموم

الغزو الفكري في المناهج والوسائل الإعلامية بكل أصنافها.

وأمام هذه الصور وغيرها من الصور الكثيرة، تنشأ أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات صادقة وافية، يدعمها الدليل من الكتاب والسنة، والاسترشاد بآراء العلماء الأعلام، ومن هذه الأسئلة:

لمن ينتمي المسلم؟

ولمن يكون ولاؤه؟

وممن يكون براؤه؟

ما حكم تولي الكفار ونصرتهم؟

ما حكم الإسلام في المذاهب الفكرية التي يروج لها المستغفلون أو الخائفون من أبناء أمتنا وممن ينطقون بالاستنساخ؟

كيف ينبغي أن تكون صورة الولاء للمسلمين الذين يضطهدون اليوم وغير اليوم في مشارق الأرض ومغاربها، حيث تكالبت عليهم قوى الشر والكفر؟

ما هو طريق الخلاص بعدما تقبل المسلمون لباس العبودية العقلية الذي خلعت عليهم المدنية الأجنبية؟

يستثير هذه الأسئلة وغيرها غياب المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد، وبعد ذلك عن واقع المسلمين اليوم، حيث مسخت مفاهيمها حتى صار من يقر بتوحيد الربوبية فقط دون توحيد الألوهية يعتبر موحداً عند كثير من الناس!!!

أما كون لا إله إلا الله ولاء وبراء، أما كونها توحيد ألوهية وعبادة: فهذه معان لا تخطر على أذهان الكثير - إلا من رحم الله -.

ورحم الله الإمام الداعية شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حين قال:

(إن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحّد الله وترك الشرك إلا بعداوة

المشركين كما قال تعالى في سورة المجادلة :

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢] (١).

وأنطلاقاً من مجموع هذه الأمور، وحباً في خدمة هذه العقيدة، ورغبة في تنفيذ الباطل وبيان الحق: عقدتُ العزم وأستعنت بالله وكسبت هذا الموضوع وسميته: "الولاء والبراء في الإسلام".

وأنا أعلم — يقيناً — أن مثلي لا يعطي هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة نظراً لقلّة البضاعة وسعة الموضوع، ولكنني بذلتُ جهد المقل، وأتجهدت أن أصل به إلى الصورة التي تليق به، فإن أصبت فذاك ما أردت والفضل لله أولاً وآخرأ.

وإن كانت الأخرى فاستغفر الله لذنبي. وحسبي أنني بذلت طاقتي ووضعت لبنّة في طريق من يريد إكمال البناء.

وأقول كما قال سلفنا الصالح: (رحم الله امرأً أهدي إلي عيوي).
كما أنني أطلب من كل قارئ كريم — عالم أو متعلم — قرأ هذا الكتاب ووجد فيه خللاً أن ينهني إلى ذلك، وله من الله الأجر والمثوبة على قيامه بواجب النصح، ثم له مني الدعاء بظاهر الغيب.

وأخيراً أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذي الكبير العالم العامل الشيخ محمد قطب حفظه الله لما أسداه إلي من نصح وتوجيه، وإرشاد وتنبيه إبان إشرافه على هذا البحث، سائلاً الله العليّ القدير أن يجزيه عني خير ما جازى معلماً عن تلميذه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١) «مجموعة التوحيد»: (ص ١٩) ط. دار الفكر بالقاهرة.

اللهم اجعل عملنا خالصاً صائباً، خالصاً لوجهك الكريم صائباً وفق كتابك وسنة نبيك ﷺ.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا وأغفر لنا وأرحمنا أنت مولانا فأنصرنا على القوم الكافرين.

محمد بن سعيد بن سالم القحطاني
مكة المكرمة
١٤٠٢/٥/١٥ هـ

التعميد

التمهيد

لكي نتحدث عن الولاء والبراء من واقع التصور الإسلامي الصحيح، لا بد أن نتحدث في هذا التمهيد عن حقائق ثلاث هي:

- (١) حقيقة الإسلام الممثلة في كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ومدلول هذه الكلمة وشروطها.
- (٢) الولاء والبراء من لوازم كلمة التوحيد.
- (٣) نواقض الإسلام: الشرك والكفر والنفاق والردة.

وهدفنا من هذا هو: أن أحاول - بقدر الطاقة - إبراز حقيقة الإسلام، وحقيقة ما يناقضه. مع إبراز حقيقة قضية الولاء والبراء ودورهما في حياة المسلمين. لأن الولاء والبراء جزء من هذه العقيدة، فالحديث عنه يستلزم الحديث عن أساس هذه العقيدة وهي كلمة التوحيد. ومعرفة هذه العقيدة معرفة صحيحة أمر ضروري للمسلم ليكون ولاؤه وبرأؤه بحسبها. إذ من المحال أن تكون هناك عقيدة سليمة بدون تحقيق الموالاة والمعاداة الشرعية.

ثم إن الوقوف على حقيقة دعوة رسول الله ﷺ وما أحدثته هذه الدعوة من تحول في تاريخ البشرية، وما بنته من حضارة سَعَدَ بها الإنسان المسلم منذ أول لحظة عرف فيها ربّه ودينه ونيّبه: لأمر جدير بالتأمل، تلك الدعوة التي جاءت وقد كان الناس يعيشون في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ثم أنقذتهم وأحييتهم بعد ممات :

أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا

[سورة الأنعام: ١٢٢]

ولقد أوضح حقيقة تلك الحال التي كانوا عليها الصحابي الجليل المقداد^(١) بن الأسود رضي الله عنه فقال فيما رواه أبو نعيم في «الحلية»: (وَاللَّهِ لَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بَعَثَ عَلَيْهِ نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فِي فِتْرَةٍ وَجَاهِلِيَةٍ. مَا يَرُونَ دِينًا أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفِرْقَانٍ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لِيرَى وَالِدَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا - وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى قَفْلَ قَلْبِهِ لِلْإِيمَانِ - لِيَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ مِنْ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَمِيمَهُ فِي النَّارِ، وَأَنَّهَا لِلَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا قَبْرَةً أَخْبِثَ

[سورة الفرقان: ٧٤] (٢).

هذه الجاهلية التي تحدث القرآن عنها وهو يمتن على المسلمين بالهداية. قال

تعالى :

وَأَعْيَضُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ
فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

[سورة آل عمران: ١٠٣].

(١) هو المقداد بن الأسود. أسلم قديماً وشهد بدرًا والمشاهد، وكان فارساً يوم بدر. توفي سنة ٣٣ هـ قال بعضهم وهو ابن سبعين سنة. وكان ذلك بالجوف على بعد ثلاثة أميال من المدينة وحمل إلى المدينة ودفن بها. انظر «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني: (ج ١٠/٢٨٥).

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم: (ج ١/١٧٥) وذكره صاحب كتاب «حياة الصحابة»: (ج ١/٢٤١) وقال إن الطبراني أخرجه أيضاً بمعناه بأسانيد في أحدهما يحيى بن صالح. وثقه الذهبي، وقد تكلموا فيه، وبقيّة رجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (ج ٦/١٧).

ولما عرف الصحابة رضوان الله عليهم الجاهلية، ثم عرفوا الإسلام، خرجوا نتيجة للتربية القرآنية والعناية النبوية - وهم أعظم جيل عرفه تاريخ هذه الدعوة.

ترى، ما سیر تلك العظمة التي نقرأ عنها ونسمع، وكأنها شبه أحلام، نظراً للهوة السحيقة التي وصلنا إليها؟ ذلك الجيل الذي كان الواحد منهم إذا دخل في الإسلام خلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية، وأنتقل نقلة بعيدة من عالم مظلم سحيق، وتصور قاصر، ومفاهيم كليلية، وعبودية للمال والعبيد، إلى حياة رحة فسيحة، وعالم يملؤه نور الله، وتصور كامل شامل، وأستعلاء على كل عبودية إلا العبودية لله عز وجل^(٣).

إن سیر ذلك النجاح، وتلك العظمة هو نقطة البدء التي بدأ بها رسول الله ﷺ وهي كلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" هذه الكلمة التي مزقت كل رابطة، وأهدرت كل وشيجة إلا وشيجة العقيدة. رابطة الحب في الله، رابطة المؤاخاة الإيمانية التي يتهاوى دونها كل عرق ودم وتراب وجنس ولون. ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي. اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي"^(٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "إن من عباد

(٣) انظر «معالم في الطريق» للاستاذ سيد قطب: (ص ١٦) فصل جيل قرآني فريد. طبع دار الشروق، وانظر كتاب «أبو بصير قمة في العزة الإسلامية» للاستاذ محمد حسن بريغش: (ص ٤٧) ط. ٢ سنة ١٣٩٧هـ الناشر مكتبة الحرمين بالرياض.

(٤) «صحيح مسلم» تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى: (ج ٤/ ١٩٨٨ ح ٢٥٦٦) كتاب البر. الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤هـ دار إحياء الكتب العربية، وانظر المسند للإمام أحمد تحقيق الشيخ أحمد شاكر: (ج ١٦/ ١٩٢ ح ٨٤٣٦) ط. ٤ سنة ١٣٧٣هـ دار المعارف بمصر، والموطأ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى: (ج ٢/ ٩٥٢).

آلله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من آله تعالى قالوا: يا رسول آله تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح آله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية :

الْأَبْرَارُ أَزْوَاجٌ لَّآخَوْفٍ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

[سورة يونس: ٦٢].

ولقد مكث رسول آله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى هذه العقيدة ويمكثها في نفوس العصبة المسلمة، مما جعل آثار ذلك تنعكس في أفعالهم الحميدة، وجهادهم المستمر لنشر كلمة آله في الأرض، حين قامت دولة المصطفى ﷺ في المدينة المنورة.

إن الذي يجعلنا نتحدث عن قضية الألوهية، ومفهومها الصحيح الذي جاء به الإسلام هو الحاجة الماسة لشرحها اليوم، وبيانها للناس. بعد أن انحرف الناس - إلا من رحم آله - عن العقيدة الصافية التي جاء بها الرسول ﷺ.

لقد أصبحت هذه القضية عند سواد الناس اليوم مجرد لفظة ترددها الألسنة دون وعي وتدبر لمعناها ولوازمها، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل تعداه إلى إيراد بعض النصوص للاستشهاد بها على ما يرون من معتقد، دون نظر لكامل النصوص في هذه القضية، ودون رجوع إلى بيان ذلك في كتب أهل العلم من كتب الحديث وشروحها وكتب التفسير وشروح جهازة رجال الدعوة والإصلاح على مدار تاريخ هذه الأمة.

ومسوخ أيضاً مفهوم العبادة الشامل الكامل للحياة الدنيا والآخرة إلى جزء

(٥) «سنن أبي داود»: (ج ٣/ ٧٩٩ ح ٣٥٢٧) كتاب البيوع. وإسناده صحيح. تعليق عزت الدعاس الطبعة الأولى سنة ١٣٩١ هـ الناشر محمد علي السيد بسوريا.

يسير منها وهو الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج.

أما النظام الذي تقوم عليه الحياة. أما الولاء لمن يكون؟ والبراء ممن يكون؟
أما الحب لمن؟ والبغض لمن؟ فهذه معاني بعيدة عن تصورهم وبمجال تفكيرهم!!
إن هذا الدِّين لم يكن توحيد ربوية فحسب. وإنما هو أيضاً توحيد ألوهية
وتوحيد أسماء وصفات تليق بجلال الله وعظمته.

وتأمل — كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله — :

(حال رسول الله ﷺ لما قام ينذر المشركين عن الشرك، ويأمرهم
بضده وهو التوحيد، لم يكرهوا وأستحسنوا، وحدثوا أنفسهم بالدخول فيه،
إلى أن صرح بسبب دينهم وتجهيل علمائهم، فحيث شئتموا له ولأصحابه
عن ساق العداوة، وقالوا: سفه أحلامنا، وعاب ديننا، وشتم آلهتنا، ومعلوم
أنه ﷺ لم يشتم عيسى وأمه، ولا الملائكة، ولا الصالحين، ولكن لما ذكر
أنهم لا يذعنون ولا ينفعون، ولا يضررون: جعلوا ذلك شتماً.

(فإذا عرفت هذا، عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام — ولو وحده
الله وترك الشرك — إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض،
كما قال تعالى في سورة المجادلة :

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ

[سورة المجادلة: ٢٢].

(فإذا فهمت هذا جيداً عرفت أن كثيراً من الذين يدعون الدِّين
لا يعرفونها — أي لا إله إلا الله — وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر
على ذلك والعذاب والأسر، والضرب، والهجرة للحبشة، مع أنه ﷺ أرحم

الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم (٦).

وما دام أن هناك من يجهل حقيقة "لا إله إلا الله" فلا بد من الشرح لها، والبيان لمدلولها وحقيقتها، وشروطها ونواقضها ولوازمها وإليك ذلك مفصلاً.

ومن الله نستمد العون والسداد.

(٦) «مجموعة التوحيد» لابن تيمية وابن عبد الوهاب وغيرهم: (ص ١٩) الناشر دار الفكر بالقاهرة.

كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)

ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، وبذلك تنفي الإلهية عما سوى الله
نثبتها لله وحده^(٧).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما
يحب، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة
”لا إله إلا الله“ وهي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء
 والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين)^(٨) أما شيقها الثاني ”محمد
رسول الله“ فمعناه تجريد متابعتة ﷺ فيما أمر والانتفاء عما نهى عنه
وزجر.

ومن هنا كانت ”لا إله إلا الله“ ولاء وبراء، نفياً وإثباتاً.

ولاء لله ولدينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين.

وبراء من كل طاغوت عبد من دون الله^(٩).

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ

[سورة البقرة: ٢٥٦]

(٧) انظر «فتح المجيد»: (ص ٣٦).

(٨) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: (ج ٢٨/٣٢). جمع عبدالرحمن بن قاسم ط. أولى مطبعة الحكومة سنة ١٣٨١هـ.

(٩) عرف ابن القيم الطاغوت تعريفاً جامعاً فقال: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحكمون إليه غير =

وفي هذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: وأعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية^(١٠) يعني الآية السابقة ٢٥٦ سورة البقرة.

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله :

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

[سورة الأعراف: ٣]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

[سورة الروم: ٣٠]

وبراء من حكم الجاهلية :

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

[سورة المائدة: ٥٠]

وبراء من كل دين غير دين الإسلام :

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

[سورة آل عمران: ٨٥]

ثم هي نفى وإثبات تنفي أربعة أمور. وثبت أربعة أمور.

= الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله. انظر «فتح المجيد» لعبد الرحمن بن حسن: (ص ١٦) ط. ٧ سنة ١٣٧٧هـ مطبعة أنصار السنة.
(١٠) «الدرر السنية»: (ج ١/٩٥) جمع عبد الرحمن بن قاسم.

(تنفي: الآلهة، والطواغيت، والأنداد، والأرباب.
 فالآلهة: ما قصده بشيء من جلب خير أو دفع ضرر، فانت متخذه إلهاً.
 والطواغيت: من عبد وهو راض، أو رُشح للعبادة.
 والأنداد: ما جذبك عن دين الإسلام، من أهل، أو مسكن، أو عشيرة،
 أو مال فهو نذ لقوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْبَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥]

والأرباب: من أفتاك بمخالفة الحق وأطمعته، مصداقاً لقوله تعالى :

اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ رُءُوسًا مِّن دُونِ اللَّهِ

[سورة التوبة: ٣١]

وتثبت أربعة أمور :

القصد: وهو كونك ما تقصد إلا الله.

والتعظيم والمحبة: لقوله تعالى :

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥]

والخوف والرجاء: لقوله تعالى :

وَأَن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبَكَ أَشَدَّ لَأَهْوِيَنَّ
 يَدُكَ فِي الْخَيْرِ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

[سورة يونس: ١٠٧]

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير الله ولا تكبر عليه جهامة الباطل،

كما أخبر تعالى عن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بتكسير الأصنام
وقبليه من قومه :

فَدَكَاتْ لَكُمْ أَسْرُهُ حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ
إِنَّا بَرَاءٌ وَأَمِنْكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرًا يُكْذِبُونَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ

[سورة الممتحنة: ٤] (١١).

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبين معنى لا إله إلا الله، ينفي الشرك
وتوابعه، ويقرر الإخلاص وشرائعه، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه
هو من مدلول كلمة الإخلاص، لأن دلالتها على الذين كله إما مطابقة وإما
تضمناً وإما التزاماً^(١٢)، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى.

والتقوى: أن يتقي سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي، وإخلاص
العبادة لله، وأتباع أمره على ما شرعه. كما قال آبن مسعود رضي الله عنه: «أن
تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله،
على نور من الله، تخاف عقاب الله»^(١٣).

أما كيف تم لأصحاب رسول الله ﷺ معرفة هذه الكلمة والتزام
أحكامها والعمل بمقتضياتها ولوازمها فيشرح ذلك الإمام الجليل سفيان بن

(١١) بضع رسائل في عقائد الإسلام للشيخ/ محمد بن عبد الوهاب: (ص ٣٥) تحقيق
محمد رشيد رضا. الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩ هـ مطبعة المنار بمصر.

(١٢) دلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على كل معناه.
دلالة التضمن: هي دلالة اللفظ على جزء معناه.

دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على معنى خارج عنه لكنه لازم له.
(١٣) انظر المورد العذب الزلاله ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية:
(ج ٩٩/٤) تحقيق رشيد رضا. الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ مطبعة المنار بمصر.

عينة^(١٤):

(حدث محمد بن عبد الملك المصيصي قال: كنا عند سفيان بن عيينة في سنة سبعين ومائة، فسأله رجل عن الإيمان؟ فقال: قول وعمل. قال: يزيد وينقص؟ قال: يزيد ما شاء الله، وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه، وأشار سفيان بيده. قال الرجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون: أن الإيمان قول بلا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده. إن الله عز وجل بعث نبينا محمداً ﷺ إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأنه رسول الله. فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالصلاة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم^(١٥).

(فلما علم الله جل وعلا صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم، ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم، ولا قتالهم، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدًا، وأن يحلقوا

(١٤) هو الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي، الحافظ، أحد أعلام الإسلام ولد سنة ١٠٧هـ وتوفي سنة ١٩٨هـ وله إحدى وتسعون سنة قال فيه الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز وقال فيه أحمد بن حنبل: ما رأيت أحداً أعلم بالسنن من ابن عيينة وكان كبير القدر. من العباد. حج سبعين سنة. انظر «شذرات الذهب»: (ج ١/٣٥٤)، «وه الأعلام»: (ج ٣/١٠٥) ط. ٤.

(١٥) هكذا بالنص، والذي يبدو لي — والله أعلم — أن سياق الكلام يقتضي أن يكون هكذا ”ما نفعهم الإقرار الأول“ يدل على ذلك ما سيأتي في بقية النص.

رؤوسهم تذلاً ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلاً وكثيراً، والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم. فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال عز وجل: قل لهم :

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

[سورة المائدة: ٣]

(قال سفيان: فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافراً، ومن تركها كسلاً أو تهاوناً بها، أذنبه وكان بها عندنا ناقصاً. هكذا السنة أبلغها عني من سألك من الناس) (١٦).

وقد ذكر العلماء رحمتهم الله شروطاً سبعة لـ "لا إله إلا الله" لا تنفع صاحبها إلا بآجتماع هذه الشروط. وإليك شرحها :

(١٦) كتاب «الشريعة» لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري: (ص ١٠٤) الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩هـ تحقيق محمد حامد الفقي. الناشر: مطبعة أنصار السنة المحمدية بمصر.

شروط (لا إله إلا الله)

ينبغي أن نعلم أنه :

(ليس المراد من هذا عدّ ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه وآلتزمها، ولو قيل له أعددها لم يُحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله) (١٧).

وقد قال وهب بن منبه (١٨): لمن سأله :

(أليس ”لا إله إلا الله“ مفتاح الجنة؟ قال: بلى. ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك) (١٩).

وأسنان هذا المفتاح هي شروط ”لا إله إلا الله“ الآتية :

الشرط الأول: العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا، المنافي للجهل بذلك

قال تعالى :

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

[سورة محمد: ١٩]

(١٧) «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي: (ج١/٣٧٧) الطبعة الأولى تصوير ادارات البحوث العلمية بالرياض.

(١٨) وهب بن منبه بن كامل البجلي الصنعائي روى عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وابن عمر وغيرهم. قال العجلي: تابعي ثقة وكان على قضاء صنعاء ووثقه أيضاً: أبو زرعة والنسائي وابن حبان. كان مولده سنة ٣٤هـ ووفاته سنة ١١٠هـ. انظر «تهذيب التهذيب»: (ج١١/١٦٧).

(١٩) رواه البخاري تعليقا في كتاب الجنائز باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: (ج٣/١٠٩).

وقال تعالى :

إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ

[سورة الزخرف: ٨٦]

أي: بـ ”لا إله إلا الله“: ”وهم يعلمون“ بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال تعالى :

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

[سورة آل عمران: ١٨]

وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٢٠).

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك. ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة، يقيناً جازماً، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن^(٢١) قال تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ

[سورة الحجرات: ١٥]

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

(٢٠) «معارج القبول»: (ج ١/٣٧٨)، وانظر «الجامع الفريد» (ص ٣٥٦). والحديث مروي في «صحيح مسلم» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي: (ج ١/٥٥ ح ٢٦) كتاب الإيمان.

(٢١) «معارج القبول»: (ج ١/٣٧٨).

الله ﷻ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقي الله بهما عبد غير شك فيهما إلا دخل الجنة»^(٢٢). وفي رواية: «لا يلقي الله بهما عبد غير شك فيهما فيحجب عن الجنة». وعن أبي هريرة أيضاً من حديث طويل: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»^(٢٣).

وقال القرطبي: في «المفهم على صحيح مسلم»: (باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لا بد من استيقان القلب. وهذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجفة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده. بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً)^(٢٤).

الشرط الثالث: القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد قصر الله عز وجل علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وأنتقامه ممن ردّها وأباها كما قال تعالى:

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حَتَّكَمُ بِأَهْدَىٰ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَةً كَذَالُوا
إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَذَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

[سورة الزخرف: ٢٣ - ٢٥]

(٢٢) صحيح مسلم: (ج ١/ ٥٦ ح ٢٧) كتاب الإيمان.

(٢٣) صحيح مسلم: (ج ١/ ٦٠ ح ٣١) كتاب الإيمان.

(٢٤) فتح المجيد: (ص ٣٦).

وقال تعالى:

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقَّقًا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة يونس: ١٠٣]

ويقول تعالى:

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ بِشَايٍ مِمَّا تَخْتِثُ بِهِ

[سورة الصافات: ٣٥ - ٣٦] (٢٥).

الشرط الرابع: الانقياد لما دلت عليه، المنافي لترك ذلك.

قال تعالى:

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ

[سورة الزمر: ٥٤]

وقال:

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

[سورة النساء: ١٢٥]

وقال تعالى:

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ

[سورة لقمان: ٢٢]

أي بلا إله إلا الله.

وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» (٢٦)

(٢٥) «معارج القبول»: (ج ١/ ٣٨٠).

(٢٦) «معارج القبول»: (ج ١/ ٣٨١)، وانظر الرسالة الخامسة حول لا إله إلا الله =

وهذا هو تمام الانقياد وغبائه.

وقال تعالى:

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

[سورة النساء: ٦٥]

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك بطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة، ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» (٢٧).

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقاً من قلبه، يواطئ قلبه لسانه، قال تعالى:

الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢٦﴾

= المطبوعة مع «الكلمات النافعة» للشيخ/ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب: (ص ٧٣) ط. ٢ سنة ١٤٤٠ هـ السلفية بمصر.
والحديث مروي في: «الأربعين النووية» للإمام النووي: (ص ١٣٤) الحديث الحادي والأربعون الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣م الناشر مطابع قطر. قال النووي: وهو حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجّة باسناد صحيح.
(٢٧) «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير: (ج ٢/ ٣٠٦) تحقيق عبدالعزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنا. مطبعة الشعب.

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾

[سورة العنكبوت: ١ - ٣] (٢٨).

وقال تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ

مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا يَأْتِيهِمْ يَوْمَئِذٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ
يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢﴾ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٣﴾

[سورة البقرة: ٨ - ١٠]

وفي «الصحيحين» عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار» (٢٩).

قال العلامة آبن القيم:

(والتصديق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وأمثال أوامره وأجتناب نواهيه.. فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقوقها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقوقها) (٣٠).

(٢٨) «معارج القبول»: (ج ١/٣٨١).

(٢٩) «صحيح البخاري»: (ج ١/٢٢٦ ح ١٢٨) كتاب العلم. تحقيق محمد فؤاد

عبدالباق المطبوع مع فتح الباري بالمطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٨٠ الطبعة الأولى. وانظر «الذلول» والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، للشيخ محمد فؤاد عبدالباق: (ج ١/٨ ح ٢٠) تصوير المكتبة الإسلامية — بيروت.

(٣٠) «التيبان في أقسام القرآن» لابن القيم: (ص ٤٣) تعليق طه يوسف شاهين.

وفي الحديث، قال ﷺ: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه»^(٣١).

وقال ابن رجب:

(أما من قال: لا إله إلا الله بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقلدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِخَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ

[سورة القصص: ٥٠]

وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

[سورة سورة ص: ٢٦] (٣٢)

الشرط السادس: الإخلاص، وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك^(٣٣). قال تعالى:

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ

[سورة الزمر: ٣]

وقال تعالى:

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ

[سورة البينة: ٥]

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي

(٣١) أخرجه الحاكم في «المستدرک»: (ج ١/٧٠) كتاب الإيمان. وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣٢) «كلمة الإخلاص»: (ج ٢٨).

(٣٣) «معارج القبول»: (ج ١/٣٨٢)، وانظر «الجامع الفريد»: (ص ٣٥٦).

من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، «أو نفسه» (٣٤).

وفي «الصحيح» عن عتبان بن مالك (٣٥) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل» (٣٦).

وللنسائي في «اليوم والليلة» من حديث رجلين من الصحابة عن النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير مخلصاً بها قلبه، يصدق بها لسانه، إلا فتق الله لها السماء فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤله» (٣٧).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله:

(إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة) (٣٨).

(٣٤) «صحيح البخاري»: (ج ١/ ١٩٣ ح ٩٩) كتاب العلم باب الحرص على الحديث.

(٣٥) هو عتبان بن مالك بن العجلان الخزرجي السلمي الأنصاري. بدري عند الجمهور. كان إمام قومه في بني سالم. وذكر ابن سعد أن النبي ﷺ آخى بينه وبين عمر. وقد مات في خلافة معاوية.

انظر «الإصابة» لابن حجر: (ج ٢/ ٤٥٢).

(٣٦) «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٤٥٦ ح ٢٦٣) كتاب المساجد.

(٣٧) أورد هذا الحديث ابن رجب في «كلمة الإخلاص»: (ص ٦١). وقال فيه الألباني: عزاه في الجامع الكبير (٢/ ٤٧٧) عن يعقوب بن عاصم قال: حدثني رجلان من الصحابة. ويعقوب هذا من رجال مسلم ووافقه ابن حبان فإن كان السند إليه صحيحاً فالحديث ثابت.

(٣٨) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (ص ٤٥١) تحقيق محمد حامد الفقي. الطبعة الثانية سنة ١٣٦٩ هـ، مطبعة أنصار السنة.

ولقد ضرب الله سبحانه في القرآن العظيم مثلاً واضحاً للمخلص في توحيده وللمشرك قال تعالى:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

[سورة الزمر: ٢٩]

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسيرها:

(هذا مثل يضربه الله للعبد الموحّد والعبد المشرك، بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزّع، ولكلّ منهم فيه توجيه، ولكلّ منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة.. وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح، هل يستويان؟ لا. لأنّ الذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين، وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق. والذي يخضع لسادة مشتركين معذب مقلقل، لا يستقر على حال، ولا يرضى واحداً منهم فضلاً عن أن يرضى الجميع. وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد، وحقيقة الشرك في جميع الأحوال. فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يسير على هدى من الله يستمد منه وحده ويتجه إليه وحده) (٣٩).

ويقول الشيخ القاسمي رحمه الله:

(إن القصد هو توحيد المعبود في توحيد الوجهة، ودرء الفرقة كما قال تعالى:

(٣٩) وفي ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب: (ج ٥/٤٩، ٣٠)، الطبعة المشروعة، الناشر: دار الشروق. وانظر «التفسير القيم» لابن القيم: (ص ٤٢٣) جمع محمد أويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي، الناشر: لجنة التراث — بيروت.

ءَأَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ

[سورة يوسف: ٣٩] (٤٠).

(إن الإسلام لا بد فيه من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة "لا إله إلا الله" فمن أسلم لله ولغير الله فهو مشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ

[سورة غافر: ٦٠] (٤١).

الشرط السابع: المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥] (٤٢).

وقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ ءَؤْلُو عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزُّوْ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُوا فِي

(٤٠) «محاسن التأويل» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي: (ج٤/٥١٣٨)، تحقيق

محمد قزاد عبد الباقي. الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦هـ، دار إحياء الكتب.

(٤١) انظر «القضاء الصراط المستقيم»: (ص٤٥٤)، و«التحفة العراقية» لابن تيمية: (ص٤١).

(٤٢) «أعلام السنة المنشورة» لحافظ الحكمي: (ص١٤)، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ،

الناشر: إدارات البحوث العلمية بالرياض، وانظر «معارج القبول»:

(ج٣٨٣/١)، و«الجامع القريده»: (ص٣٥٦).

سَبِيلُ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ

[سورة المائدة: ٥٤]

وفي الحديث: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» (٤٣).

قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله (٤٤):

(وعلامة حب العبد ربّه: تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربّه وإن مال إليه هواه. وموالاة من وإلى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه. واتباع رسوله ﷺ، واقتفاء أثره، وقبول هداه) (٤٥).

ويقول ابن القيم في «التوبة»:

شرط المحبة أن توافق من تحب	على محبته بلا عصيان
فإذا آذعت له المحبة مع خلا	فك ما يجب فأنت ذو بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعي	حبا له ما ذاك في إمكان
وكذا تعادي جاهداً أحبابه	أين المحبة يا أخا الشيطان
ليس العبادة غير توحيد المحبة	مع خضوع القلب والأركان

(٤٣) «صحيح البخاري»: (ج ١/٦٠، ح ١٦) كتاب الإيمان، و«صحيح مسلم»:

(ج ١/٦٦، ح ٤٣) كتاب الإيمان.

(٤٤) هو الشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي. عالم سلفي من منطقة تهامة ولد

سنة ١٣٤٢ هـ بقرية السلام بالقرب من جيزان. كان آية في الذكاء وسرعة

الحفظ والفهم. تتلمذ على الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي. وكان ذا علم

وتقوى وعفة. وتوفي رحمه الله سنة ١٣٧٧ هـ وعمره ٣٥ سنة. انظر ترجمته

بقلم ابنه أحمد بن حافظ في أول معارج القبول الجزء الأول.

(٤٥) «معارج القبول»: (٣٨٣/١).

إلى أن يقول:

ولقد رأينا من فريق يدعي الإ سلام شركاً ظاهراً التبيان
جعلوا له شركاء والوهم وسو وهم به في الحب لا السلطان^(٤٦)

(٤٦) «التوبة»: (ص ١٥٨).

الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله

(لما كان أصل الموالاة: الحب. وأصل المعاداة: البغض. وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة، وكالجهاد، والهجرة، ونحو ذلك) (٤٧). فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله. وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة.

أما الكتاب فمن ذلك قوله تعالى:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ
تَقَةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

[سورة آل عمران: ٢٨]

ويقول تعالى:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ

[سورة آل عمران: ٣١ - ٣٢]

(٤٧) «الرسائل المفيدة» للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: (ص ٢٩٦)، تصحيح عبد الرحمن الرويشد، طبع سنة ١٣٩٨هـ بدار العلوم بمصر.

ويقول تباركت أسماؤه عن أهداف أعداء الله:
وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
حَتَّى يهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

[سورة النساء: ٨٩]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

ويقول تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ رَدَّدَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَصَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ

[سورة المائدة: ٥٤]

أما الأحاديث والآثار فكثيرة وأذكر منها:

- (١) ما رواه الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن «تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر» (٤٨).
- (٢) روى ابن أبي شيبة بسنده قال: قال رسول الله ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» (٤٩).

(٤٨) «المسند للإمام أحمد: (ج ٤/٣٥٧، ٣٥٨)، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨ هـ، الناشر المكتب الإسلامي وهو حديث حسن.

(٤٩) «الإيمان» لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، توفي سنة ٢٣٥ هـ: (ص ٤٥)، تحقيق الألباني وقال: أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعاً وهو حسن، المطبعة العمومية بدمشق وانظر «المسند»: (٢٨٦/٤).

(٣) روى الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»^(٥٠).

(٤) أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»^(٥١).

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في شرح قول ابن عباس هذا:

(قوله: «ووالى في الله» هذا بيان لل لازم المحبة في الله، وهو الموالاة فيه، إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لا بد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب. وهي النصرة والإكرام، والاحترام والكون مع المحبوبين باطنياً وظاهراً. وقوله: «وعادى في الله» هذا بيان لل لازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه. أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطنياً وظاهراً، إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْبَىٰ وَيَذَلْنَا

(٥٠) ذكر السيوطي في «الجامع الصغير»: (٦٩/١) وقال الألباني: حديث حسن.

انظر «صحيح الجامع الصغير»: (٣٤٣/٢، ح ٢٥٣٦).

(٥١) «حلية الأولياء»: (٣١٢/١) عن ابن عباس، و«جامع العلوم والحكم» لابن

رجب الحنبلي: (ص ٣٠)، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٢ هـ، الناشر: مصطفى الباني

الحلي بمصر.

وَبَيْنَكُمْ أَلْمَدَّةُ وَالْبَعْثُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

[سورة الممتحنة: ٤]

قلت: ومما سبق يتضح أن الولاء في الله هو: محبة الله ونصرة دينه، ومحبة أوليائه ونصرتهم. والبراء هو: بغض أعداء الله ومجاهدتهم. وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول: بـ "أولياء الله"، والفريق الثاني: بـ "أولياء الشيطان" قال تعالى:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَزْوَاجُ الْمَلَائِكَةِ يَخْرِجُونَهُمْ مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٧]

وقال تعالى:

الَّذِينَ آمَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الْمَلَائِكَةِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا

[سورة النساء: ٧٦]

وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سبحانه لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء، كما قال تعالى:

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ
يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا

[سورة الأنعام: ١١٢]

(٥٢) «تيسر العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد» للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: (ص ٤٢٢)، الناشر: إدارات البحوث العلمية بالرياض بدون تاريخ.

(وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، وكتب وحُجج كما قال تعالى:

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ
مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ

[سورة غافر: ٨٣]

(والواجب على المسلم أن يتعلم من دين الله ما يصير له سلاحاً يقاتل به هؤلاء الشياطين، ومن ثم لا خوف ولا حزن لأن:

كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا

[سورة النساء: ٧٦]

(والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين كما قال تعالى:

وَإِنْ جُنَدْنَاهُمْ أَفْلَاحُونَ

[سورة الصافات: ١٧٣]

(فوجد الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان) (٥٣).

وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود ونصارى ومستعربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هي تمييع عقيدة المسلمين، وتزويب شخصيتهم المتفردة، لجعلهم حميراً للشعب المختار كما تنص على ذلك "بروتوكولات حكماء صهيون". فإنه يتضح لدى المسلم أهمية هذا

(٥٣) يتصرف: انظر «كشف الشبهات» للإمام محمد بن عبد الوهاب: (ص ٢٠)، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، الناشر: مؤسسة النور بالرياض. وانظر «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»: (ج ٤/ ٤٦).

الموضوع حتى يحذر هو ومن معه، بل يحذر المسلمون عامة، من الانزلاق في مهاوي الردى خاصة وإن الدعوات المشبوهة الملحدة تدعو إلى ما يسمى بالأخوة والمساواة وإن الدين لله والوطن للجميع! وسوف أتعرض لهذا بالتفصيل إن شاء الله في الباب الأخير.

فَبَانَ بهذه الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة أن الولاء والبراء من لوازم "لا إله إلا الله" وهو أيضاً تحقيق معناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا الله، ولا يبغض إلا الله، ولا يوالي إلا الله، ولا يعادي إلا الله، وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله) (٥٤) ويوالي المؤمنين في أي مكان حلّوا، ويعادي الكافرين ولو كانوا أقرب قريب.

ثم إن من الولاء والبراء ما هو شطر العقيدة وركنها الثاني الذي لا تتم إلا به وهو الكفر بالطاغوت. قال تعالى:

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

[سورة البقرة: ٢٥٦]

فلا يكون مؤمناً من لا يكفر بالطاغوت، وهو كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب من دون الله.

فقبول الإيمان والاستمسك بالعروة الوثقى مستلزم للكفر بالطاغوت كما نصت على ذلك الآية الكريمة.

(٥٤) «الاحتجاج بالقدرة»: (ص ٦٢)، طبعة سنة ١٣٩٣ هـ، المكتب الإسلامي.

الرد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط مع بيان المذهب الصحيح في الأحاديث الواردة بخصوصها

يقول العلامة آبن القيم رحمه الله:

(ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه: لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عبّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»^(٥٥) وقوله: «ولا يدخل النار من قال لا إله إلا الله»^(٥٦). وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث، التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظننها بعضهم منسوخة! وظننها بعضهم قبلت قبل ورود الأوامر والنواهي وأستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأوّل بعضهم الدخول بالخلود وقال: المعنى لا يدخلها خالداً، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة. فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، لأن المناققين يقولونها بالسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار.

بل لا بد من قول القلب، وقول اللسان.

وقول القلب: يتضمن من معرفتها والتصديق بها، ومعرفة حقيقة

(٥٥) سبق ترجمته (ص ٣٧).

(٥٦) سبق الكلام عليه في شروط لا إله إلا الله.

ما تضمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفةً و يقيناً وحالاً: ما يوجب تحريم قائلها على النار.

(وتأمل حديث البطاقة^(٥٧) التي توضع في كِفَّةٍ، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة.. ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات.

(وتأمل أيضاً ما قام بقلب قاتل المائة^(٥٨) من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، لأن ذلك كان أمراً آخر، وإيماناً آخر ولذلك ألحق بأهل القرية الصالحة. وقريب من هذا ما قام بقلب البغي^(٥٩) التي رأت ذلك الكلب وقد أشتد به العطش، يأكل الثرى — فقام بقلبها ذلك الوقت — مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خُفها، ولم تعباً بتعرضها للتلف وحملها خفها فيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخُف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها)^(٦٠).

(٥٧) أخرجه الإمام أحمد في «مسند عبد الله بن عمرو»: (ج ٢، ص ٢١٣)، الطبعة الثانية، وسنده حسن. وأخرجه الترمذي في «الإيمان»: (ج ٧/٢٩٥، ح ٢٦٤١) ورجاله ثقات، فالحديث صحيح.

(٥٨) «صحيح البخاري»: (ج ٦/٥١٢، ح ٣٤٧٠) كتاب الأنبياء، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/٢١١٨، ح ٢٧٦٦) كتاب التوبة.

(٥٩) «صحيح مسلم»: (ج ٤/١٧٦١، ح ٢٢٤٥) كتاب السلام.

(٦٠) «مدارج السالكين» لابن القيم: (ج ١/٣٣٠ — ٣٣٢) بتصرف بسيط.

وقد ورد في «صحيح مسلم» قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله» (٦١).

يقول محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

(وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه) (٦٢).

ومن هنا نعلم فساد عقيدة المرجئة (٦٣): الذين يقولون: إن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل فقط، وأخروا العمل عن الإيمان.

ومن المعلوم أن كفار مكة قد علموا مراد النبي ﷺ من كلمة لا إله إلا الله، فأبوا وأستكبروا ولم يك ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محيي مميت. ولما قال لهم النبي ﷺ قولوا: لا إله إلا الله قالوا:

أَجْعَلْ لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَإِنَّا لَنَكْفُرُ بِمَا كُنَّا نَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ

[سورة ص: ٥]

(فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام، وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني،

(٦١) «صحيح مسلم»: (ج ١/٥٣، ح ٢٣) كتاب الإيمان.

(٦٢) «كتاب التوحيد»: (ص ١١٥)، المطبوع مع «فتح المجيد» الطبعة السابعة سنة ١٣٧٧هـ بتحقيق محمد حامد الفقي. الناشر: مطبعة أنصار السنة بمصر.

(٦٣) المرجئة: من الإرجاء. بمعنى التأخير، وهم يقولون إن الإيمان هو الإقرار فقط. انظر «مقالات الإسلاميين» للأشعري: (ج ١/٢١٤)، «الفرق بين الفرق» للبغدادى: (ص ٢٠٢).

والحاذق من يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمر كله إلا الله، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله (٦٤).

ويتابع الإمام محمد بن عبد الوهاب رده عليهم فيقول:

(وهنا شبهة: وهي قول من يقول: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: لا إله إلا الله (٦٥). وكذلك قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» (٦٦). وأحاديث أخرى، في الكف عمن قالها؟!

(ومراد هؤلاء الجهلة: أن من قالها لا يكفر، ولا يقتل ولو فعل ما فعل (٦٧). فيقال لهؤلاء المشركين الجاهل: معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون "لا إله إلا الله"، وأن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون ويدعون الإسلام، وكذلك الذين حرّقهم علي بن أبي طالب بالنار (٦٨). وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها. (فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟!.

(ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث. فمعلوم أن الرجل إذا أظهر

(٦٤) مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب: (ج ٥/١٥) الطبعة الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٦٥) في صحيح مسلم: (ج ١/٩٧، ح ٩٧).

(٦٦) انظر صحيح مسلم: (ج ١، ص ٥١، ح ٢٠) كتاب الإيمان.

(٦٧) وهذه هي دعوى المرجفة. أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

(٦٨) هم الغلاة الذين ادعوا ألوهية علي رضي الله عنه.

الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك كما قال تعالى:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتْهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا نَقُولُوا

[سورة النساء: ٩٤]

(أي فتثبتوا. فدلّت الآية على وجوب الكف حتى يتثبت منه، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى.

(وأيضاً أمره ﷺ بقتل الخوارج «أينما لقيتموهم فأقتلوهم لمن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد»^(٦٩) مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسييحاً، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم. وقد تعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم ”لا إله إلا الله“ ولا كثرة العبادة ولا أدعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة)^(٧٠) .

ويعلم كل ذي لب أنها لو كانت كلمة - مجرد كلمة - لكان أمرها على قريش سهلاً فنطقها وتخلص من هذا العناء وتسفيه الآلهة!

ولكنها تعلم أن هذه الكلمة لها مدلولها الذي يغير أوضاع قريش الجاهلية ولها مقتضياتها التي تحطم طغيان قريش وأستعبادها للناس.

ولها أهميتها في تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض إلى عبودية الواحد القهار وجعل التقوى هي الميزان والفخار الذي ينشده الناس، وليس العادات والتقاليد الجاهلية التي توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد.

فحرّي بكل مسلم جاد في إسلامه أن يقدر لهذه الكلمة قدرها حتى يكون ممن عبّد الله على بصيرة وعلم ويقين.

(٦٩) صحيح مسلم: (ج٢/٧٤٢، ح١٠٦٤).

(٧٠) كشف الشبهات: (ص٤٠).

آثار الإقرار بـ «لا إله إلا الله» في حياة الإنسان

ذكر الأستاذ المودودي رحمه الله في كتابه القيم «مبادئ الإسلام»^(٧١) تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلي:

(١) إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر، بخلاف من يقول بآلهة متعددة. أو من يجحدها.

(٢) إن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء، لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله، وهو المحيي المميت. وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة. ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يتكفف له، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته. لأن الله هو العظيم القادر. وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

(٣) ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها: تواضع من غير ذل، وترفع من غير كبر، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذي وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء. أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة.

(٤) المؤمن بهذه الكلمة: يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح

(٧١) «مبادئ الإسلام» لأبي الأعلى المودودي: (ص ٨٠ — ٨٧)، الناشر: مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٧هـ.

إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أمانى كاذبة. فمنهم من يقول: إن آبن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا. ومنهم من يقول: إنا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا، ومنهم من يقدم النذور والقرايين إلى آلهته زاعماً أنه قد نال بذلك رخصة في العمل بما يشاء. أما الملحد الذي لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر في هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله وإنما إلهه هواه وشهوته وهو عبدهما.

(٥) قائل هذه الكلمة لا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنه يؤمن أن الله له خزائن السموات والأرض. ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل، حتى ولو طرد وأهين وضاعت عليه سبل العيش.

(٦) الإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والاقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالي الأمور آتقاء مرضاة الله. إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض. فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدّها من هذا التصور، كالجبال الراسية، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات؟

(٧) هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة. لأن الذي يجبن الإنسان ويوهن عزمه شيان: حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميّت الإنسان، فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كلاً من هذين السببين؛ فيجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعندئذ يضحى في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده. وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده.

من أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجراً ممن يؤمن بالله تعالى، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر الرصاصات والقنابل، فإنه عندما يتقدم في سبيل الله للجهاد، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأنى بمثل هذا للمشركين والكفار والملحدين؟

(٨) الإيمان به "لا إله إلا الله" يرفع قدر الإنسان وينشئ فيه الترفع والقناعة والاستغناء، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم. وغيرها من الصفات القبيحة.

(٩) وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد: أن الإيمان به "لا إله إلا الله" يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله ومحافظةً عليه، فإن المؤمن يعتقد بيقين أن الله خبير بكل شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أي كان، فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله عز وجل.

وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان يكون متبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدوده لا يجزؤ على آتراف ما حرم الله، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله.

ومن أجل ذلك جعل الإيمان به "لا إله إلا الله" أول ركن وأهمه ليكون الإنسان مسلماً. والمسلم هو: العبد المطيع المنقاد لله تعالى ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله. وهذا هو أصل الإسلام، ومصدر قوته، وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنما هي مبنية عليه، ولا تستمد قوتها إلا منه، والإسلام لا يبقى منه شيء لو زال هذا الأساس^(٧٢).

(٧٢) «مبادئ الإسلام»: (ص ٨٧).

ومن فضائلها ما ذكره ابن رجب، حيث أورد قول سفيان بن عيينة: ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله، وأن لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا، ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد، فمن قالها عصم ماله ودمه، ومن أبأها فماله ودمه هدر، وهي مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الرسل^(٧٣).
ولو أردت أن أذكر ما أورده العلماء، رحمهم الله تعالى حول فضلها وما في ذلك من الأحاديث النبوية وآثار السلف لطال المقام.

(٧٣) «كلمة الإخلاص»: (ص ٥٣).

نواقض «لا إله إلا الله» (حرص الإسلام على بيان حقيقته وحقيقة ما يناقضه)

سبق الكلام على مفهوم "لا إله إلا الله" وشروطها، وحقيقتها، وآثارها. وهنا أذكر نواقضها، من أجل أن تتضح معالم الصورة الكاملة لحقيقة "لا إله إلا الله"، ذلك أن معرفة الضد يميز الشيء المراد إيضاحه. كما قيل "وبضدها تتميز الأشياء". ومعلوم أن الكفر والشرك والنفاق والردة هي نواقض الإسلام، بثتى صورها، وقبل إيراد ذلك، لا بد من أن نورد - قاعدة جلية لأهل السنة والجماعة - بها تنضبط المسائل أصولاً وفروعاً. وسيوضح من خلال هذه القاعدة الرد على فرقة المرجئة، الذين ميعوا وضيعوا مفهوم هذه العقيدة. والرد أيضاً على الخوارج الذين غلوا وحادوا عن الصراط. ودين الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط.

وقد كثر كلام الناس حول هذا في القديم والحديث، ولكل وجهة هو موليتها. بيد أنني وجدت للعلامة آبن القيم كلاماً قيماً في هذا الموضوع - وهو القاعدة التي أشرت إليها آنفاً - سأورده كاملاً على الرغم من طوله: قال رحمه الله في كتاب «الصلوة»:

(الكفر والإيمان متقابلان، إذا زال أحدهما خلفه الآخر. ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيماناً: فالصلوة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء، والتوكل، والخشية من الله، والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إمطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان.

(وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة. ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إمطة الأذى عن الطريق. وبينهما شعب متفاوتة

تفاوتاً عظيماً. منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إمطة الأذى ويكون إليها أقرب. وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان فشعب الكفر كفر. والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر. والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان، وتركها من شعب الكفر، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

(وشعب الإيمان قسمان: قولية وفعليّة، وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية وفعليّة. ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية. فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً - وهي شعبة من شعب الكفر - فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، فهذا أصل.

(وها هنا أصل آخر: وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب: وهو الاعتقاد. وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام.

(والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح. فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله. وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصديق: فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة. فأهل السنة: مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وألقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين وللذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرّاً وجهرّاً ويقولون: ليس بكاذب ولكن لا تتبعه ولا تؤمن به.

(وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولا سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وآنقياده، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وآنقاد أطاعت الجوارح وآنقادت، ويلزم من عدم طاعته وآنقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان. فإن الإيمان ليس مجرد التصديق - كما تقدم - وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والآنقياد. وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبيينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتمام، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمي تصديقاً، فليس هو التصديق المستلزم للإيمان. فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته.

(وما هنا أصل آخر: وهو أن الكفر نوعان: كفر عمل، وكفر جحود وعناد. فكفر الجحود: أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه. وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه وأما كفر العمل: فينقسم إلى ما يضاد الإيمان، وإلى ما لا يضاده. فالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان.

(وأما الحكم بغير ما أنزل الله، وترك الصلاة فهو من الكفر العملي قطعاً، ولا يمكن أن ينفي عنه آسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه. فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله ﷺ، ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد. ومن الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً، ويسمى رسول الله ﷺ تارك الصلاة

(٧٤) سيأتي بعد تمام هذا النص إن شاء الله مزيد من التفصيل في هذه الفقرة وبيان متى يكون ذلك مخرجاً من الملة ومتى لا يكون.

كافراً^(٧٥)، ولا يطلق عليهما أسم الكفر. وقد نفى رسول الله ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر، وعن لا يأمن جاره بوائقه. وإذا نفى عنه أسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل، وأتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد.

وكذلك قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٧٦) فهذا كفر عمل. وكذلك قوله: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى أمراًته في دبرها فقد برىء مما أنزل على محمد»^(٧٧) وقوله: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما»^(٧٨).

(وقد سمي الله سبحانه وتعالى من عمل ببعض كتابه، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به فقال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٥﴾
ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْفُزُونِ
وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَى فَتَنْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَسْفَلِ الْعَذَابِ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة البقرة: ٨٤ - ٨٥]

-
- (٧٥) انظر «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٨٨، ح ٨٢) كتاب الإيمان.
 (٧٦) «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٨١، ح ٦٥) كتاب الإيمان.
 (٧٧) أبو داود في الطب: (ج ٤/ ٢٢٥، ح ٣٩٠٤). وانظر «مشكاة المصابيح»:
 (٢/ ١٢٩٤، ح ٤٥٩٩)، وقال الألباني: إسناده صحيح.
 (٧٨) «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٧٩، ح ٦٠) كتاب الإيمان.

(فَأَخْبِرْ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ أَقْرَبُوا بِمِيثَاقِهِ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ وَالتَّزَمُوهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَصْدِيقِهِمْ بِهِ. أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَا يُخْرِجُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ دِيَارِهِمْ، ثُمَّ أَخْبِرْ أَنَّهُمْ عَصَوْا أَمْرَهُ وَقَتْلُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ فَرِيقًا وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ. فَهَذَا كُفْرُهُمْ بِمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ. ثُمَّ أَخْبِرْ أَنَّهُمْ يَفْدُونَ مَنْ أَسْرَ مِنْ ذَلِكَ الْفَرِيقِ، وَهَذَا إِيمَانُ مِنْهُمْ بِمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ، فَكَانُوا مُؤْمِنِينَ بِمَا عَمِلُوا بِهِ مِنَ الْمِيثَاقِ، كَافِرِينَ بِمَا تَرَكُوهُ مِنْهُ.

(فَالْإِيمَانُ الْعَمَلِيُّ يَضَاهُ الْكُفْرُ الْعَمَلِيُّ، وَالْإِيمَانُ الْإِعْتِقَادِيُّ يَضَاهُ الْكُفْرُ الْإِعْتِقَادِيُّ. وَقَدْ أَعْلَنَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا قُلْنَاهُ فِي قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فَسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(٧٩) فَفَرَّقَ بَيْنَ قِتَالِهِ وَسَبَابِهِ. وَجَعَلَ أَحَدَهُمَا فَسُوقًا لَا يَكْفُرُ بِهِ، وَالْآخَرَ كُفْرًا. وَمَعْلُومٌ إِنَّمَا أَرَادَ الْكُفْرَ الْعَمَلِيُّ لَا الْإِعْتِقَادِي^(٨٠)، وَهَذَا الْكُفْرُ لَا يُخْرِجُهُ مِنَ الدَّائِرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْمِلَّةِ بِالْكَلِيَّةِ، كَمَا لَا يُخْرِجُ الزَّانِي وَالسَّارِقُ وَالشَّارِبُ مِنَ الْمِلَّةِ وَإِنْ زَالَ عَنْهُ أَسَمُ الْإِيمَانِ.

(وَهَذَا التَّفْصِيلُ هُوَ قَوْلُ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَمُ الْأُمَّةَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَبِالْإِسْلَامِ وَالْكَفْرِ وَلَوْ أَمَرَهُمَا فَلَا تَتَلَقَّى هَذِهِ الْمَسَائِلُ إِلَّا عَنْهُمْ، فَإِنَّ الْمَتَأَخِّرِينَ لَمْ يَفْهَمُوا مَرَادَهُمْ فَأَنْقَسَمُوا فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا أَخْرَجُوا مِنَ الْمِلَّةِ بِالْكَبَائِرِ، وَقَضَوْا عَلَى أَصْحَابِهَا بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ^(٨١)، وَفَرِيقًا جَعَلُوهُمْ مُؤْمِنِينَ كَامِلِينَ بِالْإِيمَانِ^(٨٢) فَهَؤُلَاءِ غَلَوْا، وَهَؤُلَاءِ جَفَوْا. وَهَدَى اللَّهُ أَهْلَ السُّنَّةِ لِلطَّرِيقَةِ الْمَثْلَى

(٧٩) «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٨١، ح ٦٤) كتاب الإيمان.

(٨٠) لعل ابن القيم يقصد قتال المسلمين مع بعضهم البعض كما حصل بين الصحابة رضي الله عنهم، أما من يريد قتال المؤمنين ويشن الحرب على الإسلام والمسلمين فهذا لاشك في كفره المخرج من الملة. كما هو حال أعداء الإسلام الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة بل هدفهم «يُودُوا» لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء» [النساء: ٨٩].

(٨١) يريد فرقة الخوارج.

(٨٢) يقصد المرجعة.

والقول الوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل. فهذا هنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسق، وظلم دون ظلم. قال سفيان بن عيينة: عن هشام بن حجير عن طاووس عن أبين عباس في قوله تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَخُفْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

[سورة المائدة: ٤٤]

(قال: هو بهم كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال في رواية أخرى عنه: كفر لا ينقل عن الملة. وقال طاووس: ليس بكفر ينقل عن الملة^(٨٣). وقال وكيع بن سفيان عن أبي جريح عن عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق^(٨٤)، وهذا الذي قاله عطاء بين في القرآن لمن فهمه، فإن الله سبحانه سمي الحاكم بغير ما أنزله كافراً، وسمى جاحداً ما أنزله على رسوله كافراً. وليس الكافران على حد سواء.) وسمى الكافر ظالماً كما في قوله تعالى:

وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٤]

(وسمى متعدي حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالماً فقال: وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ

[سورة الطلاق: ١]

وقال نبيه يونس:

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [سورة الأنبياء: ٨٧]

(٨٣) تفسير ابن كثير: (ج ٣/ ١١١).

(٨٤) المصدر السابق: (ج ٣/ ١١١).

وقال صفيه آدم:

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا [سورة الأعراف: ٢٣]

وقال كلميمه موسى:

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي

[سورة القصص: ١٦]

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم.

(ويسمى الكافر فاسقاً: كما في قوله:

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ
اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ

[سورة البقرة: ٢٦ - ٢٧]

وقال:

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ

[سورة البقرة: ٩٩]

(وهذا كثير في القرآن. ويسمى المؤمن فاسقاً كما في قوله تعالى:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُفْرًا سِقُوتًا يَنْتَابِعُونَ
أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِ مَا عَمَلُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ

[سورة الحجرات: ٦]

(نزلت في الحكم بن أبي العاص. وليس الفاسق كالفاسق. وقال تعالى:

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

[سورة النور: ٤]

وقال عن إبليس:

فَفَسَّقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّيۚ

[سورة الكهف: ٥٠]

وقال:

فَمَنْ قَرَضَ فِيهِكَ الْخَبْثَ فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ

[سورة البقرة: ١٩٧]

وليس الفسوق كالفسوق.

(والكفر كفران، والظلم ظلمات، والفسق فسقان، وكذا الجهل جهلان: جهل كفر كما في قوله تعالى:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

[سورة الأعراف: ١٩٩]

وجهل غير كفر كقوله تعالى:

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ

[سورة النساء: ١٧]

(وكذلك الشرك شركان: شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر، وهو شرك العمل كالرياء. قال تعالى في الشرك الأكبر:

إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ

[سورة المائدة: ٧٢]

وقال: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ

[سورة الحج: ٣١]

وفي شرك الرياء:

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا

[سورة الكهف: ١١٠]

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه أبو داود وغيره^(٨٥) ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرج عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار. ومن هذا قوله ﷺ: «الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب الحمل»^(٨٦).

(فانظر كيف أنقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة، وإلى ما لا ينقل عنها. وكذا النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد، ونفاق عمل، فنفاق الاعتقاد: هو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار.

(ونفاق عمل كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان»^(٨٧). وفي «الصحيح»

(٨٥) أبو داود: (ج ٣/٥٧٠، ح ٣٢٥١) كتاب الأيمان والنذور. وأخرجه الترمذي: (ج ٥/٢٥٣، ح ١٥٣٥) في النذور والأيمان، واللفظ عنده: فقد كفر أو أشرك وقال: حديث حسن. وقال الشوكاني: صححه الحاكم. انظر «نيل الأوطار»: (ج ٨/٢٥٧).

(٨٦) «المسند»: (ج ٤/٤٠٣). قال الألباني: صحيح، انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٣/٢٣٣، ح ٣٦٢٤).

(٨٧) «صحيح البخاري»: (ج ١/٨٩، ح ٣٣، ٣٤) كتاب الإيمان. و«صحيح مسلم»: (ج ١/٧٨، ح ٥٨، ٥٩) كتاب الإيمان.

أيضاً «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا آتمن خان» فهذا نفاق عمل، قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال، فإذا كملت في العبد ولم يكن له ما ينهيه عن شيء منها فهذا لا يكون إلا منافقاً خالصاً.

(وكلام الإمام أحمد يدل على هذا، فإن إسماعيل بن سعيد الشالنجي^(٨٨) قال: سألت أحمد بن حنبل عن المصير على الكبائر يطلبها بجهد، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم، هل يكون مصراً من كانت هذه حاله؟ قال: هو مصر مثل قوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(٨٩)، يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام، ونحو قوله: «لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن»^(٩٠). ونحو قول ابن عباس في قوله تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

[سورة المائدة: ٤٤]

(قال إسماعيل: فقلت له ما هذا الكفر؟ قال: لا ينقل عن الملة، مثل الإيمان بعضه دون بعض، فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه.

(٨٨) هو إسماعيل بن سعيد الشالنجي أبو إسحاق ذكره أبو بكر الخلال فقال: عنده مسائل كثيرة، ما أحسب أحداً من أصحاب أبي عبد الله — أحمد بن حنبل — روي عنه أحسن مما روى هذا، ولا أشيع ولا أكثر مسائل منه. وكان عالماً بالرأي، كبير القدر عندهم معروفاً، له كتاب ترجمه به البيان على ترتيب الفقهاء. انظر «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى: (ج ١/ ١٠٤).

(٨٩)(٩٠) «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٨٦، ح ٥٧) كتاب الإيمان.

(وها هنا أصل آخر: وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان. وهذا من أعظم أصول أهل السنة، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة^(٩١)، والقدرية^(٩٢)).

(ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة. قال تعالى:

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ

[سورة يوسف: ١٠٦]

فأثبت لهم إيماناً به سبحانه مع الشرك، وقال تعالى:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

[سورة الحجرات: ١٤]

فأثبت لهم إسلاماً وطاعة لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

[سورة الحجرات: ١٥]

(٩١) المعتزلة: هم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا الرؤية. ويكذبون بعذاب القبر والشفاعات، والحوض، ولا يرون الصلاة خلف أحد من أهل القبلة، ولا الجمعة إلا وراء من كان على أهوائهم. انظر في ذلك «السنة» للإمام أحمد: (ص ٨١)، و«تلبس إبليس» لابن الجوزي: (ص ٣٠).

(٩٢) القدريّة: هم الذين يزعمون أن إليهم الاستطاعة والمشقة والقدرة، وأنهم يملكون لأنفسهم الخير والشر، والضر والنفع، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال، وأن العباد يعملون بدءاً من غير أن يكون سبق لهم ذلك من الله عز وجل أو في علمه وقولهم يضارع قول المجوسية. انظر «السنة» للإمام أحمد: (ص ٨١).

وهؤلاء ليسوا مناققين في أصح القولين، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله، وليسوا مؤمنين. وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار.

(قال الإمام أحمد: من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن - يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاج - فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً، ومن أتى دون ذلك - يريد دون الكبائر - سميته مؤمناً ناقص الإيمان، فقد دل على هذا قوله عليه السلام «فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق». فدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام.

كذلك الرياء شرك، فإذا رأى الرجل في شيء من عمله أجمع فيه الشرك والإسلام.

وإذا حكم بغير ما أنزل الله، أو فعل ما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم كفراً، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام.

وقد بينا أن المعاصي كلها شعب من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمناً، وقد لا يسمى. كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافراً، وقد لا يطلق عليه هذا الاسم. فها هنا أمران: أمر أسمى لفظي، وأمر معنوي حكمي.

فالمعنوي: هل هذه الخصلة كفر أم لا؟
واللفظي: هل يسمى من قامت به كافراً أم لا؟.

فالأمر الأول: شرعي محض، والثاني لغوي وشرعي.

(وها هنا أصل آخر: وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمناً وإن كان ما قام به إيماناً، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر أن يسمى كافراً، وإن كان ما قام به كفراً. كما أنه لا يلزم من قيام

جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالماً: ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهاً ولا طبيباً، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيماناً، وشعبة النفاق نفاقاً، وشعبة الكفر كفرًا.

(وقد يطلق عليه الفعل كقوله: «فمن تركها فقد كفر» و «من حلف بغير الله فقد كفر» وقوله: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر ومن حلف بغير الله فقد كفر» رواه الحاكم في «صحيحه» بهذا اللفظ. فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق أسم كافر على الإطلاق، وكذا يقال لمن ارتكب محرماً أنه فعل فسوقاً وأنه فاسق بذلك المحرم، ولا يلزمه أسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه) (٩٣). ١. هـ.

ولي على هذا النص تعليق:

(٩٣) «كتاب الصلاة» للعلامة محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: (ص ٢٥ — ٣١)،
الطبعة الثانية سنة ١٣٩١ هـ، المكتبة السلفية بمصر.

تعليق لا بد منه

في النص المتقدم بعض العبارات التي قد توهم بعض الناس في قضية "الحاكمية" حيث ذكر آبن القيم أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر. وهنا لا بد من إيضاح هذه القضية حتى يزول ما قد يحصل من إشكال.

إن المجتمع الإسلامي منذ قيامه على يد رسول الله ﷺ قد قام على الحكم بشريعة الله، ومضى على ذلك خلفاؤه الراشدون، ثم الخلفاء الأمويون مضوا على ذلك وإن كان بَدَرَ منهم بعض الانحرافات، إلا أن الحكم الذي يتحاكم إليه الناس هو شرع الله، يظلمهم بربائته ويرعاهم بحكمته وعدالته. ثم جاءت الدولة العباسية وكان الشرع أيضاً هو نظام الحكم مع وجود ثغرات قوية بعض الشيء. ثم جاء التتار، وأتى "هولاكو" بـ "الياسق" - وسيرد كلام العلماء بخصوصه في مكانه المناسب إن شاء الله -.

ولما كان الأمر كذلك فإن كلام السلف ومنهم آبن القيم كلام لا غبار عليه، فإذا حكم الحاكم برشوة أو لقرابة، أو شفاعاة أو ما أشبه ذلك فلا شك أن ذلك كفر دون كفر.

وأما ما جدَّ في حياة المسلمين - ولأول مرة في تاريخهم - وهو تنحية شريعة الله عن الحكم ورميها بالرجعية والتخلف، وأنها لم تعد تواكب التقدم الحضاري، والعصر المتطور فهذه رِدَّةٌ جديدة في حياة المسلمين. إذ الأمر لم يقتصر على تلك الدعاوى التافهة، بل تعداه إلى إقصائها فعلاً عن واقع الحياة وأستبدال الذي هو أدنى بها، فحل محلها القانون الفرنسي أو الانجليزي أو الأمريكي أو الاشتراكية الإلحادية وما أشبه ذلك من تلك النظم الجاهلية الكافرة.

ولي على هذا الكلام أدلة كثيرة منها:

(١) ما أورده آبن القيم نفسه رحمه الله من قول الإمام أحمد الذي تقدم ص ٦٥ وهو قوله: (حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه) .
نعم إنه أمر لا يختلف فيه أبداً وهو أن تنحية الشريعة ورميها بالقصور والنقصان وأن القانون أكمل منها، وألین منها في مسایرة تطورات العصر كفر صریح.

(٢) ما أورده آبن القيم أيضاً ص ٦٧ من أن الكفر الذي هو كفر دون كفر ينطبق على الحاكم "الملتزم للإسلام وشرائعه" فهذا إذا خالف النص أو حاد عنه - كما تقدم شرحه - هو الذي ينطبق عليه هذا الحكم. وليس الأمر سارياً على من يحل القانون محل شرع الله.

(٣) قضية التحليل والتحريم، والتشريع للناس، آتفتت أقوال العلماء قديماً وحديثاً على أن ذلك من خصائص رب العالمين جل جلاله فمن أدعاها لنفسه فقد آله نفسه ونصبها نذا يُعبد من دون الله وسيرد إيضاح هذا قريباً.

(٤) إن إقصاء الشريعة الربانية وإحلال أهواء البشر محلها هذا من الأشياء التي كثر العلماء قديماً وحديثاً فاعلمها لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة. وهل يجادل أحد في ذلك والله يقول:

أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ

[سورة الأعراف: ٥٤]

فكما أنه سبحانه - وباعتراف الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم - هو خالق السماء والأرض، فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان، والحكم والسيادة (٩٤).

(٩٤) انظر تفسير هذه الآية للشيخ سيد قطب رحمه الله في كتابه وفي ظلال القرآن: (ج ٣/١٢٩٧)، طبع دار الشروق، وتفسير ابن كثير.

(٥) يوضح كلمة الإمام أحمد رحمه الله وهي قوله: "حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه" علم من أعلام المسلمين هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله حيث يقول:

(إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين) (٩٥).

(٦) ما ذكره أيضاً ابن القيم رحمه الله في كتاب «مدارج السالكين» حيث قال بعد أن أورد الأقوال في قضية الحكم قال:

(والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر. وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه: فهذا مخطيء له حكم المخطئين) (٩٦).

(٧) ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب «منهاج السنة» حيث قال:

(ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر. فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر. فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله، كسوايف البادية) (٩٧) وكانوا الأمراء المطاعين، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي

(٩٥) «تكميل القوانين»: (ص ١)، طبع سنة ١٣٨٠هـ، مطابع الثقافة بمكة.

(٩٦) «مدارج السالكين»: (ج ١/٣٣٧).

(٩٧) أي عادات وتقاليد أهل البادية.

الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر، فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله، فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار (٩٨).

(٨) يقول: العلامة آبن القيم في تفسير قوله تعالى:

تَاللَّهِ إِن كُنتَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

[سورة الشعراء: ٩٧ - ٩٨]

(هذه التسوية إنما كانت في الحب والتأليه واتباع ما شرعوا، لا في الخلق والقدرة والربوبية، وهي العدل الذي أخبر به عن الكفار كقوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ

[سورة الأنعام: ١]

وأصح القولين: أن المعنى: ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه، كما يعبدون الله ويعبدونه، ويعظمون أمره وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية والتعظيم مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه: هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله (٩٩).

وإن مما يزيد إيضاح الحقيقة في أمر إحلال القانون والهوى محل الشرع، ما ذكره العلماء من أن كفر الاعتقاد ينقسم إلى خمسة أنواع

(٩٨) «مجموعة التوحيد» الرسالة الثانية عشرة: (ص ٢٧٨)، طبعة دار الفكر.

(٩٩) «التفسير القيم»: (ص ٣٩٦).

هي (١٠٠):

- (١) كفر تكذيب: وهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار، فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعضدة. قال تعالى عن فرعون وقومه:

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا

[سورة النمل: ١٤]

وقال لرسوله ﷺ:

فَانْتَبِهُوا لَا يُكْذِبُوكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَحْتَدُونَ

[سورة الأنعام: ٣٣]

- (٢) كفر إباء واستكبار: مثل كفر إبليس: ومن هذا كفر من عرف الرسول ولم ينقد له إباء واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه:

فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ بِبَشَرٍ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ

[سورة المؤمنون: ٤٧]

ومنه كفر أبي طالب فإنه صدقه ولم يشك في صدقه ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آباءه أن يرغب عن ملتهم.

- (٣) كفر إغراض: مثل من يعرض عن الرسول ﷺ لا يسمعه، ولا يصدقه، ولا يكذبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به آلبته، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ (وَاللَّهِ أَقُولُ لَكَ كَلِمَةً: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَانْتَ أَجَلٌ فِي عَيْنِي مَنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَانْتَ

(١٠٠) أوردتها العلامة ابن القيم في «مدارج السالكين»: (ج ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨).

أُحقر من أن أُكلمك^(١٠١).

(٤) **كفر الشك**: حيث لا يجزم بصدقه، ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا أُلزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، وأما مع آلفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق.

(٥) **كفر نفاق**: وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر.

وبعد أن وضعنا الكفر بنوعيه - نعوذ بالله منه - نتقل إلى تبيان الشرك - نعوذ بالله منه - وهو كما ورد سابقاً في كلام آبن القيم ينقسم إلى أكبر مخرج من الملة، وإلى أصغر وهو الرياء.

فأما الشرك الأكبر: فدليله قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

[سورة النساء: ١١٦]

وهو أربعة أنواع كما ذكر ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي:

(١) **شرك الدعاء**: قال تعالى:

فَإِذَا رَكِعُوا فِي الْفَلَاحِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ

[سورة العنكبوت: ٦٥]

(١٠١) علق الشيخ محمد حامد الفقي على هذا بقوله: (وهو كفر الملحدين اليوم من التسمين بأسماء إسلامية، المقلدين للإفراج من اليهود والنصارى، المنحليين عن كل خلق وفضيلة، زاعمين بجاهليتهم وسفههم أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية) مدارج السالكين: (ج ١/ ٢٢٨) الحاشية.

(٢) شرك النية والإرادة والقصد: قال تعالى:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

[سورة هود: ١٥ - ١٦]

(٣) شرك الطاعة: قال تعالى:

اتَّخَذُوا أَجْنَاذَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

[سورة التوبة: ٣١]

وفي الحديث: عن عدي بن حاتم حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَجْنَاذَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم؟ فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فأتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»^(١٠٢). قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسيرها: إنهم أتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

(٤) شرك المحبة: قال تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥] ^(١٠٣).

(١٠٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير: (ج ٨/٢٤٨، ح ٣٠٩٤) تحقيق الدعاس، قال الترمذي: هذا حديث غريب. وأورده ابن كثير في تفسير هذه الآية: (ج ٤/٧٧)، وعزاه للإمام أحمد وابن جرير. وقال الشيخ الألباني: حديث حسن. انظر «غاية المرام في تخرج الحلال والحرام»: (ص ٢٠).
(١٠٣) «مجموعة التوحيد»: (ص ٣).

وأما النفاق: فمنه ما هو مخرج من الملة، وهذا هو النفاق الأكبر وفيه يقول شيخ الإسلام بن تيمية:

(والنفاق منه ما هو أكبر، يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أبي وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بأنخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدوًّا لله ورسوله) (١٠٤). ومنه ما هو نفاق أصغر وهو الرياء وقد سبق عليه الكلام.

وأما الردة: فهي الكفر بعد الإيمان فمن قال الكفر أو فَعَلَهُ أو رضي به مختاراً كَفَرَ، وإن كان مع ذلك ييغض بقلبه، وبهذا قال علماء السنة والحديث، وذكروا ذلك في كتبهم فقالوا: إن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه إما نطقاً، وإما فعلاً وإما اعتقاداً. وقرروا أن من قال الكفر كَفَرَ وإن لم يعتقد به ولم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً.

وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقد به ولا نطق به، وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أي فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به. وهذا معلوم قطعاً من كتبهم ومن له ممارسة في العلم فلا بد أن يكون قد بلغ طائفة من ذلك (١٠٥).

ومن باب التفصيل والتوضيح وذكر التفصيل بعد الإجمال: إليك نواقض الإسلام العشرة كما قررها أهل العلم.

(١٠٤) الفتاوى: (ج ٢٨/٤٣٤).

(١٠٥) الدفاع للشيخ حمد بن عتيق: (ص ٢٨)، وانظر «التشريع الجنائي»: (ج ٢/٧٠٨)، وكتاب الردة بين الأمس واليوم: (ص ٣٣).

نواقض الإسلام

ذكر أهل العلم أن هناك عشرة نواقض هامة هي:

(١) الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

[سورة النساء: ١١٦]

(٢) من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة. كفر إجماعاً.

(٣) من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم. كفر إجماعاً.

(٤) من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر.

(٥) من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر إجماعاً. والدليل قوله تعالى:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا عَنْهُمْ

[سورة محمد: ٩]

(٦) من استهزأ بشيء من دين الله، أو ثوابه، أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى:

قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ
لَا تَعْدِرُوا فَمَا دَكَّكُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ

[سورة التوبة: ٦٥ - ٦٦]

(٧) السحر، ومنه الصرف، والعطف فمن فعله أو رضي به كفر، الدليل قوله تعالى:

وَمَا يَمْلِكَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

[سورة البقرة: ١٠٢]

(٨) مظاهره المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى:

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَيَنْصُرْهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

(٩) من أعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبي ﷺ وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى عليهما السلام، فهو كافر.

(١٠) الإعراض عن دين الله لا يتعلمه، ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ

[سورة السجدة: ٢٢]

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطراً، ومن أكثر ما يكون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه (١٠٦).

ويجدر بنا ونحن نستعرض هذه النواقض أن نقف عند اثنين منها، نظراً لأهميتهما وخطورتهما على حياة المسلمين، وليتضح سبب الإسهاب في قضية الحاكمية وعلاقة الولاء والبراء بذلك.

الأول: (من أعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن

(١٠٦) «الدرر السنية»: (ج ٨/ ٨٩ - ٩٠)، وانظر «مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب»: (ج ٥/ ٢١٢ - ٢١٤).

حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر) .

إن تنحية شريعة الله عن مجرى الحياة، وأستيراد قوانين البشر القاصرة: ردةً جديدة برزت في القرون الأخيرة من حياة المسلمين، ذلك أن المجتمع الإسلامي عاش قرونًا طويلاً يستظل بشرع الله وتهيمن الشريعة على حياة أفرادها حكماً ومحكومين - مع وجود بعض المعاصي سواء كانت كبائر أم صفائر - ولكن نظام حياة الناس، والتشريع المنفذ في أمورهم هو شرع الله وحكمه، وكذلك جهاد الكفار ونشر كلمة الإسلام في الأرض كانت كل هذه الأمور في ازدياد وتوسع. أما رمي الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة تطورات العصر فهذا شيء لم يحدث إلا بعد أن مكن المسلمون الاستعمار العالمي من ذلك وبعد أن نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

ولقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بنصوص كثيرة صريحة واضحة حول قضية الحكم وأنها من عقيدة المسلم، ومن أهم أمور الدين قال تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

[سورة المائدة: ٤٤]

وقال تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

[سورة المائدة: ٤٥]

وقال تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

[سورة المائدة: ٤٧]

وقال تعالى:

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

[سورة المائدة: ٥٠]

وقال تعالى:

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٠﴾

[سورة النساء: ٦٥]

وقال تعالى:

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ

[سورة الشورى: ٢١]

وقال تعالى:

وَيَقُولُونَ
مَا سَأَلَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَمَا أَؤْتِيكَ يَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ تُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَٰن يَكُن لَّهُمُ الْخَلْقُ
يَأْتُوا إِلَيْنَا مُذْعِبِينَ ﴿٤٩﴾ أَنَّىٰ قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَخِيفَهُ اللَّهُ عَلَىٰهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

[سورة النور: ٤٧ - ٥١]

ويقول سبحانه:

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ
تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا

[سورة النساء: ١١٥]

ثم يبين سبحانه وتعالى زيف زعم من يدعي الإيمان ويريد التحاكم إلى الطاغوت فيقول:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
ضَلًّا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ
صُدُودًا

[سورة النساء: ٦٠ - ٦١]

ولقد أحسن أحد العلماء في وصف من طمست بصيرته فاستبدل
بالشريعة القانون حيث قال: إن مثل هذا مثل (الجعل يتأذى من رائحة
المسك والورد الفواح، ويحيا بالعدرة والغائط في المستراح) (١٠٧).

ولقد قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ

[سورة المجادلة: ٢٠]

ومن أعظم المحادة لله ورسوله التولي عن حكم الله وشرعه وسنة نبيه ﷺ
وما هذه الذلة التي يعيشها المسلمون اليوم في الأرض إلا نتيجة طبيعية لترك
شرع الله فيها هم أولاء اليوم كثير ولكنهم غشاء كغشاء السيل، طمعت فيهم
أحقر الأمم وسيطرت عليهم أراذل الناس، ولقد صدقت فيهم نبوة محمد ﷺ
حين قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال
قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غشاء كغشاء
السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم

(١٠٧) «الرسائل المنيرة»: (ج ١/ ١٣٩).

الوهن، فقال قائل: يا رسول الله: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت» (١٠٨).

وإن جزءاً كبيراً من هذا الانحراف الذي سيطر اليوم على حياة المسلمين يتحمله الذين يتزبون بزي العلماء ويحسنون للناس أن يستبدلوا بشرع الله أهواء البشر، إن هؤلاء ليحملون أوزارهم كاملة ومن أوزار الذين يضلونهم إلى يوم القيامة والإسلام بريء من هؤلاء. ويرحم الله علماء السلف الذين كانوا حماة على ثغور الإسلام حتى لا يؤتى الإسلام من قبل أحدهم.

فهذا الإمام الجليل الحافظ ابن كثير رحمه الله يذكر في كتابه «تفسير القرآن العظيم» ما حلّ بالأمة الإسلامية أيام التار، وذلك عند قوله تعالى:

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ

[سورة المائدة: ٥٠]

قال: (ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، الذي وضع لهم الياق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في يديه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك

(١٠٨) «سنن أبي داود»: (ج ٤/ ٤٨٤، ح ٤٢٩٧) كتاب الملاحم. وقال في «مشكاة المصابيح»: رواه البيهقي في «دلائل النبوة». ثم قال الشيخ الألباني: وهو حديث صحيح. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج ٣/ ١٤٧٥).

منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم
سواه في قليل ولا كثير (١٠٩).

ويوضح الشيخ محمد بن إبراهيم (١١٠) رحمه الله الحالات التي إن
فعلها الحاكم دخلت في الكفر المخرج من الملة وهي:

(١) إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله. وهو معنى
ما روي عن ابن عباس، وأختاره ابن جرير، وجحود ما أنزل الله من
الحكم الشرعي لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق
عليها بينهم، أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه،
أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول ﷺ قطعياً فإنه كافر كفراً ينقل عن
الملة (١١١).

(٢) إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حق، ولكنه
أعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، وأتم وأشمل لما
يحتاجه الناس وما آستجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان،
وتغير الأحوال فهذا أيضاً لا ريب في كفره لتفضيله أحكام المخلوقين
التي هي زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير. فإنه
ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى وسنة
رسوله ﷺ نصاً أو ظاهراً أو استنباطاً أو غير ذلك، علم ذلك من علمه
وجهله من جهله.

(١٠٩) «تفسير ابن كثير»: (ج ٣/١٢٣).

(١١٠) هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية، ولد سنة
١٣١١هـ، ونشأ في بيت علم وفضل. وحفظ القرآن وهو في الحادية عشرة
من عمره، وكف بصره وهو في الرابعة عشرة من عمره فصير واحتسب.
وتلمذ على الشيخ سعد بن عتيق. وتوفي في رمضان سنة ١٣٨٩هـ عن عمر
يناهز الثمانين عاماً. انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد» للبسام: (١/٨٨).

(١١١) «تحكيم القوانين»: (ص ٥).

(٣) أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن آتقد أنه مثله، فهذا كالتوعين السابقين كفرةً ينقل عن الملة لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

(٤) من آتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهو كالذي قبله.

(٥) من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله: إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني أو غيرها من مذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر؟! وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة؟! (١١٢).

(٦) ما يحكم به كثير من رؤساء الغشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها "سلومهم" يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضاً عن حكم الله.

(أما الكفر الذي لا ينقل عن الملة: والذي ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما بأنه كفر دون كفر، وقوله أيضاً: «ليس بالكفر الذي تذهبون إليه» فذلك مثل، أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع آتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، وأعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى. وهذا وإن لم يخرج كفرةً عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها، فإن معصية سماها الله في كتابه كفرةً أعظم من معصية لم يسمها الله كفرةً (١١٣).

وإن الذي جعلنا نسهب في ذكر شؤون الحاكمة وتفصيل أحوالها هو خطورتها وعظمتها. فإن موالة الحاكم بغير ما أنزل الله وإقرار تشريعه للناس

(١١٢) المصدر السابق: (ص٧).

(١١٣) المصدر السابق: (ص٨).

من عند نفسه وتحليله وتحريمه ما لم يأذن به الله، مناقضة للشهادة بأن الله هو الإله الذي تأله القلوب بالحب والتعظيم والطاعة والانقياد، ومناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم الناس هذا لما بقي لطاغية في الأرض حق الوجود والتشريع. وإقرار الكفر وتنحية شرع الله المحكم.

الثاني: من الأمور التي يجب أن نتدبرها بروية - من نواقض الإسلام - مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى:

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

وهذا من أعظم النواقض التي وقع فيها سواد الناس اليوم في الأرض، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمون بأسماء إسلامية، فلقد صرنا في عصر يستحي فيه أن يقال للكافر: يا كافر!! بل زاد الأمر عتواً بنظرة الإعجاب والإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان، ينظرون إلى أعداء الله نظرة آتبهار ملؤها التمني أن يكونوا مثلهم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه.

مظاهرة أخذت صوراً شتى فمن الميل القلبي إلى أنتحال مذاهبهم الإلحادية إلى مجاراتهم في تشريعاتهم، إلى كشف عورات المسلمين لهم، إلى كل صغبر وكبير في حياتهم. وسيأتي تفصيل الحديث في هذا الأمر - إن شاء الله - في فصل صور الموالاة.

من هنا فإن إدراك حقيقة هذه العقيدة ونواقضها، أمر كفيل بأن يجعل المسلم على بصيرة من أمره في عقيدة الولاء والبراء. حسب المقياس الشرعي الصحيح، وليس حسب مقياس أهواء البشر. إنه لا ولاء إلا لله ولرسوله ودينه والمؤمنين. والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب يحاد الله ورسوله.

الباب الأول

مفهوم الولاء والبراء

الفصل الأول

تعريفه وأهميته في الكتاب والسنة

الولاء في اللغة: جاء في «لسان العرب»: الموالاة - كما قال ابن الأعرابي - : أن يتشاجر آثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحاييه. ووالى فلان فلاناً: إذا أحبه.

والمولى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو: الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحِب، والتابع، والجار، وأبن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق، والمنعم عليه. ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمحبة^(١).

والتَّوَلَّى: - بالفتح - في النسب والنصرة والعق.

والمُوالاة: - بالضم - من وإلى القوم. قال الشافعي في قوله ﷺ «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٢) يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ

[سورة محمد: ١١]

(١) «لسان العرب» لابن منظور: (ج ٣/ ٩٨٥ - ٩٨٦)، وانظر «القاموس المحيط»: (٢٩٤/٤) الطبعة الثالثة.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: (ج ٤/ ٢٨١) عن البراء، وأيضاً عن زيد بن أرقم ٣٦٨/٤، ٣٧٠، ٣٧٢، والترمذي في «المنقب»: (ج ٩/ ٣٣٠، ح ٣٧١٤)، وقال حديث حسن صحيح غريب. وقال الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٦/ ٣٥٣، ح ٦٣٩٩).

والموالة ضد المعادة، والولي ضد العدو، قال تعالى:

يَتَأْتِي إِيَّيْكُمْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا

[سورة مريم: ٤٥]

قال ثعلب: كل من عبد شيئاً من دون الله فقد آتخذه ولياً. وقوله تعالى:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا

[سورة البقرة: ٢٥٧]

وليهم في نصرهم على عدوهم، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم.

وقيل: وليهم أي: يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم.

والولي: القرب والدنو^(٣). والموالة: المتابعة.

والتولي: يكون بمعنى الإعراض، ويكون بمعنى الاتباع. قال تعالى:

وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا خَيْرَكُمْ

[سورة محمد: ٣٨]

أي: إن تعرضوا عن الإسلام.

وقوله تعالى:

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

معناه - من يتبعهم وينصرهم^(٤).

(٣) «لسان العرب»: (ج ٩٨٦/٣).

(٤) «لسان العرب»: (ج ٩٨٨/٣).

وقال صاحب «المصباح المنير» الولي: فعيل بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به، ومنه قوله تعالى:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا

[سورة البقرة: ٢٥٨]

ويكون الولي: بمعنى مفعول، في حق المطيع، فيقال: المؤمن ولي الله. ووالاه موالاة وولاء: من باب «قاتل» أي تابعه^(٥).

تعريف البراء في اللغة: قال آبن الأعرابي: برىء إذا تخلص، وبرىء، إذا تنزه وتباعد، وبرىء: إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى:

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

[سورة التوبة: ١]

أي إعذار وإنذار.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما دعاه عمر إلى العمل فأبى قال عمر: إن يوسف قد سأل العمل، فقال أبو هريرة: إن يوسف منى برىء وأنا منه براء^(٦). أي برىء عن مساواته في الحكم وإن أقاس به، ولم يرد براءة الولاية والمحبة لأنه مأمور بالإيمان به، انتهى من «النهاية».

والبراء والبرىء سواء.

وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر^(٧).

تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي: الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام

(٥) «المصباح المنير» للفيومي: (ج ٢/٨٤١).

(٦) هذا الأثر ذكره ابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (ج ١/١١٢)، تحقيق الزاوي والطناحي.

(٧) «لسان العرب»: (ج ١/١٨٣)، و«القاموس المحيط»: (ج ٨/٨).

والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً. قال تعالى:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ

[سورة البقرة: ٢٥٧] (٨).

فمwalاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا (٩).

تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار.

شرح تعريف الولاء والبراء: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الولاية: ضد العداوة. وأصل الولاية: المحبة والتقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد.. والولي: القريب يقال: هذا يلي هذا: أي يقرب منه، ومنه قوله ﷺ «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكره» (١٠) أي لأقرب رجل إلى الميت.

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معادياً له. كما قال تعالى:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تَلْقَوُا فِيهِمُ بِالْمُودَّةِ

[سورة الممتحنة: ١]

(٨) [شرح الطحاوية: (ص ٤٠٣)، و«تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد»: (ص ٤٢٢).

(٩) كتاب «الإيمان» لنعيم ياسين: (ص ١٤٥).

(١٠) هذا الحديث أخرجه البخاري: (ج ١١/١٢، ح ٦٧٣٢) كتاب الفرائض، ومسلم: (ج ٣/١٢٣٣، ح ١٦١٥) كتاب الفرائض.

فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه ولهذا جاء في الحديث «ومن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»^(١١).

ومسمى الموالاة "لأعداء الله": يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرّمات^(١٢). ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم من يهود ونصارى وملحدين ومشركين وغيرهم؛ كان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين: أن كل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية تجب محبته وموالاته ونصرته، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى الله ببيغضه ومعاداته، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان.

وحيث أن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض، فإن أصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وتبغض في الله أعداءه وأعداء رسله^(١٣).

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله «من أحب في الله، وأبغض في الله ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»^(١٤).

وإذا كان حبر هذه الأمة يذكر أن مؤاخاة الناس في زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا وأن ذلك لا يجدي على أهله شيئاً، وهذا في القرن الذي هو

(١١) «الفرقان» لابن تيمية: (ص ٧)، أما الحديث فقد رواه البخاري: (ج ١١/٣٤١،

ح ٦٥٠٢) كتاب الرقائق، باب التواضع.

(١٢) انظر «الرسائل المفيدة» للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ:

(ص ٤٣).

(١٣) انظر «الفتاوى السعدية» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي: (ج ١/٩٨).

(١٤) سبق تخريجه (ص ٤٤).

خير القرون: فجدير بالمؤمن أن يعي ويعرف من يحب ومن ييغض، ومن يوالي ومن يعادي ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسنة ليرى أواقف هو في صف الشيطان وحزبه أم في صف عباد الرحمن وحزب الله الذين هم المفلحون، وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة!

وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا - كما قال الصحابي الجليل عبد الله بن عباس - فإن تلك المحبة والمؤاخاة لا تلبث أن تزول بزوال العرض الزائل وحينئذ لا يكون للأمة شوكة ومنعة أمام أعدائها.

وفي عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس في الأغلب على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً.

ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى الله والاجتماع على الحب فيه والبغض فيه والولاء له والبراء ممن أمرنا الله بالبراء منه، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

أهمية هذا الموضوع في الكتاب والسنة ونصيبه من الدراسة والتأليف

إنه من الجدير بالذكر أن هذا الموضوع - الولاء والبراء - رغم أهميته ووضوحه في الكتاب والسنة إلا أن نصيبه من الدراسة والتأليف في الكتب العقدية القديمة قليل جداً. وذلك راجع في نظري إلى ثلاثة أمور:

(١) إن هذا المفهوم العقدي كان من الوضوح والنصاعة عند المسلمين الأولين بمكان، حيث إنهم - من خلال سيرتهم وتاريخهم الوضيء - كانوا على درجة عالية جداً من الصفاء العقدي، والتميز الواضح، وقيامهم أيضاً بالجهد في سبيل الله. كل ذلك جعل هذا الأمر واضحاً وجلياً في حسهم وأيضاً رجوعهم للكتاب والسنة في كل شيء.

(٢) إن طبيعة المجتمع الإسلامي الأول خاصة بعد الخلافة الراشدة لم تبرز فيه مشاكل عقدية حول هذا الموضوع وإنما نشأت حول صفات الله جلّ جلاله، وقامت الفرق المختلفة بالخوض فيها. فكان لا بد أن يتصدى أهل السنة والجماعة لمعالجة ذلك الانحراف بأن يبينوا للناس أن الله صفات تليق بجلاله وعظمته. نثبتها له كما جاءت في الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تشبيه ولا تمثيل. من هنا زخرت مؤلفاتهم رحمهم الله بالحديث في هذا الشأن، ولا تجد لهم ذكراً لقضية الولاء والبراء إلا في كلمات موجزة صغيرة كقولهم (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم) (١٥).

(١٥) الطحاوية مع شرحها: (ص ٢٥٨)، الطبعة الرابعة.

(٣) وبعد دخول علم الكلام في مؤلفات المسلمين العقدية، وتعكير صفوها بما ليس منها: لم يعد لهذا الموضوع ذكر آلبته: وليس هو المنفرد بهذا الإقصاء، بل إنه تابع لإقصاء موضوع "لا إله إلا الله" وما تقتضيه من توحيد الألوهية وما يضاد ذلك من نواقض الإسلام، التي لو شغل المسلمون أنفسهم ببيانها وعرضها للناس عرضاً صحيحاً سليماً بدلاً من تحويلها إلى قضايا ذهنية تجريدية لا علاقة لها بالسلوك الواقعي ولا بمعاني الإسلام الحقيقية لكان ذلك أجدى وأنفع للناس، وأقوم للقيام بما أراد الله منهم. ولو أن الأمة الإسلامية تقيدت بقول رسولها ﷺ «ترككم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١٦). وعضت على ذلك بالنواجذ ما طمع فيها شرق ولا غرب، ولا تخبطت في مناهات التبعية العمياء للإلحاد والفكر الجاهلي سواء كان شرقياً أم غربياً على حد سواء.

وحين اقتصر المسلمون الأوائل على الوحيين العزيزين خرج منهم جيل فريد ليس له مثال لا سابق ولا لاحق، جيل اعتر بانتمائه لدينه الخالص، ففتح الدنيا ومزق ظلام الكفر والشرك وصدع باسم الله في الأرض من مشارف فرنسا غرباً إلى حدود الصين شرقاً.

ولعل من المناسب هنا أن نتحدث - ولو قليلاً - عن طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة بصفة عامة وجناية علم الكلام على المسلمين لنقف من خلال هذه النبذة على مدى الهوة بين صفاء النبع العقدي الرباني وبين جهالات علم الكلام.

(١٦) «مسند أحمد»: (ج ٤/١٢٦)، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر: (ج ٢/٢٢٢)، و«سنن ابن ماجه»: المقدمة (ج ١/١٦)، و«سنن عبد الرحمن بن عمرو السلمي» لم يوثقه غير ابن حبان. وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب»: (ج ١/٤٦) عن أبي عاصم في كتاب «السنة» وقال: إسناده حسن. انظر «جامع الأصول»: (ج ١/٢٩٣) حاشية.

لقد أدرك سلف هذه الأمة رحمهم الله أن كتاب الله العزيز: هو: كتاب هداية وليس كتاب فلسفة ونظريات فارغة لا تمس الواقع. وأيقن ذلك الجيل أن الله هو خالق النفس البشرية وأنه هو العليم وحده بما يصلحها، فلما أنزل كتابه على رسوله ﷺ كان هو النور الهادي للنفوس، ومصدر كل خير لها، وهو أيضاً النذير لها من كل ما يوردها موارد الهلاك والخسران. وميزة الخطاب القرآني: أنه يخاطب "الإنسان" كوحدة متصلة فيها الروح والجسد وفيها العقل والعاطفة، وفيها حب الخير وكره الشر:

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا

[سورة الشمس: ٧ - ١٠].

هكذا هي الطريقة القرآنية في عرضها للعقيدة:

إنها: (طريقة لا تخاطب الذهن المجرد ولكنها تخاطب "الإنسان" كله، وتخاطبه - أول ما تخاطبه - عن طريق الوجدان ولا يمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة في الأمر، ولكنها لا تخاطبه منفرداً إنما تخاطبه دائماً والوجدان مستجاش، فيأخذ دوره في التلقي منفعلاً بالقضية، متحركاً للإيمان بهاء، لا مجرد مُسَاجِلٍ فيها بالمنطق والبرهان: والقرآن حين يصنع ذلك فهو يستجيب للفطرة البشرية كما خلقها الله، فالله الذي خلق هذه الفطرة هو الذي أنزل هذا القرآن مفصلاً على قدها، مستجيباً لها، ومحياً لها، وباعثاً ومقوماً في آن. رنقل جزء من هذه الفطرة ولا شك، وله دوره في قضية الإيمان.. ولكن الله يعلم الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا "الحياة"، أنه يمكن أن يعمل وحده حين يكون دوره هو التعرف على سنة من سنن الكون لا مجال فيها للوجدان، أما في قضية الإيمان فإنه لا يستقل بهذا الأمر وحده، بل تشاركه العاطفة والوجدان (١٧).

(١٧) «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب: (ص ١٤٩) بقليل من التصرف.

وإذا تصفحنا التاريخ الإسلامي لنبحث عن تاريخ الانحراف في الدراسات العقيدية لوجدنا أن ذلك قد وقع في العهد الأموي بشكل بسيط، ولكنه بلغ قمته في العهد العباسي إبان ترجمة العلوم اليونانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية. فبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت رقعة الدولة الإسلامية ودخل في الإسلام أناس أظهروا الإسلام وأبطنوا النفاق والزندقة حصل خلط في المترجمات، فلم يفرق بين الغث والسمين من تلك العلوم الأجنبية.

ولما أصبح شغل أكثر الناس هو الترف العقلي: رأوا أن يستوردوا غشاء الجاهلية الإغريقية وسمي ذلك عند المخدوعين به "فلسفة"!! وأنبهروا بهذا المستورد الدخيل وما فيه من عجمة وتعقيد ولعب بالألفاظ ودلالاتها. وقادهم هذا الانبهار إلى إلباس التصور الإسلامي قناعاً غريباً عليه. غريباً عليه في ذاته، وغريباً عليه في عرضه، وغريباً أيضاً على أهله. وسر ذلك:

أن (هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية) (١٨).

وحررني بنا أن نسأل: ما هو سر محاولة التوفيق بين الفلسفة البشرية الجاهلية التي نمت وترعرعت في جو وثني كافر، وبين المورد العذب دين الله "الإسلام"؟.

هل كان ذلك نتيجة للتقليد الأعمى والسعي وراء كل ناعق؟
أم أنه كان نتيجة للقعود عن الجهاد ونشر العقيدة في ربوع الأرض؟

(١٨) «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» للأستاذ سيد قطب: (ص ١٠ - ١١)، دار الشروق.

أم هو الترف العقلي ومجابهة أصحاب الجدل بنفس أسلوبهم؟
أم أن وراء ذلك كيداً من أعداء الإسلام في محاولة تشويه صفاء هذه
العقيدة وخلطها بالشوائب الغريبة عنها؟!
والذي يظهر لي - والله أعلم - أن هذه الأسباب مجتمعة لها دورها كل
بحسب أهميته، إلا أنه من خلال تتبع قصة الترجمة في عهدها الأول يظهر لي:
أن كيد أعداء الدين وافق هووى عند بعض المسلمين خاصة بعض الحكام في
العهد العباسي - كالمأمون مثلاً - فحدث ما حدث من ترجمة لكتب المباحث
السوفسطائية اليونانية وغيرها.

ويصدق ذلك: أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحي يطلب منه أن
يادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة!!

وتردد الحاكم في إرسالها، وجمع رجال دولته واستشارهم حول هذا
الطلب فأشار عليه المطران الأكبر بقوله: (إرسالها إليه، فوالله ما دخلت هذه
العلوم في أمة إلا أفسدتها) فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها. ثم أحضر
المأمون حنين بن إسحاق^(١٩) - وكان فتي لسنأ - وأمره بنقل ما يقدر عليه
من كتب حكماء اليونان إلى العربية، فأتمثل لأمره. وكان المأمون يعطيه من
الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل. مما جعل حنيناً يكتب
على ورق غليظ ويأعد بين الأسطر ويكتب بالحروف الكبيرة^(٢٠)!!!

(١٩) هو حنين بن إسحاق، طبيب، مؤرخ، مترجم، كان أبوه صيدلاناً من أهل
الحيرة، أخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه
وغیره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية فانتهد إليه رئاسة
المترجمين في عهد المأمون الذي عينه رئيساً لديوان الترجمة وبذل له الأموال
والعطايا.

لخص كثيراً من كتب أبقراط وجالينوس، وكان يحفظ الياذة هو ميروس
ومترجماته تزيد على المائة. انظر «الأعلام» للزركلي: (ج ٢/٢٨٧)، الطبعة
الرابعة.

(٢٠) انظر كتاب «عصر المأمون»: (ص ٣٧٥ - ٣٧٧) للدكتور أحمد مزيد رفاعي.
الطبعة الثانية سنة ١٣٤٦هـ، الناشر: دار الكتب المصرية.

وصدق - وآله - المطران الصقلي: إن هذه الكتب ما دخلت أمة إلا أفسدتها. ترى من أين جاءت محنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسألة خلق القرآن؟ ومن أين جاء اضطهاد علماء السنة ومحاربتهم وظهور المبتدعة أيام المأمون وغيره؟ ومن أين جاءت المصطلحات المبتدعة كالجوهر والعرض والواجب والممكن وغيرها؟ إنه لم يأت كل ذلك إلا من ترجمة الفلسفة الجاهلية وخلطها بالعقيدة الإسلامية ليصنع من ذلك كله ما سمي بـ "الفلسفة الإسلامية"!!

وإذا علمنا: أن المترجمين كان جلهم نصارى^(٢١). وقد كتبوا في الترجمة العربية ما يفسدونه ويدنونه به. فكيف يوثق بنصراني يعتقد التثليث وهو يترجم للمسلمين كذباً يعلمونها ويعلمونها أبناءهم ويستفيدون منها في مؤلفاتهم؟ لقد صدق الشاعر حين قال:

ومن جعل الغرب له دليلاً
يمر به على جيف الكلاب

ولمزيد من إيضاح وبيان البون الشاسع بين طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة وبين علم الكلام، نذكر الأمور التالية في المبينة بينهما، لا من باب المقارنة، فلا وجه للمقارنة في الحقيقة، إذ الأمور كما يقول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره
إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وإنما من باب التنبيه والتذكير^(٢٢).

(١) في المصدر: فبمصدر العقيدة القرآنية: الله رب العالمين. أما مصدر "علم

(٢١) انظر في هذا كتاب «الجانب الإلهي» للأستاذ محمد البهي: (ص ١٧٧).
(٢٢) ينظر في هذا الموضوع كتاب «العقيدة في الله» للأستاذ عمر سليمان الأشقر: (ص ٢٧ - ٣٨)، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ، الناشر: مكتبة الفلاح بالكويت.

الكلام“، فعقول البشر القاصرة الهزيلة.

(٢) في المنهج والسييل: فغاية علم الكلام: إثبات وحدانية الخالق، وإنه لا شريك له ويظن المتكلمون أن هذا هو المراد بـ ”لا إله إلا الله“ بينما المراد منها ما سبق أن شرحناه في التمهيد ثم إن علم الكلام يسعى لتحقيق ”المعرفة“ في الوقت الذي نجد فيه الطريقة القرآنية تهدف إلى ”الحركة“ من وراء المعرفة، فتحول تلك المعرفة إلى قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع وتستجيش الضمير الإنساني ليحقق وجوده في الأرض حسب الخطة التي رسمها له التصور الرباني، وحينئذ ترجع البشرية إلى ربها، ونحيا حياة كريمة رفيعة تتفق مع الكرامة التي كتبها الله للإنسان^(٢٣).

ثم إن المنهج القرآني يدعو إلى ”عبادة الله وحده“ قال تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

[سورة الأنبياء: ٢٥]

وأوصى المصطفى ﷺ معاذاً حين بعثه إلى اليمن: أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فإذا عرفوا ذلك دعاهم للفرائض^(٢٤) ولم يأمره أن يدعوهم أولاً إلى ”الشك“ أو ”النظر“ كما هي طريقة المتكلمين!!

(والله سبحانه عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدئية، والمنطق، والطبيعي، والجوهر والعرض - بل يسألهم عن استجابتهم للرسول أو عدمها

(٢٣) انظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: (ص ١٠ - ١١).

(٢٤) الحديث موجود في صحيح البخاري: (ج ٣/٣٢٢، ح ١٤٥٨)، وصحيح مسلم: (ج ١/٥٠، ح ١٩) كتاب الإيمان.

كَلَّمَآلِغَى فِىهَا فَوَجَّ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْنِ كُذِّبُوا ۖ
 قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَاذِرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِن أَنْتُمْ
 إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۖ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
 السَّعِيرِ ۖ فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۖ

[سورة الملك: ٨ - ١١] (٢٥).

ووحداية الخالق التي هي غاية علم الكلام: لم تنفع المشركين الذين
 حاربهم رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا يقرون بها كما أخبر الله عنهم:

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة لقمان: ٢٥]

(٣) قوة التأثير: الذي هو طابع العقيدة الربانية: مما يجعل لها سلطاناً قوياً
 على نفوس معتققيها. بعكس الفلسفة والكلام اللذين يدلان على جهل
 أصحابهما كما قال أحدهم - وهو سقراط - "الشيء الذي لا أزال
 أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً" (٢٦).

(٤) الأسلوب: فالعقيدة الربانية تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص،
 وهو أسلوب يمتاز بالحوية والإيقاع. واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق
 الكبيرة، مع بساطة في العرض ووضوح في البيان وإعجاز في اللفظ
 والمعنى. مما يجعل إدراك هذه العقيدة سهلاً لكافة المستويات البشرية.
 وهذا كله بخلاف الفلسفة والكلام، وبخلاف تلك المصطلحات المعقدة
 التي لا تزيد الشك إلا شكاً وحيرة وضلالاً (٢٧).

(٢٥) العقيدة في الله للأشقر: (ص ٣١).

(٢٦) المصدر السابق: (ص ٣٢).

(٢٧) انظر «خصائص التصور الإسلامي والعقيدة للأشقر: (ص ٣٥).

وأسلوب المتكلمين يسير على نمط واحد في كل قضية يتحدث عنها فهو لا يخرج عن قوله: "فإن قيل لنا كذا: قلنا لهم كذا".

أما الأسلوب القرآني فإنه يعرض العقيدة على نمطين:

الأول: توحيد في الإثبات والمعرفة: أي إثبات حقيقة الرب وصفاته وأفعاله وأسمائه كما أخبر به عن نفسه وكما أخبر رسوله الكريم، وهذا موجود في أول سورة الحديد وطه، وآخر الحشر، وأول السجدة، وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها^(٢٨).

الثاني: توحيد الطلب والقصد: وهذا ما تضمنته سورة الكافرون

قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكَيْفُوتُ

و قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكَيْفُوتُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ [سورة آل عمران: ٦٤]

وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف، وآخرها، وجملة سورة الأنعام.

ويعرف الأول: بأنه توحيد علمي خبري، والثاني بأنه: توحيد إرادي طلبی^(٢٩).

ونظرة واحدة إلى سيرة المصطفى ﷺ في عرضه لهذه العقيدة وتربيته الفذة لصحابته كآفة في الدلالة على أن من سلك طريقاً غير طريق القرآن والسنة في عرض العقيدة فقد سلك "سبلاً" لا تلتقي مع صراط الله المستقيم.

(٢٨) شرح العقيدة الطحاوية: (ص ٨٨) طبع المكتب الإسلامي.

(٢٩) المصدر السابق: (ص ٨٨).

روى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»^(٣٠).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي^(٣١): «حدثنا الذين كانوا يقرئونا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»^(٣٢).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

(لقد كان تلقي صحابة رسول الله ﷺ لهذه العقيدة أشبه ما يكون بتلقي الجندي في الميدان "الأمر اليومي" ليعمل به فور تلقيه، ولذلك لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة لأنه كان يجس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود)^(٣٣).

هكذا كان صدر هذه الأمة مقتصرًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في عقيدته. ولكن الانحراف الذي طرأ على المسائل العقدية في العصور المتأخرة سببه حركة الترجمة والانبهار بفلسفة اليونان وعلومهم. ولو كان هناك وعي وتفكير في الأشياء المترجمة لاقتصر على ترجمة العلوم البحتة كالهندسة والكيمياء والطب وغيرها من العلوم النافعة وبشرط أن تكون صياغة ترجمتها متفقة مع عقيدة المسلمين. ولكن الخطأ الذي حصل كان ترجمة جميع العلوم ومنها "الإلهيات" عند أرسطو وأفلاطون وغيرهم!

(٣٠) مقدمة الحافظ ابن كثير لتفسيره: (ج ١/١٣).

(٣١) هو عبد الله بن حبيب السلمي القاري. لأبيه صحة. روى عن مجموعة من كبار الصحابة. وهو تابعي ثقة توفي سنة ٧٢ هـ وقيل ٨٥ هـ. انظر تهذيب التهذيب: (ج ٥/١٨٣).

(٣٢) المصدر السابق: (ج ١/١٣).

(٣٣) معالم في الطريق: (ص ١٥).

إنه خطأ فاحش وقع فيه من وقع وإلا فما هو الدافع لاستيراد ما عند الوثنيين واستخدام أهل الكتاب في ذلك؟

وصدق حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حين قال محذراً .. «أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم»^(٣٤).

والذي حصل كما يقول الشيخ محمد الغزالي:

(إن صفو هذه العقيدة قد تعكر بالفكر الأجنبي الذي أقحم على الحياة الإسلامية وبضروب الجدل التي زجى بها المتبطلون أوقات فراغهم) ^(٣٥).

ولكن رحمة الله بعباده وتكفله جلّ جلاله بحفظ الدين تجلت في إيجاد علماء أعلام، في كل عصر ومصر، قاموا بواجب الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله وتبصير الأمة بما شردت عنه، وزهدت فيه.

لذلك حين رأى كثير من الأئمة رحمهم الله هذا الداء الدخيل يحل على المسلمين في تصورهم وعقيدتهم قاموا بواجبهم الجهادي نحوه.

فهذا الإمام الجليل الشافعي رحمه الله يقول:

(حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والزمال وبطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام) ^(٣٦).

ويقول أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رحمهما الله:

(العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم) ^(٣٧).

(٣٤) «صحيح البخاري»: (ج ١٣/٤٩٦، ح ٧٥٢٣) كتاب التوحيد.

(٣٥) «الإسلام والطاغات المعطلة»: (ص ١١٢)، الطبعة الثانية.

(٣٦) «شرح الطحاوية»: (ص ٧٢).

(٣٧) المصدر السابق: (ص ٧٢).

ثم عقب شارح الطحاوية على ذلك بقوله:
(كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به
الرسول) (٣٨).

وذكر آبن الجوزي رحمه الله:

(أن أصل الدخـل في العلم والاعتقاد: من الفلسفة، وذلك أن خلقاً من
العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ﷺ من الانعكاف على
الكتاب والسنة، بل أوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا في
الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد) (٣٩).

أما شيخ الإسلام آبن تيمية رحمه الله فيقول:

(هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف
والأئمة، إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد، بل أخذوا
ينظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم، بطريق
لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول، وهذا لا يقطع أولئك الكفار بالعقول
فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان، ولا جاهلوا الكفار حق الجهاد.
وأخذوا يقولون: إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار، والرد على
أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات!!، وإن ما عارض هذه
المعقولات من السمعات يجب رده تكذيباً، أو تأويلاً، أو تفويضاً. لأنها
أصل السمعات، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس) (٤٠).

وكلمة أخيرة نذكرها للعبارة والعظة، وهي كلمة لأحد أولئك الذين
خاضوا في بحر الكلام اللجي ثم خرجوا منه يطلبون النجاة. إنها كلمة أبي

(٣٨) المصدر السابق: (ص ٧٢).

(٣٩) «صيد الخاطر»: (ص ٢٠٥) تحقيق الطنطاوي، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨ هـ.

(٤٠) «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»: (١/٢٣٨) تحقيق محيي الدين

عبد الحميد ومحمد حامد الفقي.

عبد الله محمد بن عمر الرازي حيث قال:

(لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عيلاً، ولا تروي غليلاً. ورأيت أقرب الطرق. طريقة القرآن.. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي) (٤١). هذا وإنه لحرّي بالأمّة، بعد أن عاشت قروناً من الضياع والتخبط أن تعود إلى المشكاة الربانية كتاب الله وسنة رسوله، فتدبر معانيها، وتعمل بما فيها، ففي ذلك النجاح والفلاح وطمانينة القلب

أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَعْلَمِينَ الْقُلُوبُ

[سورة الرعد: ٢٨]

وعلى الرغم من أنه سيتضح للقارئ - إن شاء الله - من خلال قراءة هذا البحث: طريقة القرآن والسنة في غرس عقيدة "الولاء والبراء" في النفوس، وذلك من خلال سيرة رسول الله ﷺ في العهدين المكي والمدني، ومن خلال الأمثلة والصور الكثيرة في هذا الشأن، إلا أنني أرى أنه لا بأس بأن أورد هنا طرفاً من هذا الموضوع خاصة وأنتني قد تكلمت حول عقم علم الكلام وجنائته على الأمة الإسلامية.

إن من أولى البدهيات في هذا الشأن أن الإسلام قد حرص على أن يكون انتماء المسلم لدينه فقط منذ أول لحظة يعلن فيها "لا إله إلا الله محمد رسول الله". والبراء من كل معبود أو متبوع أو مطلق سوى الله تعالى. والأدلة على ذلك كثيرة جداً في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال تعالى:

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ

(٤١) شرح الطحاوية: (ص ٢٢٧).

اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

[سورة البقرة: ٢٥٦]

وقال:

وَأَعِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ
فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

[سورة آل عمران: ١٠٣]

ويقول سبحانه:

قُلْ إِنِّي هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى
وَأُمرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

[سورة الأنعام: ٧١]

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

[سورة لقمان: ٢٢]

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

[سورة آل عمران: ٨٥]

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا لِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا
وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

[سورة فصلت: ٣٣]

فهذه النصوص الكريمة تثبت مدى منة الله سبحانه وتعالى بإنعامه على المسلمين بهذا الدين، فالولاء له مصدر القوة والعزة.

فمن أستمسك بهذا الولاء، وحققه فقد أستمسك بالعروة الوثقى. أما الحديث - فمن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ»^(٤٢)، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفوس التن»^(٤٣). وحرص المصطفى ﷺ على تربية أُمته والبعد بها عن مفاخر الأنساب والأحساب التي لا تستمد قوتها وحيويتها من هذا الدِّين القيم، فنجده عليه الصلاة والسلام يحثهم على أن يكون آتائهم للصف الإسلامي وحسب. ففي الحديث عن أبي عقبة - وكان مولى من أهل فارس - قال: شهدت مع رسول الله ﷺ أحداً، فضربت رجلاً من المشركين، فقلت: خذها مني وأنا الغلام الفارسي! فألتفت إليّ رسول الله ﷺ وقال: «فهلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري»^(٤٤).

ولقد كان ديدن العقيدة الإسلامية هو: إفراد الله تعالى بالتعلق والحب والتعظيم والطاعة والإنابة والخشوع والخوف والرجاء، وتجريد النفس من كل محبوب أو مرهوب أو مرغوب سوى الله تعالى، قال جلُّ شأنه:

وَإِنْ يَسْتَسْكِنَّ اللَّهُ يُضْرَفَ لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ
وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ.

[سورة يونس: ١٠٧]

(٤٢) العيبة - كما قال الخطابي -: الكبير والنخوة. انظر «سنن أبي داود»: (ج ٣٤٠/٥).

(٤٣) «سنن أبي داود»: (ج ٣٤٠/٥، ح ٥١١٦) كتاب الأدب. وأخرجه الترمذي في المناقب: (ج ٤٣٠/٩، ح ٣٩٥٠) وقال: حديث حسن.

(٤٤) «سنن أبي داود»: (ج ٣٤٣/٥، ح ٥١٢٣)، وقال الشيخ الألباني في «المشكاة»: (ج ٣/١٣٧٤): في إسناده عننة محمد بن إسحاق. وأخرجه ابن ماجه في الجهاد: (ج ٩٣١/٢، ح ٢٧٨٤).

وقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «وأعلم أن الأمة لو آجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو آجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» (٤٥).

(فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة.. ويتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً، وأشتغلاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه، وأشتغاله به من نقص توحيده (٤٦) وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا.. ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين. قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء) (٤٧).

هذا طريق من طرق منهج العقيدة في غرسها للولاء والبراء في النفوس. وطريق آخر: وهو استخدام مشاهد يوم القيامة، لتصوير الخصومة والعداء بين الأتباع والمتبوعين - الذين سلخوا غير منهج الله في الدنيا ووالوا وعادوا حسب العادات ودين الآباء - وتبرؤ كل فريق من صاحبه.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاءَ الْكَذَابِ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا
لَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ

(٤٥) «سنن الترمذي»: (ج ٧/٢٠٤، ح ٢٥١٨) في أبواب صفة القيامة، وقال:

حديث حسن صحيح.

(٤٦) يشترط في هذا عدم ترك الأسباب لأن فعل السبب من باب التوكل «إعقلها وتوكل».

(٤٧) «بدائع الفوائد» لابن القيم: (ج ٢/٢٤٥) بتصرف.

أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

[سورة البقرة: ١٦٦ - ١٦٧]

ولا شك أن هذه حال من آتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضى لهم، وبغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها، وشدة تعبها فيها ونصبه، إذ لم يخلص مولاته ومعاداته، ومحبتة وبغضه، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله.

ويوم القيامة ينقطع كل سبب ووسيلة وموالة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا من كان له سبب يصل بينه وبين ربه، وهو حظه من الهجرة إلى الله ورسوله وعبادة الله وحده وما يلزم ذلك من الحب والبغض والعطاء والمنع والولاء والعدا والقرب والبعد وتجريد متابعة رسول الله ﷺ والإعراض والترك لما خالف سنته وهديه (٤٨).

ومن منهج القرآن أيضاً في موضوع الولاء والبراء ضرب المثل، وهذا كثير في القرآن الكريم، وأبرز مثال في هذه القضية هو إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن وأبو الأنبياء. فإنه هو القدوة الأولى في الولاء والبراء. ونظراً لأهمية ذلك أترك الحديث عنه إلى فصل مستقل في هذا الباب إن شاء الله.

وإذا وجدت محبة الله في القلب، تحمل المؤمن حينئذ وتقبل تكاليف هذه المحبة ولوازم عبادته لله تعالى، ومن ذلك جهاد أعداء الله وبغضهم وهجرهم والصبر على الأذى في سبيل الله.

ثم يمضي القرآن الكريم في أسلوب عرض هذه العقيدة مستخدماً التهديد والوعيد بعد البيان والإيضاح وإقامة الحجة على الناس فيقول عز وجل:

(٤٨) انظر الرسالة التبوكية: (ص ٥١).

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رِقْدِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ وَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ

[سورة المائدة: ٥٤]

أما المستجيبون لأمر الله فإن الله يحبهم وهو ناصرهم ومولاهم
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ
بُيُوتُهُمْ مَرْصُومًا

[سورة الصف: ٤]

بَلِ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

[سورة آل عمران: ١٥٠]

وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ

[سورة الحج: ٧٨]

ومن لوازم محبة الله اتباع رسول الله ﷺ

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

[سورة آل عمران: ٣١]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(فاتباع سنة رسوله ﷺ واتباع شريعته باطنياً وظاهراً هو موجب محبة
الله، كما أن الجهاد في سبيل الله، وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه هو
حقيقتها) (٤٩).

(٤٩) «التحفة العراقية»: (ص ٧٦).

ويقول الحسن البصري رحمه الله:

(زعم قوم أنهم يحبون الله فأبتلاهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٥٠). لقد ربي الكتاب والسنة الأمة على الحب في الله والبغض في الله، والولاء في الله والبراء في الله، حتى وصلت إلى حد أن لو قذفت في النار لكان أحب إليها من أن تعود في الكفر بعد إذ أنقذها الله منه.

ولكن كان الولاء والبراء قد غاب اليوم في واقع حياة المسلمين - إلا من رحم ربك - فإن هذا الغياب لا يغير من الحقيقة الناصعة الجليلة شيئاً لأن هذا الأمر العظيم كما يقول الشيخ حمد بن عتيق (٥١):

(ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده) (٥٢). وما سر استيراد مذاهب البشر الإلحادية وأفكارهم القاصرة إلا نتيجة حتمية لغياب ولائهم لله ورسوله وعدم براءتهم من الطواغيت المقنعة ببهرج الباطل وزيف الحقيقة.

(٥٠) تفسير ابن كثير: (ج ٢/٢٥).

(٥١) ستأتي ترجمته قريباً.

(٥٢) النجاة والفكاك: (ص ١٤).

الفصل الثاني

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

وطبيعة العداوة بينهما

إن وجود أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر قديم نشأ منذ خلق آدم عليه السلام وأمر الله للملائكة بالسجود له فسجدت إلا إبليس أبى واستكبر. وقد تحدث القرآن الكريم عن قصة هذه العداوة بين آدم وإبليس في سور شتى من أبرزها سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه وغيرها.

قال تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾
وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾
فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾
قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

[سورة البقرة: ٣٤ - ٣٨]

وفي سورة الأعراف يأتي بيان عدم سجود إبليس:

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

[سورة الأعراف: ١٢]

لقد كان أمر الله لإبليس أن يسجد فكان ردّه لعنه الله الامتناع والاستكبار
مستخدماً في ذلك قياسه الفاسد: إن النار أشرف من الطين! وهو بهذا ينصب
نفسه نداً لله سبحانه وتعالى: الله يقول كذا. فيقول إبليس أنا أرى كذا. ولذلك
استحق اللعنة والطرود من رحمة الله.

وأنقسم الناس إلى فريق الهدى وفريق الضلال بدأ بهذه البداية كما ذكر
ذلك المولى سبحانه:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَازِلُونَ بَصِيرٌ

[سورة التغابن: ٢].

فأما الفريق الذي أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله المنزلة ورسله
المبعوثين رحمة للناس فهؤلاء أولياء الرحمن.

وأما الفريق الذي أعرض وأستكبر فهم أولياء الشيطان.

وقبل الحديث عن الفريقين لا بد أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أقام
الحجة على عباده فبين لهم عداوة الشيطان - حتى بعد قصته مع آدم -.

فهو سبحانه لم يذكر قصة آدم وعداوة إبليس له عدة مرات في القرآن
فحسب، بل زاد الأمر بياناً فحذر بني آدم في مواضع كثيرة من القرآن أن
يستمعوا لغواية الشيطان ويعرضوا عن طريق الله المستقيم قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا
فِي السِّلَاحَةِ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

[سورة البقرة: ٢٠٨].

ثم يأتي التذكير مع التحذير في قوله تعالى:

يَنْبَغِيءَ آدَمَ لَا يَفْلِتَنَّكُمْ

الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ
إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

[سورة الأعراف: ٢٧].

ولم يقتصر البيان القرآني الكريم على هذا بل قد كشف للناس المخطط
الشرطي، حتى يصر كل ذي عينين ويتفكر أولوا الأبواب فقال تعالى عن
إبليس:

وَقَالَ لَا تَخْذَنْ

مِنْ عِبَادِي إِنَّهُمْ لَفِي بَصَرِي وَأَنَا بَصِيرٌ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَقْرَبُوا هَٰؤُلَاءِ
وَلَا تُؤْمِنُوا بِهِمْ وَلَا يُغْنِيَنَّ عَنْكُمْ دُورُ الْأَعْيُنِ وَلَا أُمُورُهُمْ
فَلْيُعَذِّبْكُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُبِينًا ﴿١٦٩﴾
يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٧٠﴾

[سورة النساء: ١١٨ - ١٢٠].

ثم يذكر الله للناس مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين يندم أولياء
الشیطان ولآت ساعة مندم فيقول سبحانه:

وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ

أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧١﴾ أَلَمْ نَأْخُذْ بِنَبِيٍّ مَا آدَمَ أَنْ لَا
تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ أَعْبَدُونِي

هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

[سورة يس: ٥٩ - ٦١].

ومشهداً آخر لإبليس حين يتبرأ من أتباعه:

وَقَالَ الشَّيْطَانُ

لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِ خَيْرِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا
أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

[سورة إبراهيم: ٢٢].

إنه ليس بعد بيان الله بيان. والأشياء لأصلها تعود كما يقولون فما دام
أن إبليس عدو لآدم فلا شك أن أتباع إبليس وحزبه أعداء لأولياء الرحمن
وأتباع المرسلين. ومن ثم فلا آلتقاء بين الفريقين ولا هوادة بينهما.

إنها الحرب والعداوة والحسد والاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة وكل
ما يوحى به إبليس لأتباعه ذلك سلاح حزب الشيطان.

وحزب الشيطان أناس يترصدون بالمؤمنين يحاولون ما استطاعوا أن
يصدوهم عن ذكر الله، ولقد أخبرنا الله جل جلاله بذلك في مواضع عدة
من كتابه الكريم فقال سبحانه عن سخرية أعداء الله بحزب الله:

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

[سورة البقرة: ٢١٢].

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [سورة الأعراف: ٦٦].

إِنَّ الَّذِينَ

أَجْرُمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٣﴾
وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ

[سورة المطففين: ٢٩ - ٣٢].

وأنظر إلى تصوير القرآن لعداوة حزب الشيطان، وما تنطوي عليه نفوسهم ضد المؤمنين في قوله تعالى:

وَإِذَا تَلَّيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ كَأَنَّهُمْ كَادُوتٌ يَسْطُونَ
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ تُبْشِرُونَ
ذَٰلِكُمُ النَّارَ وَعْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

[سورة الحج: ٧٢].

وها هنا حقيقة هامة هي: أن العداوة التي وقعت بين آدم عليه السلام وبين إبليس هي عداوة قائمة بين إبليس وبني آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وتاريخ البشرية كله ما هو إلا مصداق لحقيقة أنقسام الناس إلى فريق الهدى والرشد وفريق الهوى والشهوة والشيطان.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ كَفَرٍ وَنَكَرُكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

[سورة التغابن: ٢].

وعلى ذلك فإنه لا آلتقاء بين الفريقين في الدنيا ولا في الآخرة ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(ومن سنة الله: إنه إذا أراد إظهار دينه، أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (٥٣).

(٥٣) «مجموعة الفتاوى»: (ج ٢٨/٥٧).

وأنظر إلى عداوة قوم نوح عليه السلام له وقوم عاد وقوم صالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد ﷺ، ثم العداوة التي تقابل بها الجاهلية أهل الإيمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان أولياء الرحمن مُصْرَبِينَ على اتباع هدى ربهم فإن أولياء الشيطان يصرون أيضاً على التردى في حمأة الجهل والضلال، عابدين للطاغوت سواء كان هذا الطاغوت نذاً يُعبد أو شهوة يراد إشباعها أو جنساً أو لغة أو سلطة أو أرضاً أو دين الآباء الأولين. وصدق الله العظيم إذ يقول:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٧].

أما حزب الرحمن فهم (الذين ينتمون إليه سبحانه، ويستظلون برأيه، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره، وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان، ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأورمات والبيوت) (٥٤).

وقد جاء الدين الإسلامي بفيصل التفرقة بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية فلم يجعل آلتقاء الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس أو التراب - كما تفعل ذلك الجاهليات القديمة والحديثة على السواء - بل جعل آلتقاء الناس على العقيدة في الله، وجعل المفاضلة بينهم بالعمل الصالح قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ

(٥٤) وفي ظلال القرآن: (ج ١/ ٤١٣).

شَعُوبًا وَقَبَائِلَ لِنَتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

[سورة الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب»^(٥٥).

وقال أيضاً: «إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي أو فاجر شقي»^(٥٦). ولقد تبرأ المصطفى ﷺ من أقرباء له ليسوا على دينه، ليضع من نفسه قدوة للمؤمنين فقال فيما رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً من غير سر: «إن آل فلان - أناس من أقاربه - ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين» متفق عليه^(٥٧).

وقال ﷺ: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا»^(٥٨) وهذا موافق لقوله تعالى:

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة التحريم: ٤].

من هنا: كان المؤمنون هم أولياء الله لأنهم استجابوا لما أراد الله فتلقوا منه وحده، وعبدوه وحده، وخافوه وحده. بعكس الفريق الثاني فإنهم كلما

(٥٥) «مسند الإمام أحمد»: (ج ٥/٤١١) عن أبي نضرة، وإسناده صحيح إلا أنه مرسل لأن أبا نضرة ليس صحابياً.

(٥٦) سبق تخريجه: (ص ١٠٨).

(٥٧) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤١٩) كتاب الأدب، ومسلم: (ج ١/١٩٧)، ح ٢١٥ في الإيمان.

(٥٨) «مسند أحمد»: (ج ٥/٢٣٥)، وهو حديث صحيح. انظر تخرجه كتاب «فقه السيرة» للغزالي: (ص ٤٨٥)، و«صحيح الجامع الصغير»: (ج ٢/١٨١)، ح ٢٠٠٨.

دعاهم رسول من رسل الله قالوا:

قَاتُوا بِلَ نَسِيجِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا
أُولَؤكَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ

[سورة البقرة: ١٧٠].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَؤكَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ

[سورة المائدة: ١٠٤].

ومن صفات أولياء الرحمن: الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه
وآتباع أمره، قال تعالى:

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

[سورة النور: ٥١].

أما أولياء الشيطان: فمن سماتهم الإعراض عن حكم الله وشرعه، وآتباع
الهوى والشيطان قال تعالى:

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَزَعْنَا لَيًّا بِالْسُنَنِ
وَطَعْنَا فِي الدِّينِ

[سورة النساء: ٤٦].

وقال:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بِشَايِئَةِ رَبِّهِ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ

[سورة السجدة: ٢٢].

يقول العلامة آبن القيم:

(كل من كَذَّب رسولَ الله ﷺ، وأعرض عن متابعته، وحاد عن شريعته، ورغب عن ملته، وآتبع غير سنته، ولم يتمسك بعهدده، ومكن الجهل من نفسه، والهوى والفساد من قلبه، والجحود والكفر من صدره، والعصيان والمخالفة من جوارحه فهو ولي الشيطان) (٥٩).

ومن سمات أولياء الشيطان أنهم:

(إذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه، وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء ناصراً لهم، وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مدعين لا لأنه حق بل لموافقته غرضهم وأهوائهم،

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ لَمُتَّقٌ
يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آتَاهُمُ آيَاتٌ يَخْفَوْنَ
أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ رُبَّمَا أُولَتْكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ

[سورة النور: ٤٨ — ٥٠] (٦٠).

(٥٩) «هداية الحيارى»: (ص٧).

(٦٠) «مدارج السالكين»: (ج١/٥٣).

طبيعة العداوة بين الفريقين

بعد أن بيّنا سمات الفريقين، نتحدث الآن عن العداوة بينهما، ومعرفة هذه العداوة أمر لا بد منه لتمييز الخبيث من الطيب

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا
أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

[سورة آل عمران: ١٧٩].

ومعرفة العداوة بين الفريقين أمر هام يكشف ألعية بعض المتسمين بأسماء إسلامية وهم يسعون لتذويب المسلم في خضم الجو الجاهلي المعاصر وتميع لائه لربه وإخوانه المسلمين، وأمانة براءته وعداوته لكل عدو لهذا الدين.

هذه الحقيقة الهامة الناصعة يحاول أعداؤنا تزييفها: بأن الكفار أصدقاء أوفياء شرفاء يجب أن يكون لهم الحب والتقدير، والإجلال والإكبار والتعظيم، يقولون إننا متأخرون وهؤلاء القوم متقدمون يجب أن نسلك مسلكهم، وننهج نهجهم نقتفي آثارهم في كل وضع وحال، نأخذ حضارتهم بكاملها حلوها ومرها، حقها وباطلها، بل إنه لا باطل فيها^(٦١).

ولكن هيهات خسئوا وخابوا، إن حزب الله هم الأعلون عند الله قدراً، وهم الأعلون ولو كانوا أقل عدداً، وحزب الشيطان هم الخاسرون ولو كانوا عدد الحصى.

ولا بد أن يسبق حديث العداوة بين الفريقين، نبذة بسيطة عن عداوة

(٦١) ممن تزعم هذا الاتجاه طه حسين وأضرابه. وانظر إذا شئت كتابه «مستقبل الثقافة في مصر».

إبليس للإنسان حتى نعلم مداخل الشيطان لهذه النفس البشرية، ومدى تلبسه الحق بالباطل على أوليائه فيبين الحق للمؤمن فيأخذ الحذر على نفسه ومن معه، ويعبد الله على بصيرة منه ونور من شرعه.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن عدوة الشيطان للإنسان تتمثل في سبع مراتب أذكرها هنا بالاختصار:

(١) الكفر والشرك، ومعادة الله ورسوله، فإذا ظفر الشيطان بذلك من ابن آدم برد أنينه، وأستراح من تعبته معه، وهو أول ما يريد من العبد، فإن ظفر به صيره من عسكره ونوابه، فصار من دعاة إبليس، فإن يئس من ذلك نقله للمرتبة الثانية من الشر وهي.

(٢) البدعة: لأنها أحب إليه من الفسوق والعصيان، وذلك أن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعدد، وهي مخالفة لدعوة الرسل، فإن كان الشخص ممن يعادي أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة وهي:

(٣) الكباثر: على اختلاف أنواعها، فيحرص أن يوقعه فيها، خاصة إذا كان عالماً متبوعاً لينفر الناس عنه. ومن المعلوم أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها، فكيف إذا تولوا هم إذاعتها؟ فإن عجز عن هذه نقله للتي بعدها وهي:

(٤) الصغائر: التي إذا اجتمعت ربما أهلك صاحبها، كما قال النبي ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك قوم نزلوا بفلاة من الأرض»^(٦٢). وذكر حديثاً معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا وأشتوا. ولا يزال يسهل عليه أمر

(٦٢) الحديث في «مسند أحمد»: (ج٣/٥) وهو حديث صحيح، انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (ج٣٨٩)، و«صحيح الجامع»: (ج٢/٣٨٦)، ح ٢٦٨٣ و (٢٦٨٤).

الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد عن هذه نقله للخامسة.

(٥) إشغاله بالمباحات: التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه بأشغاله بها، فإن أعجزه العبد عن هذه بأن كان حافظاً لوقته شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وأنقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله للتي بعدها.

(٦) إشغاله بالعمل المفضول عن الفاضل: ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، ويفتح له أبواب خير كثيرة، كما ورد أنه يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين وأجل وأفضل. وهذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضائها له، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة، وخلفائه في الأرض والله يمن بفضله على من يشاء من عباده (٦٣).

(٧) فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست: سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه، ويمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يني فحيثئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله.

وما دام أن هذا هو كيد الشيطان للإنسان فما هو سبب العداوة ومثيرها

(٦٣) «هدائع الفوائد: (ج ٢/ ٢٦٠ - ٢٦٢) بتصرف.

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؟

والجواب على ذلك أحد أمور أربعة أو الأربعة مجتمعة:

(١) الكبر: فأولياء الشيطان استكبروا على الحق وعلى الرسول وعلى الرسالة. قال الله تعالى فيهم:

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّثُونَ فِي آيَاتِ
اللَّهِ يَتَّبِعُهُمْ الشَّيْطَانُ أَن تَكُونَ لَهُمْ
مَآسِمًا يَلْبِغُ لَهُمْ فَأَسْخَذَ اللَّهُ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينُ
الْبَصِيرُ

[سورة غافر: ٥٦].

وقال تعالى:

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ
اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ

[سورة البقرة: ٨٧].

وقال تعالى:

وَإِذْ أَنزَلْنَا وَلِيَّ مِصْرَ مُوسَىٰ
كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

[سورة لقمان: ٧].

(٢) استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، واللصوق بالشهوات واللذائذ قال تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

[سورة النحل: ١٠٧].

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْتَغُونَ رِجَالًا مِثْلَكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ

[سورة إبراهيم: ٣]

وإذا وجد الكبير وحب الدنيا على الآخرة أو أحدهما: فإن أرباب ذلك ينزعجون من وجود عباد الله المخلصين، حتى ولو لم يظهر لهم منهم أي احتكاك فإن وجودهم بهذا النقاء وبهذه الطهارة وبذلك الاستعلاء أمر يغيظ أعداء الله قال تعالى:

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً

[سورة النساء: ٨٩].

ذلك أن وجود الفريق الطاهر يشعر الفريق الدنس بخبث طويته وقبيح فعله، فمن هنا يبدأ كيد أعداء الله لأوليائه الله بكل ما تعني كلمة "كيد" سواء كان ذلك بالسخرية أو الاستهزاء، أو العذاب والاضطهاد، أو التربص للمؤمنين بكل ما يسوء.

(٣) الحسد: فتائرة أولياء الشيطان لا تهدأ، ولذلك يكتنون للمؤمنين الحسد والحق، وقد بين الله ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى:

وَذَكَرْتُكُمْ أَهْلَ
الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا
مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا
وَاصْصَفُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

[سورة البقرة: ١٠٩].

أجل هذه هي أمنيته أن يكفر عباد الله ليتساوا معهم في الكفر والضلal، وقد بين الله عظيم حقدهم وحسدهم لو ظهروا على المؤمنين

فقال تعالى:

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً

[سورة التوبة: ٨].

(٤) سلب الهيمنة والولاء: وهذا أمر يختص بـ ”الملأ“ أي السادة والطواغيت الذين يستعبدون الناس، حيث يتقدم الناس لهم بالإجلال والتعظيم والرغبة والرغبة، والخوف والرجاء. فإذا جاء دين الله وشرعه الذي يحرر الناس من عبودية العبيد إلى عبادة الواحد القهار فإن ”الملأ“ يشورون ويعادون دعاة الخير، لأنهم يشعرون حينئذ أن سلطانهم قد سلب وأن شرفهم قد زال، وأن الناس لم يعودوا يخشونهم أو يرهبونهم، لأن دين الله قد حررهم وأعزهم وعبدتهم الله فخوفهم من الله، وحبهم لله، وولاؤهم لله، وبغضهم في الله.

ودليل هذا فعل كسرى حين جاءه كتاب رسول الله ﷺ يدعو إلى الدخول في الإسلام فاستكبر في نفسه وكأنه يقول: أمر عجيب الأعراب الذين كانوا رعاة لنا يأتون إليّ لأدخل في دينهم الجديد! وظن أن ملكه سيزول إذا دخل في الدين الجديد، فما كان منه إلا أن مزق الكتاب. وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ فمزق الله ملك كسرى شر ممزق، فهكذا الطواغيت التي لا تدين لله بالولاء والسلطة والحاكمة تعادي أولياء الرحمن وتصب عليهم أشد أنواع العذاب كما قال تعالى:

وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

[سورة البروج: ٨].

(والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها - في دخيلة نفسها - لا تعرف ما فيه من الحق والخير، أو لأنها - بينها وبين نفسها - تعتقد حقاً أن باطلها الذي تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام! كلاً! فهي تكرهه وهي عالمة بما فيه من الحق والخير وبأنه هو الذي يقوم ما أعوج من شؤون الحياة،

وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه، وتود أن تبقى الأمور على أعوجاجها ولا تستقيم!، تكرهه لأنها هي الجاهلية.. وهو الإسلام!

وَأَمَّا نُمُودُ فَمَهْدِيَتُهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى

[سورة فصلت: ١٧] (٦٤).

أما طبيعة عداوة أولياء الرحمن لأعدائهم: فهي جزء من عقيدتهم، وأحسب أنني فصلت القول في هذا في التمهيد حين تكلمت عن لوازم لا إله إلا الله أنهم يغيضون في الله من حاد الله ورسوله قال تعالى:

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾

[سورة المجادلة: ٢٢].

إنهم لا يلتقون مع أعدائهم في منتصف الطريق بل يقولون كما قال إمامهم إبراهيم على السلام:

إِنَّا بَرَاءٌ وَأَمِينُكُمْ وَمَا نَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا لَنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ

[سورة الممتحنة: ٤].

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

(٦٤) «جاهلية القرن العشرين» للأستاذ محمد قطب: (ص ٣٢٢).

(إنه لا يستقيم للإنسان إسلام - ولو وحَّد وترك الشرك - إلا بعداوة
المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى:

لَا تَجِدُ قَوْمًا

[سورة المجادلة: ٢٢] (٦٥).

وما دما قد عرفنا منطلق العداوة وحقيقتها فيجب أن نعلم أن هذا هو
”القاسم المشترك“ بين أعداء الإسلام بشتى أصنافهم كفار ومشركين
ومنافقين وكل من كره الإسلام وعاداه.

إن طبيعة المنهج الإسلامي التي يعرفها جيِّداً أصحاب المناهج الأخرى
طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله في الأرض، وإخراج الناس كافة من
عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتحطيم الحواجز المادية التي تحول بين
الناس كافة وبين حرية الاختيار الحقيقية.. ثم إنها طبيعة التعارض بين منهجين
للحياة، لا ألتقاء بينهما في صغيرة ولا كبيرة وحرص أصحاب المناهج
الأرضية على سحق المنهج الرباني الذي يهدد وجودهم ومنهجهم
وأوضاعهم قبل أن يسحقهم، فهي حتمية لا اختيار فيها في الحقيقة لهؤلاء
ولا لهؤلاء.. وهذه الظاهرة يقرها القرآن بقوله ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى
يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ (٦٦).

ونذكر بعض عداوات هذه الأصناف حسبما نصَّ عليها القرآن الكريم.
فأما ”الكفار“ فقد قال الله تعالى عنهم:

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

[سورة الصف: ٨].

وقال في شأن ”المشركين“:

(٦٥) «مجموعة التوحيد:» (ص ١٩) (سنة مواضع من السورة)، طبعة دار الفكر.

(٦٦) انظر «طريق الدعوة في ظلال القرآن»: (ج ١/ ٨٠).

مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ

[سورة البقرة: ١٠٥].

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ

[سورة الصف: ٩].

وأما عداوة "أهل الكتاب" فالله يقول عنهم:

وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ

[سورة البقرة: ١٢٠].

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ

[سورة المائدة: ٨٢].

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ
الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتَّخِذُوا السَّبِيلَ

[سورة النساء: ٤٤].

وَإِذَا الْقُتُوبُ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ إِلَّا تَأْمِيلَ
مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا يَغْفِرَ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٨﴾

[سورة آل عمران: ١١٩].

أما عداوة "المنافقين" فقد نبّه القرآن الكريم على ذلك في مواضع كثيرة، ومن ذلك ما ورد في أول سورة البقرة، حيث ذكروهم في ثلاث عشرة آية من آية ٨ - ٢٠ وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بليّة الإسلام بهم شديدة جداً، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب،

يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد.
 (فله كم معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه
 وخرّبوه، وكم من لواء مرفوع قد وضعوه.. أتفقوا على مفارقة الوحي فهم
 على ترك الاهتداء به مجتمعون:

فَقَطَّعُوا أَسْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

[سورة المؤمنون: ٥٣].

(رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم
 العقل المعيشي: إن الفريقين عنهم راضون وهم بينهم آمنون.

يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
 وَمَا يَشْعُرُونَ

[سورة البقرة: ٩].

(من علقت مغالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق، ومن تعلق
 شرر فتنهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، خرجوا في طلب التجارة البائرة
 في بحار الظلمات فركبوا مراكب الشبه والشكوك، تجري بهم في موج
 الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقته بين سفن الهالكين.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ

بِالْهُدَىٰ فَمَارَجَحَتْ يَجْتَرِئُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

[سورة البقرة: ١٦] (٦٧).

وقد نزل بخصوصهم سورة كاملة في القرآن هي سورة "المنافقون"
 وقد ورد فيها صريح عداوتهم للمؤمنين في قوله تعالى عنهم:

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ

(٦٧) «مدارج السالكين»: (ج ١/ ٣٤٧ - ٣٤٩) يتصرف.

لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ
 خَرَّابِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
 ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ
 مِنهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ
 الْمُتَنَفِّقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة المنافقون: ٧ - ٨].

وما دما قد عرفنا عداوات هذه الأصناف للإسلام، فإنه لجدير بنا أن نؤكد خطورة عداوة اليهود والنصارى؛ لأنهم هم المسيطرون اليوم على معظم بقاع الأرض، وهم الذين يثبون غزوهم بشتى الأساليب، وهم رمز "البهرج والانبهار" أمام المخذوعين من أبناء المسلمين.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

(إن حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة هي من أجل العقيدة. وهم قد يختصمون فيما بينهم ولكنهم يلتقون دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين.

(وقد يرفعون لهذه المعركة أعلاماً شتى - في خبث ومكر وتورية - لأنهم قد جربوا حماسه المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة، فخوفاً من حماس العقيدة الإسلامية وجيشانها: أعلنوا الحرب باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية، وألقوا في روع المخذوعين منا: إن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع رايته، وخوض المعركة باسمها، فهذه سمة المتخلفين المتعصين! وذلك ليأمنوا جيشان العقيدة من جديد، بينما هم في قرارة نفوسهم جميعاً: يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً فأدمتهم جميعاً!

(فإذا نحن خدعنا بخديعتهم فلا نلومن إلا أنفسنا، ونحن نتبعد عن

توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته وهو سبحانه أصدق القائلين:

وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبْعَ مِلَّتَهُمْ

[سورة البقرة: ١٢٠].

(هذا هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود. ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ﴾ على سبيل القصر والحصر هدى الله هو الهدى وما عداه فليس بهدى (٦٨).

وخلاصة القول :

إن حقيقة العداوة وطبيعتها هو اختلاف الدينين، وأتراق المنهجين. فإما دين الله وآتباع شرعه وموالاته عباده المؤمنين. وإما دين الباطل وآتباع الهوى والشهوات والشيطان والانضمام إلى حزب الشيطان. فعلى أولياء الله أن يعتزوا بدينهم، وأن يستعلوا فوق وطأة الباطل فإنهم هم المنصورون، وإذا كان أعداء الله يتباهون بقوتهم وكثرة عددهم وعدتهم فإن المؤمنين يفخرون بنصر الله وكريم معيته وعونه لهم.

فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما أفترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» (٦٩).

(٦٨) وفي ظلال القرآن: (ج ١/ ١٠٨) بتصرف.

(٦٩) سبق تخريجه: (ص ٩١).

ويقول الله تبارك وتعالى:

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ

[سورة النحل: ١٢٨].

ويقول تعالى:

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا
سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

[سورة الأنفال: ١٢].

ويقول تعالى:

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ
وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَفِرَّكُمْ أَعْمَلَكُمْ

[سورة محمد: ٣٥].

وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا مصداق ذلك، ففي غزوة بدر نصر الله القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وأعز دينه ونصر حزبه، وفتوحات المسلمين شرقاً وغرباً وتحطيم عروش كسرى وقيصر ليست بغائبة عن الأذهان.

ونصر الله وتأيده للمؤمنين في معركتهم مع التار ومع الصليبيين الحاقدين. وغيرها من مئات الحوادث سواء كانت على مستوى الفرد أم الجماعة خير شاهد على ما نقول.

وسيقى النصر والعون والمدد لأولياء الله إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما على المؤمنين إلا الصدق مع الله والإخلاص في العمل ابتغاء مرضاته هو وحده، والعمل وفق كتابه وسنة نبيه ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

الفصل الثالث

عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء

لا بد أن نذكر معتقد أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء حتى يخرج بذلك أرباب البدع والأهواء التي لا تستند إلى دليل قوي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(على المؤمن أن يعادي في الله، ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه - وإن ظلمه - فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية، قال تعالى:

وَلَا تَأْخُذْ بَعَثَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَضِلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا

[سورة الحجرات: ٩].

(فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي، وأمر بالإصلاح بينهم، فليتدبر المؤمن: أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك وأعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك. فإن الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام الثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه.

(وإذا اجتمع في الرجل الواحد: خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة آستحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، وآستحق من المعادة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي آتفق عليه أهل السنة والجماعة،

وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم (٧٠).

ولمّا كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما أسلفنا فيما سبق فإن الناس في نظر أهل السنة والجماعة - بحسب الحب والبغض والولاء والبراء - ثلاثة أصناف:

الأول: من يحب جملة. وهو من آمن بالله ورسوله، وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً واعتقاداً. وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وأنقاد لأوامره وأنهى عما نهى الله عنه ورسوله، وأحب في الله ووالى في الله، وأبغض في الله وعادى في الله، وقدم قول رسول الله ﷺ على قول أحد كائناً من كان (٧١).

الثاني: من يحب من وجه ويبغض من وجه، فهو المسلم الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فيحب ويؤالى على قدر ما معه من الخير، ويبغض ويعدى على قدر ما معه من الشر، ومن لم يتسع قلبه لهذا كان ما يفسد أكثر مما يصلح.. وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد الله بن حمار (٧٢). وهو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - كان يشرب الخمر، فأُتي به إلى رسول الله ﷺ فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله» (٧٣)، مع أنه ﷺ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه (٧٤).

(٧٠) انظر «مجموع الفتاوى»: (ج ٢٨/ ٢٠٨ - ٢٠٩).

(٧١) «إرشاد الطالب»: لابن سحمان: (ص ١٣).

(٧٢) عبد الله بن حمار. هكذا أورده ابن سحمان والموجود في «صحيح البخاري»:

(٧٥/ ١٢) أنه عبد الله، كان يلقب حماراً. وقال ابن حجر: كان يهدي إلى

النبي ﷺ ويضحكه في كلامه. انظر «الإصابة»: (ج ٤/ ٢٧٥) تحقيق البجاوي.

(٧٣) «صحيح البخاري»: (ج ١٢/ ٧٥، ح ٦٧٨٠) كتاب الحدود، باب ما يكره من

لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة.

(٧٤) «سنن أبي داود»: (ج ٤/ ٨٢، ح ٣٧٦٤) كتاب الأشربة، وابن ماجه: =

الثالث: من يفيض جملة، وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله بقضاء الله وقدره، وأنكر البعث بعد الموت، أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك بالله في عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين، وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة كالحب، والدعاء، والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والإنابة، والذل، والخضوع، والخشية، والرغبة، والرغبة، والتعلق، أو ألحد في أسمائه وصفاته، وآتبع غير سبيل المؤمنين، وآتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة، وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها^(٧٥).

فأهل السنة والجماعة - إذن - يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاءً كاملاً، ويحبونه وينصرونه نصرةً كاملةً، ويتبرأون من الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين، ويعادونهم عداوةً وبغضاً كاملين. أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان، ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر.

وأهل السنة والجماعة يتبرأون ممن حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، قال تعالى:

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّوهُ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

= (ج ٢/ ١٢٢، ح ٣٣٨٠) في الأشربة. وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٥/ ١٩، ح ٤٩٦٧).
(٧٥) «إرشاد الطالب»: (ص ١٩).

ويعتدلون لديه تعالى في قوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنْ
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنُونَ كَسَادَها وَمَسْكَنٌ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ يُؤْتِي اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٣ - ٢٤].

وبلخص الإمام ابن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة فيقول:
(الحمد والذم والحب والبغض والموالة والمعاداة إنما تكون بالأشياء
التي أنزل الله بها سلطانه، وسلطانه كتابه، فمن كان مؤمناً وجبت موالاته
من أي صنف كان، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان.
قال تعالى:

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ

[سورة المائدة: ٥٥ - ٥٦].

وقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

[سورة المائدة: ٥١].

وقال: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

[سورة التوبة: ٧١].

(ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أُعطي من الموالاة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره، ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي كما يقول الخوارج والمعتزلة.

(ولا يُجعل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة.

قال تعالى:

وَلَا تَطَافِئَانِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفَسَتِلُوا فَاصِلَهُمْ أَيْبَنَهُمَا

إلى قوله:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

[سورة الحجرات: ٩ - ١٠].

فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغى.

(... ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم بشاهدة بعض، ويأخذ بعضهم العلم من بعض، ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك) (٧٦).

الولاء والبراء القلبي :

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا الموضوع أن الولاء القلبي وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة.

(٧٦) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية: (ص ١٠٨ - ٢٠١)، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ، مطبعة المنار بمصر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(فَأَمَّا حُبُّ الْقَلْبِ وَبُغْضُهُ، وَإِرَادَتُهُ وَكَرَاهَتُهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ كَامِلَةً جَازِمَةً، لَا تُوجِبُ نَقْصَ ذَلِكَ إِلَّا بِنَقْصِ الْإِيمَانِ، وَأَمَّا فِعْلُ الْبَدَنِ فَهُوَ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، وَمَتَى كَانَتْ إِرَادَةُ الْقَلْبِ وَكَرَاهَتُهُ كَامِلَةً تَامَةً وَفِعْلُ الْعَبْدِ مَعَهَا بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ. فَإِنَّهُ يُعْطَى ثَوَابَ الْفِعْلِ الْكَامِلِ.

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله، وبغض الله ورسوله وهذا نوع من الهوى، فإن أتبعه الإنسان فقد أتبع هواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَبْغِرْ هَذَا مِنْ اللَّهِ﴾ [سورة القصص: ٥٠] (٧٧).

موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء:

يدخل في معتقد أهل السنة والجماعة البراءة من أرباب البدع والأهواء. والبدعة: مأخوذة من الابتداع وهو الاختراع، وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق، ولا مثال آتذي، ولا ألف مثله، ومنه قولهم: آبتدع الله الخلق، أي خلقهم آبتداء ومنه قوله تعالى:

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

[سورة البقرة: ١١٧].

وقوله:

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ أَلْأَرْسَلِ

[سورة الأحقاف: ٩].

أي لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض.

(٧٧) «شذرات البلاتين»: (ج ١/٣٥٤)، و«الأمر بالمعروف، لابن تيمية.

وهذا الاسم يدخل فيما تختاره القلوب، وفيما تنطق به الألسنة، وفيما
تفعله الجوارح^(٧٨).

قال ابن الجوزي:

(البدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع. والأغلب في المبتدعات أنها
تصادم الشريعة بالمخالفة، وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان)^(٧٩).

ولقائل أن يقول: ما شأننا الآن وأصحاب البدع لا سيما وأنت تتكلم
عن ولاء الكفار والبراء منهم وموالة المؤمنين ونصرتهم؟؟

والجواب على ذلك:

أولاً: إن البدعة خطرهما عظيم وكبير، والدليل على ذلك أنها تنقسم إلى
رتب متفاوتة ما بين الكفر الصريح إلى الكبيرة والصغيرة، وفي هذا يقول الإمام
الشاطبي:

(البدعة تنقسم إلى رتب متفاوتة منها ما هو كفر صراح، كبدعة
الجاهلية التي نبه عليها القرآن بقوله:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا

[سورة الأنعام: ١٣٦].

وقوله تعالى:

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ
خَالِصَةٌ لَّذُنُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ
مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ

[سورة الأنعام: ١٣٩].

(٧٨) كتاب «الحوادث والبدع»: للطوطوشي: (ص ٣٨ - ٣٩) تحقيق عماد الطالبي.

(٧٩) «تلبس إبليس»: (ص ٢٦).

وقوله:

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

[سورة المائدة: ١٠٣].

وكذلك بدعة المنافقين حين اتخذوا الدين ذريعة بحفظ النفس والمال وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر صراح (٨٠).

وقضية التحليل والتحريم خصوصية لله عز وجل، فمن ادعى التحليل والتحريم فقد شرع، ومن شرع فقد آله نفسه. وكما أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان، قال تعالى:

أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ

[سورة الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه:

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفَرِّقُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

[سورة النحل: ١١٦].

فهذه البدعة الكفرية وأمثالها لأصحابها منا العداء والبغض والكره والجهاد بعد الإعذار والإنذار، والبراءة منهم لا تختلف عن البراءة من الكافر الأصلي، فقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (٨١).

قال البغوي:

(٨٠) «الاعتصام»: (ج ٢/٣٧).

(٨١) رواه البخاري: (ج ٥/٣٠١، ح ٢٦٩٧) في الصلح، ومسلم: (ج ٣/١٣٤٣، ح ١٧١٨) كتاب الأفضية.

(وقد آتفق علماء السنّة على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم) (٨٢) .

ونعود لرتب البدع كما ذكرها الشاطبي فقال:

(ومن البدع ما هو من المعاصي التي ليست بكفر أو يُختلف فيها هل هي كفر أم لا؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة.

ومنها ما هو معصية ويتفق على أنها ليست بكفر، كبدعة التبتل (٨٣) ، والصيام قائماً في الشمس، والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع.

ومنها ما هو مكروه كالاختراع للدعاء عشية عرفة، وذكر السلاطين في خطبة الجمعة، على ما قاله ابن عبد السلام الشافعي (٨٤) وما أشبه ذلك (٨٥) .

فأرباب هذه البدع يتبرأ منهم أهل السنّة والجماعة.

ثانياً: لخطورة البدع على الدين أورد هنا نماذج من أقوال سلف الأمة في التحذير من البدع وأصحابها. ومن ذلك ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث يقول:

(٨٢) «شرح السنّة»: (ج ١/ ٢٢٧).

(٨٣) التبتل: هو الانقطاع عن الدنيا إلى الله. انظر «مختار الصحاح»: (ص ٥٣).

(٨٤) هو سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي فقيه شافعي

بلغ رتبة الاجتهاد، ولد سنة ٥٧٧هـ، وتوفي سنة ٦٦٠هـ، من مؤلفاته «التفسير

الكبير»، و«الإلام في أدلة الأحكام»، و«قواعد الشريعة»، و«قواعد الأحكام»

و«الفتاوى». انظر «الأعلام» للزركلي: (ج ٤/ ٢١)، الطبعة الرابعة، وفيه أن له

ترجمة في «فوات الوفيات»: (ج ١/ ٢٨٧)، و«طبقات السبكي»: (ج ٥/ ٨٠)،

و«النجوم الزاهرة»: (ج ٧/ ٢٠٨)، و«ذيل الروضتين»: (ص ٢١٦)، و«مفتاح

السعادة»: (ج ٢/ ٢١٢).

(٨٥) «الاعتصام»: (ج ٢/ ٣٧).

«من كان مستتاً فليستن بمن قد مات: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرأقهم، فهم كانوا على الهدى المستقيم» (٨٦).

وقال سفيان الثوري رحمه الله:

(البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها) (٨٧).

وقال الإمام مالك رحمه الله:

(من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين، لأن الله تعالى يقول:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

[سورة المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً) (٨٨).

وذكر الشاطبي رحمه الله أن مفاصد البدع تنحصر في أمرين:

(١) إنها مضادة للشارع، ومراغمة له، حيث نصب المبتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفي بما حد له.

(٢) إن كل بدعة - وإن قلت - تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للأصل الصحيح، وكل ذلك قد يكون على الانفراد، وقد يكون ملحقاً بما هو مشروع فيكون قادحاً في المشروع، ولو فعل أحد مثل هذا في نفس

(٨٦) «شرح السنّة» للبخاري: (ج١/٢١٤).

(٨٧) «شرح السنّة» للبخاري: (ج١/٢١٦).

(٨٨) «الاعتصام»: (ج٢/٥٣).

الشرعة عامداً، لكفر، إذ الزيادة والنقصان فيها أو التغير - قل أو كثر - كفر^(٨٩). ويعضد هذا النظر عموم الأدلة في ذم البدع ومنها: قوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»^(٩٠). وقوله ﷺ: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٩١).

وقال أحد علماء السلف:

(لا تجالسوا أصحاب الأهواء، أو قال أصحاب الخصومات فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلاتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون)^(٩٢).

فالحلاصة: إنه من معتقد أهل السنة والجماعة البراء من البدعيين، خاصة أصحاب البدع الكفرية، ولذلك سيرد مزيد من تفصيل هذا في الباب الثاني إن شاء الله.

(٨٩) «الاعتصام»: (ج ٢/٦١) يتصرف بسيط.

(٩٠) «صحيح مسلم»: (ج ٢/٥٩٢، ح ٨٦٧) كتاب الجمعة.

(٩١) «صحيح مسلم»: (٢٠٦٠/٤) ح ٢٦٧٤ كتاب العلم.

(٩٢) «شرح السنة للبغوي»: (ج ١/٢٢٧).

الفصل الرابع

أسوة حسنة في الولاء والبراء من الأمم الماضية

(أ) إبراهيم الخليل عليه السلام:

لقد كان نبي الله إبراهيم عليه السلام: أسوة حسنة وقُدوة طيبة في ولائه
لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداء الله ومنهم أبوه.
لقد كانت سيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام مع قومه كأبي نبي رسول،
حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة،
والكفر بكل طاغوت يعبد من دون الله.

قال تعالى:

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۗ يَا أَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا ۖ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
عَصِيًّا ۖ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۖ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ الْهِمَى
يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۖ قَالَ
سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۖ
وَأَعِزَّنَا لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى

أَلَا أَكُونُ بِدُعَاؤِ رَبِّي شَقِيحًا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا آعَزَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نِسَاءَهُنَّ

[سورة مريم: ٤١ - ٤٩].

تلك هي نقطة البدء في دعوة خليل الرحمن، دعوة بالحسنى، مبتدئاً بأقرب الناس إليه، فإن لم يكن هناك تجاوب مع هذه الدعوة فالاعتزال لهذا الباطل وأصحابه عل في ذلك ردعاً وزجراً وتفكيراً في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم إذا كان لا بد له من مخالطتهم ومعاشرتهم وعدم تمكنه من الهجرة من أرضهم.

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام، مبيناً أنه أستخدم مع قومه كل حجة ودليل:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ

نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُنُّهَا عِزًّا ﴿٧٣﴾ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَ نَذْرًا ﴿٧٤﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا بَلَىٰ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٧﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٨﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ

[سورة الشعراء: ٧٠ - ٧٨].

ولما لم يجدوا حجة، وإنما هو التقليد الأعمى لفعل الآباء والأجداد، قال لهم إبراهيم عليه السلام: أنا عدو آلهم هذه، وهذا كما قال نوح عليه السلام فيما أخبر الله عنه بقوله:

فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ

[سورة يونس: ٧١].

وقال هود عليه السلام:

إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُ أَنَّ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُ بَرِيءٍ
جَمِيعًا تَلَا تُظْهِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَرَبِّكُمْ مَا
مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

[سورة هود: ٥٤ - ٥٦].

وقال تعالى:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَاءٌ وَأَمْنُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْبَىٰ بَدَأَيْنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ

[سورة الممتحنة: ٤].

وعقيدة إبراهيم عليه السلام هذه هي التي عبر عنها علماءنا الأجلاء
علماء سلف هذه الأمة بقولهم: لا موالاة إلا بالمعاداة. كما قال العلامة آبن
القيم رحمه الله:

(لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء
المحبين، أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ
فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلّة
إلا بتحقيق هذه المعاداة. فإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراء من كل
معبود سواه قال تعالى:

إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي
﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

(٩٣) انظر تفسير الآيات السابقة في ابن كثير: (ج ١٥٦/٦).

(أي جعل هذه الموالاة لله، والبراءة من كل معبود سواه، كلمة باقية في عَقِبِهِ يتوارثها الأنبياء بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورثها إمام الخنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة) (٩٤).

ويقول الإمام الطبري:

(قد كانت لكم يا أمة محمد أسوة حسنة في فعل إبراهيم والذين معه في هذه الأمور من مباينة الكفار، ومعاداتهم، وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم:

لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ

[سورة الممتحنة: ٤].

(فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك لأن ذلك كان من إبراهيم عن مودة وعدما إياه، قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، فتبرؤا من أعداء الله، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرؤا من عبادة ما سواه، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء) (٩٥).

وقد كان من نتيجة هذه المعادة وهذا البراء القوي أن أجمع الطغاة على قتل إبراهيم - كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله، لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده -

وَمَا نَقْصُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

[سورة البروج: ٨].

وجمعوا له ناراً عظيمة فكانت رعاية الله وحفظه تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام فصارت النار برداً وسلاماً عليه

(٩٤) «الجواب الكافي»: (ص ٢١٣)، ونظر «تفسير ابن مجاهد»: (ج ٧/٢١٢)،

و«مجموعة التوحيد»: (ص ١٣٣).

(٩٥) «تفسير الطبري»: (٦٢/٢٨).

قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ يُبَيِّنُ قَالِقُو
فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ قَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ

[سورة الصافات: ٩٧ - ٩٨].

(لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما أنقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفهم وطغيانهم فكادهم الرب جل جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى:

قَالُوا خَرِقُوهُ وَانْصُرُوا إِلَهُكُمْ إِن كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿٩٨﴾ قُلْنَا يَنْتَظِرُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٩٩﴾
وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ

[سورة الأنبياء: ٦٨ - ٧٠] (٩٦).

وتأتي التوجيهات الربانية لخاتم الأنبياء محمد ﷺ بآتباع ملة أبيه إبراهيم عليه السلام

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة النحل: ١٢٣].

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة آل عمران: ٩٥].

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

(٩٦) «قصص الأنبياء» للحافظ ابن كثير: (ج ١/ ١٨١)، وانظر تفاصيل القصة في نفس المصدر.

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة البقرة: ١٣٥].

إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة آل عمران: ٦٨].

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا

[سورة النساء: ١٢٥].

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ

[سورة الحج: ٧٨].

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ

[سورة البقرة: ١٣٠].

فهذه الأخبار من الله لأمة محمد ﷺ عن فعل إبراهيم عليه السلام
من أجل الاقتداء به في الإخلاص، والتوكل على الله وحده، وعبادة الله وحده
والبراء من الشرك وأهله ومعاداة الباطل وحزبه.

(ب) أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى :

كما سبق أن ذكرنا أن دعوة الأنبياء واحدة. دعوة لعبادة الله وحده
وإفراده بالدينونة والتأله والحب والرضى بحكمه وشرعه، والبراءة من كل
طاغوت معبود من دون الله سواء بالرغبة أو الرهبة

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

وَأَجْتَنِبُوا الزُّلْفُوتَ

[سورة النحل: ٣٦].

فإننا نجد أمثلة مشرقة ونماذج إيمانية رفيعة على طريق العقيدة الغراء.
إنهم المؤمنون، أينما وحشما كانوا وحلوا وفي أي عصر ومصر عاشوا.
يوردها ربنا تبارك وتعالى في محكم تنزيله، حتى تكون لنا أسوة حسنة.
وتسلية لرسوله الكريم ﷺ عما كان يلاقيه هو وصحابته الأخيار.

وما أحوج الداعية المسلم - وهو الحريص على حب الخير لكل الناس -
أن يتدبر هذه الأمثلة والنماذج الإيمانية فسيجد فيها العزاء والتسلية فيما يلاقيه
من مشقة وعنت. وإذا كانت هذه سنة الله في أنبيائه وعباده الصالحين أن
يتعرضوا للأذى والعنت - وهم أكرم خلق الله على الله - فمن باب أولى
أن يلاقي دعاة الهدى والخير صنوفاً شتى من الأذى والسخرية والاستهزاء
والعذاب وسيجدون معية الله تصحبهم وترعاهم وحفظه وقدره يحوطهم. وكل
ما يلقونه إنما هو آتلاء واختيار كما قال تعالى:

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

[سورة آل عمران: ١٧٩].

وحين يثبت المؤمنون على الحق، ويتوكلون على الله حق توكله، ويخافونه
وحده، ولا يخافون إلا الله، فسيكون هذا دافعاً عظيماً لدخول الناس في دين
الله، والاهتداء بهديه، والافتداء بهؤلاء الصادقين الذين ضحوا بكل غال
ونفيس، وزهدوا فيما عند الناس راغبين ومؤمنين فيما عند الله.

ومن هذه الأمثلة التي نريد الحديث عنها باختصار، نوح عليه الصلاة
والسلام فقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يؤمن معه إلا القليل،
والموقف الذي نريد أن نتحدث عنه من مواقفه عليه السلام هو موقفه مع

أَبْنَهُ الَّذِي عصاه وَأَبَى أَنْ يَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ أَبِيهِ. قَالَ تَعَالَى:

وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

فِي مَعْرِزٍ لِيَبْتَلِيَ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَتَدِينُنِي وَإِنَّ جِبْلِي بِمَعْصِفِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ الْمَغْرُوبِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَهُ
أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَنْتَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَنَزَّلْ
مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْهَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ

[سورة هود: ٤٢ - ٤٧].

(إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والغشيرة. وليست وشيجة اللون واللغة. ولا الجنس والعنصر، ولا الحرفة والطبقة إنها وشيجة العقيدة.

(أما الوشائج الأخرى فقد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد.

(ويبين الله لنوح لماذا لا يكون أبنه من أهله؟ ﴿إنه عمل غير صالح﴾ فوشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ إنه ليس من أهلك ولو كان هو أبنك من صلبك (٩٧).

(٩٧) «في ظلال القرآن»: (ج ٤/ ١٨٨٧).

وهنا يأتي الإذعان الكامل والخوف من الله سبحانه وطلب مرضاته ورحمته فيقول عبده الصالح نوح ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾.

لقد استعلى نبي الله على العاطفة ورضي بحكم الله، فلا حاجة ولا آتواء، ولا معذرة ولا تأويل، بل تسليم مطلق، وأتباع لما يحب الله ويرضى، وإعراض عما يكره ويغض، وولاء لمن يحب الله، وبراء وعداء لمن حادَّ الله ولو كان أقرب قريب.

ولم يكن شأن نبي الله نوح عليه السلام مقصوراً على هذا الابن الكافر، بل أيضاً مع زوجته، وبإله من امتحان عظيم في الزوجة والابن!

هذه الزوجة تحدث عنها القرآن وعن نظيرة لها وشبيهة بفعلها وهي زوجة لوط عليه السلام، فقد آتلي هذان النبيان بزوجتين فاسدتين ذكرهما الله لنا مثلاً في كتابه العزيز فقال:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِيْنَ

[سورة التحريم: ١٠].

على أن مما يجب التنويه عنه هنا - استطراداً - أن هذه الخيانة في الدين، وليست في الفاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء عليهم السلام.

أما امرأة نوح فكانت تفشي سره، إذا آمن معه أحد أخبرت الجبارة من قومها، وامرأة لوط تخبر قومها بضيوف زوجها من أجل فعل السوء القبيح^(٩٨).

(٩٨) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج ٨/ ١٩٨).

وعلى النقيض من هذا الفعل المشين من هاتين المرأتين يضرب لنا القرآن مثلاً عالياً في الإيمان والاستعلاء على الكفار من قبل امرأة مؤمنة هي زوجة فرعون اللعين قال تعالى:

رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

[سورة التحريم: ١١].

(إن هذه المرأة لم يصددها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة، وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به ﴿وننجني من فرعون وعمله﴾، وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم ﴿وننجني من القوم الظالمين﴾، إنه مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزمى صورته، فقد كانت امرأة فرعون، أعظم ملوك الأرض يومئذ!! في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي! لقد آستعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عنه فحسب، بل آعتبرته شراً وذنساً وبلاء تستعيز بالله منه.

(إنها امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية. وقفت وحدها في وسط ضغط المجتمع وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، ورفعت رأسها للسماء! إنه التجرد الكامل من كل هذه المؤثرات والأواصر) (٩٩).

إن وقوف هذه المرأة أمام ذلك الجبار من الأهمية بمكان، عل في ذلك ما يدفع تشييط الشيطان وحزبه لبعض دعاة الإسلام وهم يخافون أن يمسهم الناس بشيء لم يكتبه الله عليهم.

ألا فلنأخذ من قرآننا عبرة وعظة، وشحنة عمل، ومنهاج دنيا وآخرة حتى

(٩٩) (في ظلال القرآن: (ج ٦/٣٦٢٢) بتصرف.

نقوم بما كلفنا الله به وشرفنا بالانتساب إليه وهي الدعوة إلى الله.

يقول قتادة:

(كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده، فوالله ما ضر أمرته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه) (١٠٠).

وهناك أيضاً نموذج آخر، وعلم من أعلام دعاة صراط الله المستقيم. إنه مثل رفيع في الولاء لله ودينه وعباده الصالحين في النصر والجهاد بقدر الطاقة لإعلاء كلمة الله، والبراءة من الكفار بعد إقامة الحجة والبرهان عليهم، إنه مؤمن آل فرعون.

لننظر في موقفه وفي ولائه حين عزم الطاغية فرعون على قتل رسول الله موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. لقد قال مؤمن آل فرعون كما حكاه القرآن عنه:

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَلِيَنَّ بِكُمْ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ

[سورة غافر: ٢٨].

وآسم هذا الرجل حبيب النجار والمشهور أنه كان قبطياً من آل فرعون. وكان يكتُم إيمانه عن قومه القبط، ولم يظهره إلا هذا اليوم حين قال فرعون:
ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى

[سورة غافر: ٢٦].

(١٠٠) تفسير ابن كثير: (ج ٨/١٩٩).

فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل و «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»^(١٠١).

ولا أعظم من هذه الكلمة وهي قوله أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله^(١٠٢). فأنظر إلى ولاء هذا الرجل المؤمن لنبي الله موسى ونصرته له، وتدبر براءه من الطاغية حتى وهو يصب عليه العذاب.

وأخيراً نقف مع الفتية الصلحاء "أصحاب الكهف"، الذين تركوا الأهل والولد، والوطن والعشيرة؛ حين علموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة ومجابهة قومهم، فنجوا بأنفسهم إلى ذلك الكهف، الذي تجلت فيه معجزة عظيمة، يسوقها الله لنا عبرة وعظة في حفظه لعباده الصالحين.

قال تعالى:

إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَنْ نَدْعُو مِن دُونِهِ إِنَّهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُولا
قَوْمًا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ
بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذْ أَعْرَضُوا عَنْهُمْ وَمَا يَسْتَدُورُ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا

[سورة الكهف: ١٣ - ١٦].

(١٠١) أخرجه أبو داود: (ج٤/٥١٤، ح٤٣٤٤) في كتاب الملاحم، والترمذي: (ج٦/٣٣٨، ح٢١٧٥) في كتاب الفتن، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجه: (ج٢/١٣٢٩، ح٤٠١١) في الفتن، ومسنده أحمد: (ج٣/١٩)، والنسائي: (ج٧/١٦١) في البيعة، وقال الألباني: صحيح. انظر «المشكاة»: (ج٢/١٠٩٤).

(١٠٢) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج٧/١٣٠).

لقد كان موقف هؤلاء الفتية صريحاً وواضحاً وحاسماً. وحين تتباين الطريقان ويختلف المنهجان لا يعود هناك سبيل إلى الالتقاء ولا للمشاركة في الحياة. بل لابد من الفرار بالعقيدة.

إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل، إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجأهروا بها. وهم أيضاً لا يطبقون مداراة قومهم، وعبادة آلهتهم على سبيل آتقية وإخفاء عبادتهم لله. على أن الأرجح أن أمرهم قد كشف، فلا بد من الفرار بدينهم إلى الله. وقد فروا إلى كهف خشن ضيق، مؤثرين له على كل زينة من زينة الحياة الدنيا.

إنهم يستروحون رحمة الله ويحسونها ظليلاً فسيحة ممتدة ﴿ينشر﴾ لكم ربكم من رحمته ﴿﴾، ولفظه ﴿ينشر﴾ تلقي ظلال السعة والبحوحة والانفساح فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب، تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها.

إنه الإيمان! وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟

إن هنالك عالماً آخر في جنات القلب المعمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن عالماً تظله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان^(١٠٣).

وهكذا تتعد الأمثال في جميع الوشائج والروابط، وشيعة الأبوة في قصة نوح، وشيعة البنوة والوطن في قصة إبراهيم، وشيعة الأهل والعشيرة والوطن جميعاً في قصة أصحاب الكهف، ورابطة الزوجية في قصص أمراتي نوح ولوط وآمنة فرعون.

هكذا يمضي الموكب الكريم حتى تجيء الأمة الوسط، فتجد هذا الرصيد

(١٠٣) «الظلال»: (ج٤/٢٢٦٢) بتصرف بسيط.

من الأمثال والنماذج والتجارب، فتمضي على النهج الرباني للأمة المؤمنة وتفترق
العشيرة الواحدة والبيت الواحد حيث تفترق العقيدة.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

لقد جمعت هذه العقيدة صهيياً الرومي وبلالاً الحبشي، وسلمان الفارسي
وأبا بكر العربي القرشي تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتوارث
عصبة القبيلة والجنس والأرض وقال لهم ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»^(١٠٤).
وقال: «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية، وليس
منا من مات على عصبية»^(١٠٥) فأنتهى أمر هذا التنن، وماتت نكرة الجنس،
وآختفت لوثة القوم، وأستروح البشر أرج الآفاق العليا، ومنذ ذلك اليوم لم
يعد وطن المسلم هو الأرض وإنما وطنه هو "دار الإسلام"، تلك الدار التي
تسيطر عليها عقيدة، وتحكم فيها شريعة الله وحدها^(١٠٦).

وتبقى سيرة المصطفى ﷺ وسيرة صحابته الأخيار منار هدى وإصلاح
لن سلك ذلك السبيل، ورضي بذلك النهج القويم.

أما من حاد عن ذلك وابتعد فالله ليس بولي، وإنما وليه "الطاغوت"

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٧].

-
- (١٠٤) «صحيح البخاري»: (ج ٨/٦٤٨، ح ٤٠٩٥) كتاب التفسير، وصحيح
مسلم: (ج ٤/١٩٩٩، ح ٢٥٨٤) كتاب البر والصلة.
(١٠٥) «صحيح مسلم»: (ج ٣/١٤٧٦، ح ١٨٤٨، وح ١٨٥٠) كتاب الإمارة، وأبو
داود: (ج ٥/٣٤٢، ح ٥١٢١) كتاب الأدب.
(١٠٦) انظر «معالم في الطريق»: (ص ١٤٣).

الفصل الخامس

الولاء والبراء في العهد المكي

كان الحديث في الفصل السابق عن أمثلة مشرقة، وصور مضيئة من ولاء وبراء الأنبياء والرسل، والصالحين عبر تاريخ البشرية الطويل. ونتحدث هنا عن الولاء والبراء من خلال سيرة نبينا محمد ﷺ، مستمدين ذلك من الوحيين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكتب السير والمغازي.

وقد اعتمدنا في تقسيم الآيات إلى مكّي ومدني، على ما ذكره العلماء في كتب التفسير وعلوم القرآن من أن المكّي - على الأشهر - هو ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها^(١٠٧).

وسبق أن قلنا في التمهيد: أن المسلم منذ أن يعلن شهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" فإن ذلك يعني أفراد الله سبحانه وتعالى بالوحدانية والألوهية والربوبية، وخلع كل ولاء وعبودية وطاعة وخضوع وخوف ورجاء لأي معبود أو متبوع أو مطاع من دون الله. وقصر هذا الولاء والحب والتعظيم لله سبحانه وتعالى.

وقد نزل الوحي الإلهي أول ما نزل على المصطفى ﷺ في غار حراء بقوله سبحانه:

(١٠٧) انظر «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي: (ج ١/ ٣٧) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

[سورة العلق: ١ - ٥].

ثم بعد ذلك قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ

[سورة المدثر: ١ - ٢].

وبدأ المصطفى ﷺ يدعو الناس سرّاً إلى الإسلام، وأسلم معه نفر قليل، منهم أبو بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب، وخديجة بنت خويلد زوجته رضي الله عنهم جميعاً. وبدأ رسول الله ﷺ يفرس في نفوس أصحابه محبة الله ومحبة رسوله، والاجتماع على ذلك، وإخلاص الحب والولاء والنصرة للمؤمنين، وبُغض الكفر والشرك وأهله، وهذا هو لازم كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وهنا نشأت الوشيجة الجديدة، وشيجة العقيدة في نفوس المؤمنين، وبدأ يقر في نفوسهم أن هذه هي الرابطة الحقيقية، هي الرابطة التي تطمئن لها نفس المؤمن، ومع نمو هذه الغرسة الجديدة؛ بدأت تذبل شجرة العصبية الجاهلية، والروابط الجاهلية، وبدأت نظرة الريب والاحتقار لتلك الروابط تكبر يوماً فيوماً في نفس كل من آمن بالله ورسوله.

الملتقى الأول وأولى خطوات الطريق

آختر المصطفى ﷺ دار الأرقم لتلقيين من آمن معه أمور هذا الدين. ولقد كانت هذه الدار هي الملتقى الأول لأولئك القادة العظام، كانت هي الدار التي بدأ يشع منها ذكر الله وتوحيده في الأرض.

ترى ما هو حال المسلمين آنذاك؟ وماذا بعد النطق بالشهادتين؟

يجيب على ذلك الأستاذ سيد قطب رحمه الله فيقول:

(إنه لم يكن للإسلام والمسلمين في مكة شريعة ولا دولة، ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية، ويمنحون ولائهم من فورهم للعصبة المسلمة. وكان الرجل حين يدخل الإسلام يخلع على عتبه كل ماضيه في الجاهلية، ويبدأ عهداً جديداً، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. إنه يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف.

(لقد كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، ونشأت عن هذه العزلة، عزلة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية أيضاً.

(إنه قد انفصل نهائياً من بيئة الجاهلية، وأتصل نهائياً ببيئته الإسلامية، حتى لو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي.

فالعزلة الشعورية شيء، والتعامل اليومي شيء آخر.

(وحين أنخلع المسلم من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور

الجاهلية إلى تصور الإسلام، فإنه أيضاً كان ينسلخ من القيادة الجاهلية، وينزع ولاءه من الأسرة والعشيرة والقبيلة، وترجم ذلك إلى واقع وحقيقة يقوم عليها الإسلام. وهذا هو الذي أزعج "الملأ" من قريش!

(أزعجهم زحف الإسلام، وأزعجهم القرآن، ولم يزعجهم من قبل أن "الحنفاء" اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم، وأعتقدوا بالوهمية الله وحده، وقدموا له الشعائر وحده فهذا لا يهم الطاغوت، كما يفهم بعض الطيبين الخيرين اليوم الذين لا يدركون ولا يعرفون حقيقة الإسلام.

(إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين، ثم الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه. والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع، ولذلك قاوم "الملأ" من قريش هذه الدعوة بشتى الأساليب) (١٠٨)، والتقى المؤمنون على حب الله ورسوله، فكان لقاءً عميقاً لأن كلاً منهم جاء إلى الله ورسوله يتلقى منه، ويهتدي بهديه، ويتوجه إليه، وأحس كل منهم نحو أخيه برباط من نوع جديد، يربطه بأخوته في الله، إنه يحبه كنفسه مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آصرة دم (١٠٩).

وأخذ القرآن الكريم ينزل حسب التوازل والحوادث على ما يشاء الله سبحانه وتعالى لتربية الأمة على أسس العقيدة، فكان الولاء والبراء يزيد كلما ازدادت التكاليف. وكان من الطرق التي سلكها القرآن في عرض هذه العقيدة ضرب المثل، لأنه كما يقال: بالمثال يتضح المقال. ومعلوم أن كلام الله واضح ولكن سياق المثل يستثير في الإنسان نوعاً من التفكير وتدبر العبرة والعظة لتغيير المسار الخاطيء والاتجاه في الطريق الصحيح.

(١٠٨) (في ظلال القرآن: (ج٣/١٥٠٣)، ومعالم في الطريق: (ص١٧، ٥٠).

(١٠٩) انظر "منهج التربية الإسلامية" للأستاذ محمد قطب: (ج٢/٣٨ - ٤٠).

ومن هذه الأمثلة في موضوعنا قوله تعالى:

مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ
الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ
الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

[سورة العنكبوت: ٤١].

وبتقرير هذه الحقيقة الضخمة في النفوس؛ كان المؤمنون أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقهم، وداسوا بها على كبرياء الجبابرة في الأرض، ودكوا بها المعازل والحصون.. إن قوة الله وحدها هي القوة، والولاية الله وحدها هي الولاية وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل، مهما علا وآستطال، ومهما تجبر وطفى ومهما ملك من وسائل البطش والطفيان والتشكيل^(١١٠).

ومكث المصطفى ﷺ في دعوته للناس بالسر ثلاث سنوات، كما قال ذلك علماء السير والمغازي^(١١١).

وبعد أن فشا ذكر الإسلام في مكة، وتحدث الناس به أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يادى الناس بأمره، وأن يدعو إليه ونزل قوله تعالى:

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ

[سورة الحجر: ٩٤].

وقال الله له: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٩٥﴾ وَخُفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة الشعراء: ٢١٤ - ٢١٥].

(١١٠) انظر «في ظلال القرآن»: (ج ٥/٢٧٣٧).

(١١١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام: (ج ١/٢٨٠).

(١١٢) المصدر السابق: (ج ١/٢٨٠).

وهنا بدأ الابتلاء للمسلمين، وهذا الابتلاء الذي ظاهره الشدة هو في حقيقته نعمة، لأنه يتضح من خلاله: الصادق من الكاذب، والخبيث من الطيب. قال تعالى:

الْمَرْءُ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا: آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ

[سورة العنكبوت: ١ - ٣].

وحدث لأصحاب رسول الله ﷺ من الابتلاء والشدة الشيء الكثير، حتى إنهم كانوا يذهبون للشعاب يستخفون بصلاتهم عن قومهم^(١١٣).

صدق التحمل

ماذا فعل المؤمنون تجاه العذاب الذي صبه عليهم أعداء الله؟ ما الذي حصل من ما فعل بهم عامة، وما فعل ببلال وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين خاصة؟

إنه الصبر على الأذى والهجر الجميل. قال تعالى:

وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِطْهُمْ هَبْرًا جَبِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا

[سورة المزمل: ١٠ - ١١].

وصبر المصطفى ﷺ وكانت تربيته الربانية كفيلة بتنطهير نفوس المؤمنين معه، فكانوا كل يوم يزداودن من سمو الروح ونقاء القلب ونظافة الخلق والتحرر من سلطان الماديات والشهوات شيئاً كثيراً.

(١١٣) المصدر السابق: (ج ١/٢٨٢).

(كان ﷺ يأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل، وقهر النفس مع أنهم قوم قد رضعوا حب الحرب، وكأنهم ولدوا مع السيف، وهم أمة من أيامها حرب البسوس وداحس والغبراء. وما يوم الفجار بعيد!!

ولكن رسول الله ﷺ قهر طبيعتهم الحربية، وكبح نخوتهم العربية فأنقهروا لأمره، وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس، في غير جبن وفي غير عجز (١١٤). هذا بالنسبة لموقف المسلمين من أعدائهم.

أما ولاؤهم فيما بينهم، فنقول: إن المصطفى ﷺ قد حرص على غرس ركيزتين أساسيتين في نفوسهم هما:

(١) الإيمان بالله، ذلك الإيمان المنبثق من معرفته سبحانه، وتمثل صفاته في الضمائر، وتقواه، ومراقبته، مع اليقظة والحساسية التي بلغت في نفوسهم حداً غير معهود إلا في النادر من الأحوال.

(٢) الحب الفياض، والتكافل الجاد العميق، حيث بلغت فيه الجماعة المسلمة مبلغاً لولا أنه وقع بالفعل لعد من أحلام الحالين (١١٥).

إن نقطة الحب في الله التي آلتقى عليها هؤلاء المؤمنون، كانت أيضاً لقاء على ما يتبع هذه الدعوة من جهد أو غم، وما يستتبع ذلك من ألم أو سرور وجعل العاطفة الإنسانية تحب وتبغض تبعاً لما يصيب الإسلام من خير أو شر (١١٦).

ولكي يكون لهذا الكلام ما يدعمه من الدليل، وحتى نعلم ما هي نتائج تربية "دار الأرقم"، أذكر موقفاً واحداً لصديق هذه الأمة، أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(١١٤) «ماذا خسر العالم باخطاط المسلمين» لابي الحسن الندوي: (ص٩٧) بتصرف.

(١١٥) انظر «طريق الدعوة في ظلال القرآن»: (ج١/١٨٨).

(١١٦) انظر «هذا ديننا» للشيخ محمد الغزالي: (ص١٧٨).

وُطِيَءُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَكَّةَ يَوْمًا بَعْدَ مَا أُسْلِمَ، وَضُرِبَ ضَرْبًا شَدِيدًا، وَدَنَا مِنْهُ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِنَعْلَيْنِ مَخْصُوفَيْنِ، وَيَحْرِفُهُمَا لَوَجْهِهِ، ثُمَّ نَزَا عَلَى بَطْنِ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَا يَعْرِفُ وَجْهَهُ مِنْ أَنْفِهِ، وَحَمَلَتْ بَنُو تَيْمٍ أَبَا بَكْرٍ فِي ثَوْبٍ حَتَّى أُدْخِلُوهُ مَنْزِلَهُ، وَلَا يَشْكُونَ فِي مَوْتِهِ، فَتَكَلَّمَ آخِرَ النَّهَارِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَمَسُوا مِنْهُ بِالْأَسْتِثْمِ وَعَذَلُوهُ، ثُمَّ قَامُوا، وَقَالُوا لَأُمِّهِ أُمُّ الْخَيْرِ: أَنْظِرِي أَنْ تَطْعَمِيهِ شَيْئًا أَوْ تَسْقِيهِ إِيَّاهُ، فَلَمَّا خَلَتْ بِهِ الْأَحْتِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ يَقُولُ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِي عِلْمٌ بِصَاحِبِكَ فَقَالَ: أَذْهَبِي إِلَى أُمِّ جَمِيلَ بِنْتِ الْخَطَّابِ فَاسْأَلِيهَا عَنْهُ، فَخَرَجَتْ حَتَّى جَاءَتْ أُمَّ جَمِيلَ فَقَالَتْ: إِنْ أَبَا بَكْرٍ يَسْأَلُكَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ: مَا أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ وَلَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ تَحْبِينُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَكَ إِلَى أَبْنِكَ ذَهَبْتَ قَالَتْ: نَعَمْ فَمَضَتْ مَعَهَا حَتَّى وَجَدَتْ أَبَا بَكْرٍ صَرِيحًا دَفْنًا، فَدَنَتْ أُمَّ جَمِيلَ وَأَعْلَنْتْ بِالصِّيَاحِ وَقَالَتْ: وَاللَّهِ إِنْ قَوْمًا نَالُوا مِنْكَ هَذَا لِأَهْلِ فَسَقٍ وَكَفَرٍ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَنْتَقِمَ اللَّهُ لَكَ مِنْهُمْ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: هَذِهِ أُمُّكَ تَسْمَعُ!! قَالَ: فَلَا شَيْءَ عَلَيْكَ مِنْهَا، قَالَتْ: سَالِمٌ صَالِحٌ، قَالَ: أَيْنَ هُوَ؟ قَالَتْ: فِي دَارِ أَبِي الْأَرْقَمِ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ أَنْ لَا أَذُوقَ طَعَامًا وَلَا أَشْرِبَ شَرَابًا أَوْ آتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَمْهَلْتَا حَتَّى إِذَا هَدَّاتِ الرَّجُلَ وَسَكَنَ النَّاسُ خَرَجْتَا بِهِ يَتَكَيَّ عَلَيْهِمَا حَتَّى أُدْخِلْتَاهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١١٧).

يَا اللَّهُ! رَجُلٌ مَضْرُوبٌ، مَشْخَنٌ بِالْجِرَاحِ لَا يَتَنَاوَلُ حَتَّى شَرِبَ الْمَاءَ وَهُوَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ حَاجَةً إِلَيْهَا حَتَّى يَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ!؟
حَقًّا إِنَّهَا تَرْيِيَةٌ دُونَهَا كُلُّ تَرْيِيَةٍ. وَحَقًّا نَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ الْجَبِيلَ الَّذِي رَبَّاهُ الْمُصْطَفَى ﷺ جَبِيلٌ فَرِيدٌ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ وَلَا لَاحِقٍ.

(١١٧) «البداية والنهاية» لابن كثير: (ج ٣/ ٣٠)، وانظر «ماذا خسر العالم» للندوي: (ص ١١٣).

سمات العلاقة بين المسلمين وأعدائهم في العهد المكي

إن المرحلة المكيّة كانت تقتضي أن تكون العلاقة بين المسلمين والمشرّكين علاقة غير قتالية، علاقة بيان للحق، وصبر على الأذى فيه، واحتساب لكل ما عرفته رباع مكّة ورمضاؤها والطائف وفجاجها من أذى للمصطفى ﷺ وعذاب وأضطهاد لبلال وعمار وخباب وآل ياسر وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

ذلك أن ظروف تلك المرحلة كانت تقتضي اتخاذ الأساليب السلمية، وعرض الحقائق الإيمانية عرضاً مؤثراً، عله يكون في هذا وفيما أبداه المؤمنون الصابرون من تحمل وصبر، ما يرجع لأهل اللب صوابهم، وما أجدر ذلك باستجابة القوم لولا أتباع الهوى وسلطان المصالح الزائلة من زعامة ووجاهة ومكاسب مادية، وما إلى ذلك^(١١٨).

والتربية النبوية في هذا العهد ذات شأن عظيم ذلك أنها كانت تربية تقوم على ضبط النفس، والصبر على الأذى، وإعداد العدة مع حبس دواعي الانطلاق، وكف حدة الإقدام، واحتمال جهل الجاهلين وبغي الطاغين. وكل ذلك من غير ذل ولا استخذاء، ولا يأس ولا وهن، بل إن عيونهم قريرة وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ونفوسهم مستعلية على شرك المشرّكين وضلالهم وفتنتهم^(١١٩).

(١١٨) انظر «علاقة الأمة المسلمة بالأُمم الأخرى» للأستاذ أحمد محمود أحمد: (ص ٨ - ٩).

(١١٩) «سبيل الدعوة الإسلامية» للدكتور محمد أمين المصري: (ص ١١١، ١١٣) بتصرف.

ومن المهم في هذا الموضوع أن نلاحظ الحكمة الربانية في عدم فرضية القتال في مكة، فإنه إنما شرع في العهد المدني، أما حين كان المسلمون في مكة فقد كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقيين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي - يعنون أهل منى - ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر بهذا» (١٢٠).

ونحن حين نلتمس الحكمة في هذه الحالة وفي غيرها من التكليف الشرعية - كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله - لا نجزم بما نتوصل إليه، لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة. ونفرض أسباباً وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك أن شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم من أحكام الشريعة هو التسليم المطلق لأن الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنما نقول هذه الحكمة والأسباب من باب الاجتهاد وعلى أنه مجرد احتمال لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح (١٢١).

وهذه الأسباب والعلل ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابيه القيمين: «في ظلال القرآن» عند تفسير سورة النساء، وفي «معالم الطريق» (١٢٢).

(١٢٠) «تفسير ابن كثير»: (ج ٥/٤٣١)، والحديث في «مسند أحمد»: (ج ٣/٤٦٢)، في سنده معبد بن كعب بن مالك، قال عنه ابن حجر في «التقريب»: مقبول. وذكر في «التهذيب» أن له حديثاً واحداً في «صحيح البخاري»، وأخرج له مسلم. ووثقه ابن حبان.

(١٢١) انظر «الظلال»: (ج ٢/٧١٤).

(١٢٢) «الظلال»: (ج ٢/٧١٤ - ٧١٥)، وفي «المعالم»: (ص ٦٩ - ٧١).

وسأجزها فيما يلي:

(١) إن الكف عن القتال في مكة ربما كان لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع عليه أو على من يلوذون به: ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يحتاج لأول مهيج ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته. ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد والتقيّد بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعاداته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء "المجتمع المسلم".

(٢) وربما كان ذلك أيضاً لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد ونشأة ثارات دموية جديدة كثرات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، وحيث يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها فكرته الأساسية.

(٣) وربما كان ذلك أيضاً اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد. ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قبلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمداً يفرق بين الوالد وولده فوق تفرقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟

(٤) وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قاداته. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟

(٥) وربما كان ذلك أيضاً لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عاداتها أن تثور للمظلوم الذي يحتفل الأذى، ولا يتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة - فأبن الدغنة^(١٢٣) لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته.. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

(٦) وربما كان ذلك أيضاً لقلة عدد المسلمين حينذاك وأنحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وآخر.

(٧) إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع الأذى، لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائماً ومحققاً وهو "وجود الدعوة" ووجودها في شخص الداعية

(١٢٣) ابن الدغنة رجل جاهلي أجاز أبي بكر عندما أخرجه قومه وأراد الهجرة للحبشة. انظر «الإصابة»: (ج ٢/٣٤٤).

محمد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع. ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله، بل إنهم حين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيها لم يكف، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن سب دين آبائهم وأجدادهم لم يسكت، وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا، أن يجاملهم فيجاملوه، بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا بعض عبادته لم يدهن.

إن هذه الاعتبارات كلها - فيما نحسب - كانت بعض ما اقتضت حكمة الله - معه - أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لتم تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ.. لتكون خالصة لله، وفي سبيل الله. انتهى ملخصاً من «الظلال».

والناظر في الفترة المكيّة والتي كانت ثلاثة عشر عاماً كلها تربية وإعداد وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن في عدم الاستعجال وأستباق الزمن، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب. وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ﷺ لأصحابه على هذه العقيدة وقفة طويلة، فيأخذوا منها العبرة والأسوة، لأنه لا يقف في وجه الجاهلية - أيما كانت قديمة أم حديثة أم مستقبلية - إلا رجال آختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربانية، وعمقت جذور شجرة لا إله إلا الله في نفوسهم، فيصدق عليهم حيثذ أنهم:

رَبَّالَّذِينَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ

[سورة الأحزاب: ٢٣].

لا تهمهم قوة عدو، ولا تنقصهم عزيمة باسل لأن الله هو وليهم وناصرهم،

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

[سورة الحج: ٤٠].

قال ابن إسحاق:

(لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ثم من عمه أبي طالب، وإنه لا يقدر على أن يمنعه مما هم فيه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام^(١٢٤).

ثم إن لطف الله ورحمته غمرت المؤمنين المستضعفين وذلك بإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أعز الله به الإسلام، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه»^(١٢٥). إنها نعمة كبرى تجلت في إسلام عمر، الذي منح ولاءه ونصرته المسلمين، وصير بغضه وعداوته وبراءه للكافرين، كيف لا وهو الذي أشتبك مع القوم بعد إسلامه ثم قال: «أفعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن قد كنا ثلاث مئة رجل لقد تركناها - أي مكة - لكم أو تركتموها لنا»^(١٢٦).

وسمع المؤمنون بإسلام عمر رضي الله عنه وهم في الحبشة ففرحوا

(١٢٤) «السورة لابن هشام: (ج ١/٣٤٤).

(١٢٥) «السورة لابن هشام: (ج ١/٣٦٧)، وفي «صحيح البخاري»: (ج ١/٤١)، ح ٣٦٨ مناقب عمر، عن ابن مسعود رضي الله عنه: «مازلنا أعز منذ أسلم عمر».

(١٢٦) «السورة لابن هشام: (ج ١/٣٧٤).

بذلك ورجع منهم من رجع إلى مكة، ولكن قريشاً صبت عليهم ألواناً من العذاب والاضطهاد فلم يزددهم ذلك إلا صلابة في العود وثباتاً على الحق وأملأ في فرج من الله قريب.

ثم تعرض رسول الله ﷺ ومن معه لدرس آخر من دروس الابتلاء التي هي من سنن الدعوة إلى الله: ذلك الدرس هو موت أبي طالب عم رسول الله الذي كان مناصراً له وحامياً. وموت زوجة رسول الله خديجة رضي الله عنها أول امرأة أسلمت، وكانت مثلاً للمرأة المسلمة الصالحة، وهنا يطمع أعداء الله في رسول الله ﷺ، ولكن الله أكبر من كل شيء ثم رأى المصطفى ﷺ أن يتجه إلى غير قريش عسى أن يجد مجيئاً وناصراً فخرج إلى الطائف، ولكن ثقيفاً خيبت أمله وآذته وسخرت منهم، فأتجه إلى ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، إن يحل علي غضبك أو إن ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» (١٢٧).

ثم رجع إلى مكة.

وعلى الدعاة أن يقفوا طويلاً عند قول المصطفى ﷺ: «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي» فإن هم الداعية المسلم هو رضاء الله وكفى. ثم بعد ذلك ليكن ما يكون من أمر الناس فإن ذلك ليس له كبير حساب طالما أن الغاية هي رضاء الله.

(١٢٧) «السيرة لابن هشام: (ج ٢/٦٠)، والحديث أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد: (ج ٦/٣٥) ونسبه للطبراني وقال: (فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجال ثقات) وحكم عليه الألباني في «تخريج فقه السيرة» للغزالي: (ص ١٣٢) بالضعف. ولكن ألفاظ الحديث ينقدح منها «نور مشكاة النبوة».

بِرُّ الْأَقَارِبِ الْمَشْرُكِينَ

ومن خلال تتبع القرآن المكي نجد أنه رغم قطع الولاء سواء في الحب أو النصرة بين المسلم وأقاربه الكفار فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم والإحسان إليهم ومع ذلك فلا ولاء بينهم.

قال تعالى:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِرَّأَيْتِهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كَذَّابُونَ

[سورة العنكبوت: ٨].

قال البغوي: إن هذه الآية وآية ١٥ من سورة لقمان وهي قوله تعالى:

وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَأُتِيَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تُغْرَايَ مَرْجِعُكُمْ فَأَنْتُمْ كَذَّابُونَ

نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه حمنة بنت أبي سفيان، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام، وكان باراً بأمه.

قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلي ما كنت عليه، أو أموت فتعير بذلك أهد الدهر، يقال: يا قاتل أمه. ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل، فأصبحت قد جهدت ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أمه: لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني، فكلي

وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيسست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر بوالديه، والإحسان إليهما، وعدم طاعتها في الشرك لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١٢٨).

لذلك فالولاء لله ودينه والمؤمنين شيء لا طاعة لمخلوق في مخالفته، وبر القريب المشرك شيء. قد يكون من باب تأليفه وترغيبه في الإسلام.

(١٢٨) «تفسير البغوي»: (ج ٥/١٨٨)، وانظر «أسباب النزول» للواحدي: (ص ١٩٥)، فقد ذكر نحو هذا والحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» حديث صحيح انظر «مشكاة المصابيح»: (ج ٢/١٠٩٢، ح ٣٦٩٦).

كيف كانت صورة البراء في العهد المكي؟

(١) إن المسلم من حين أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وهو يحس بأنه قد دخل في دين جديد غير دين آباءه وأجداده، إنه (يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام. وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام الجديد.. ويمكننا أن نسمي هذا بـ "العزلة الشعورية" فالمسلم قد آنخلع من البيئة الجاهلية، وعرفها وتصورها وعاداتها وروابطها. وآنخلع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود، وأنضم إلى التجمع الإسلامي الجديد بقيادته الجديدة. ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وطاعته وحبه وتبعيته (١٢٩).

(٢) بعد ذلك جاء الأمر بالإعراض عن الكفار:

فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ آلَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى

[سورة النجم: ٢٩ - ٣٠].

(٣) وجاء الأمر أيضاً بالصبر والهجر الجميل قال تعالى:

(١٢٩) «معالم في الطريق»: (ص ١٦ - ١٧) يتصرف بسيط.

وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِزْهُمْ هَزْجًا جِيلًا

[سورة المزمل: ١٠].

فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ

[سورة الروم: ٦٠].

ثم يُذكر الله سبحانه المؤمنين بفعل أبيهم إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ليأخذوا منه أسوة وقلوة فيقول سبحانه:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَافِيَةً فِي عَقِبِهِ ۚ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

(٤) وإلى جانب هذا التذكير الرباني، يضرب أيضاً المثل المحسوس والملموس في حياة الناس لمن يوزع ولاءه بين أرباب متفرقة، ومن يكون ولاؤه لرب واحد، واتجاه واحد.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة الزمر: ٢٩].

فقد وضع الله في هذا المثال القرآني حال المشرك الذي لا يؤمن بالله ولا يكون ولاؤه وجهه الله وفي الله بحال العبد الذي تملكه جماعة مشتركين في خدمته لهم لا يمكنه إرضائهم أجمعين، وحال الموحد الذي يعبد الله وحده ويوالي في الله وحده، مثله كمثل عبد لمالك واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم

لمالكه من غير منازع فيه، مع رافة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليته بمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ لا. إنهما لا يستويات ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (١٣٠).

وعلى طريقة القرآن في آهنامه بقضية اليوم الآخر لما لها من أثر عظيم في قضية الإيمان: نجد القرآن الكريم يسوق مشهداً من مشاهد يوم القيامة لمن يكون ولاؤه لغير الله، وكيف أنقلب هذا الولاء إلى عداو وبغضاء. ثم كيف أصبحت الحلقة عداوة وشحناء.

قال تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَأَيْنَا الَّذِي أَعْصَىٰ أَمْرًا مِّنَ الْأَمْرِ أَن يَأْتِيَ بِنُجْمَةٍ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَأَيْنَا الَّذِي أَعْصَىٰ أَمْرًا مِّنَ الْأَمْرِ أَن يَأْتِيَ بِنُجْمَةٍ

[سورة فصلت: ٢٩].

وقال:

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ

[سورة الزخرف: ٦٧].

وقال:

وَيَوْمَ يَعْصِيُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يٰٓأَيُّهَا الَّذِي كُنْتَ تَقُولُ أَنَّا نَعْبُدُكَ فَقُلْ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ
فَلَنَأْخُذَنَّ بِالَّذِي أَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُتَّبِعِينَ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا

[سورة الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

(٥) ثم جاء التصريح الكامل لأعداء الله بأن دينكم باطل لا ندخل فيه، وديننا

(١٣٠) «أمثال القرآن» لابن القيم: (مر ٥٣) بتصرف بسيط، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ، تحقيق الدكتور ناصر الرشيد، الناشر: دار مكة.

هو الحق الذي ندين الله به، فلا نعبد ما تعبدون، ولا انتم عابدون ما نعبد.

لكم دينكم ولي دين

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين وأستعلاءهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم ورعونتهم الحمقاء.

فقد دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة فأنزل الله سورة الكافرون:

قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ ❶ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❷
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❸ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ❹
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❺ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ❻

[سورة الكافرون: ١ - ٦] (١٣١).

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر وأهله مثل قوله تعالى:

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة يونس: ٤١].

وقوله تعالى:

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْعُمُ

(١٣١) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج ٨/٥٢٧).

أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
 قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِيَ مَا
 تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ

[سورة الأنعام: ٥٦ - ٥٧].

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ
 تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَفَّنَا وَأَمُرُّ
 أَنَا أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَن أَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
 وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة يونس: ١٠٤ - ١٠٥].

بهذه النصاعة وهذا الوضوح جاءت هذه الآيات الكريمات لترسم معالم
 الطريق بين الصف الإسلام والصف الكافر المشرك الذي لا يؤمن بالله ورسوله.
 ومع هذا الوضوح القرآني نجد أن بعض المتسبين للعلم قد فهم من هذه الآيات
 - وخاصة سورة الكافرون - إنها إقرار من رسول الله ﷺ للكفار على دينهم
 الباطل وهذا زعم باطل. يخالف لحقيقة الإسلام، ودعوة رسول الإسلام.
 ومضاد لدعوة الرسل جميعاً.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله:

(إن هذه السورة - سورة الكافرون - تشتمل على النفي المحض وهذه
 خاصية هذه السورة، فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها (١٣٢)

(١٣٢) مسنن أبي داود: (ج ٣/٥، ح ٥٠٥٥) في الأدب، والترمذي: (ج ٩/١١٠،
 ح ٣٤٠٠) في الدعوات، ومسند الإمام أحمد: (ج ٥/٤٥٦)، والدارمي:
 (ج ٢/٤٥٨) في فضائل القرآن، وقال الألباني: حديث حسن. انظر صحيح
 الجامع الصغير: (ج ١/١٤٠، ح ٢٨٩).

(ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة. مع تضمنها للإثبات بأن له معبوداً يعبدّه وأنتم بريئون من عبادته، وهذا يطابق قول إمام الحنفاء ﴿إني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧] فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله.

(ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة الإخلاص في سنة الفجر (١٣٣) وسنة المغرب (١٣٤) وحين أخبر الله أن لهم دينهم وله دينه: هل هو إقرار فيكون منسوخاً أو مخصوصاً؟ أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص؟

(هذه مسألة شريفة من أهم المسائل، وقد غلط في السورة خلأق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية آقتضت التقرير لهم على دينهم! وظن آخرون: أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب!

وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي آتفت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.

(وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى أيضاً سورة الإخلاص. ومنشأ الغلط: ظنهم أن الآية آقتضت إقرارهم على دينهم. ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا: منسوخة!!

وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم فقالوا هذا مخصوص! ومعاذ الله أن تكون الآية آقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً. بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشدّه عليه وعلى أصحابه

(١٣٣) صحيح مسلم بشرح النووي: (ج٥/٦)، والمسند: (ج٢٢٥/٤) بطبع الساعاتي.

(١٣٤) مشكاة المصابيح: (ج٢٦٨/١)، وانظر بدائع الفوائد: (ج١٣٨/١).

أشد على الإنكار عليهم، وعيب دينهم وتقييحه، والنهي عنه، والتهديد والتوعيد في كل وقت وفي كل ناد. فكيف يقال إن الآية، آتت تقريراً لهم؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل.

وإنما الآية آتت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً، فإنه دين باطل فهو مختص بكم لا نشارككم فيه، ولا أنتم تشاركونا في ديننا الحق.

فهذه غاية البراءة والتصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يُدعى النسخ أو التخصيص؟!

أفترى إذا جاهدوا بالسيف كما جاهدوا بالحجة لا يصح أن يقال: لكم دينكم ولي دين؟

بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يظهر الله منهم عباده وبلاده. وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول ﷺ أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سنته إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته لكم دينكم ولنا ديننا لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منها. وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان^(١٣٥).

وزاد هذا الأمر إيضاحاً وبياناً: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: (قوله تعالى ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ اللام في لغة العرب يدل على الاختصاص فأنتم مختصون بدينكم لا أشركم فيه، وأنا مختص بديني لا تشاركوني فيه كما قال تعالى:

(١٣٥) (بدائع الفوائد: (ج ١/ ١٣٨ - ١٤١) بتصرف بسيط.

لِيَعْمَلِ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْقُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْقٌ
مِمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة يونس: ٤١].

وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين، ولا أهل الكتاب، كما يظنه بعض الملحدين، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين، وجعلوها منسوخة. بل فيها براءته من دينهم، وبرأتهم من دينه، وأنه لا تضره أعمالهم، ولا يجوزون بعمله ولا ينفعهم. وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ، ولم يرض الرسول بدين المشركين، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط.
ومن زعم أنه رضي الله بدين الكفار، وأحتج بقوله تعالى:

قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

[سورة الكافرون: ١ - ٦].

فظن هذا الملحد أن قوله ﴿لَكُمْ دينكم ولي دين﴾ معناه أنه رضي بدين الكفار، ثم قال هذه الآية منسوخة فيكون قد رضي بدين الكفار، فهذا من أبين الكذاب والافتراء على محمد ﷺ، فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه.. ونظير هذه الآية قوله تعالى:

وَلَا تَكْذِبُوا قُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْقُونَ مِمَّا
أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْقٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة يونس: ٤١].

وقوله تعالى:

فَلِذَلِكَ فَادَعُْ وَأَسْتَعِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ

[سورة الشورى: ١٥].

وإذا كان الله سبحانه قد قال:

وَلَا تَخْضَرُ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي
بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة الشعراء: ٢١٥ - ٢٠٦].

فبراه من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين، فكيف لا يبرئه من كفر
الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة؟ (١٣٦).

ورحم الله عبد الله بن عباس حين قال في شأن هذه السورة «ليس في
القرآن أشد غيظاً لإبليس منها، لأنها توحيد وبراءة من الشرك» (١٣٧) وقال
الأصمعي: كان يقال لـ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾
المقشقتان. أي أنهما تبرئان من النفاق (١٣٨).

فرج من الله قريب

قال ابن إسحاق: «فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ،
وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه نفر
من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم،
فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، فقال لهم

(١٣٦) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لابن تيمية: (ج ٢/ ٣٠ - ٣٢).

(١٣٧) «تفسير القرطبي»: (٢٢٥/ ٢٠).

(١٣٨) «تفسير القرطبي»: (٢٢٥/ ٢٠).

ﷺ من أنتم؟ قالوا: نفر من الخرج قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.. فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعوههم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ (١٣٩).

أجل: بعد كل ذلك العناء وتلك المصابرة هيا الله اللطيف الخبير من ينصر هذا الدين ويعلي كلمته، وينشره في الأرض بعد أن آوى رسول الله وأصحابه الأوائل. إنه لشرف دونه كل شرف أن يُسموا "الأنصار" أنصار الله، أنصار نبيه، أنصار دينه، أنصار عبادته المؤمنين، وليسوا أنصار الجاهلية وطواغيتها وجابرتها الذين هم في أعين الناس كبار وهم في حقيقة الأمر صغار وأقزام!!

ولما كان العام المقبل وصل إلى مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة الأولى فبايعوه، وكانت البيعة على الإسلام وأرسل معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير (١٤٠) رضي الله عنه يقرئهم القرآن،

(١٣٩) السورة: لابن هشام: (ج ٧٠/٢ - ٧١).

(١٤٠) هو مصعب بن عمير بن هشام نشأ في بيت ثري، مدلاً غاية الدلال، كان يُعرف بأنه أعطر أهل مكة ثم أسلم فانقلبت تلك النعمة إلى خشونة ورجولة كان من السابقين للإسلام ومن المهاجرين للحبشة في الهجرة الأولى، ثم هاجر للمدينة، وشهد بدرًا وحمل اللواء في أحد فاستشهد، وفي الصحيح أن مصعباً =

ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ويؤمهم في الصلاة^(١٤١)

وقد مصعب رضي الله عنه ومعه وفد كريم من الأنصار في موسم الحج فكانت بيعة العقبة الكبرى حيث تساءلوا وهم خارجون من المدينة: حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

لقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب الفتية، وآن لها أن تنفس عن حماسها، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية^(١٤٢).

صيغة البيعة

تكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم»، فأخذ البراء بن معرور^(١٤٣) بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أئزنا^(١٤٤) فبايعنا يا رسول الله فنحن وآله أبناء الحروب، وأهل الحلقة^(١٤٥)، ورثاها كابراً عن كابر. فأعترض أبو الهيثم بن التيهان^(١٤٦)

= لم يترك إلا ثوباً فكان إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا رجله خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ: «اجعلوا على رجله شيئاً من الأذخر»، انظر «صحيح البخاري»: (ج ٣/١٤٢، ح ١٢٧٦) كتاب الجنائز، و«الإصابة» لابن عبد البر: (ج ٣/٤٦٨)، و«الإصابة»: لابن حجر: (ج ٣/٤٢١)، و«مصعب بن عمير» للأستاذ محمد بريغش وغير ذلك من كتب السير.

(١٤١) «السيرة» لابن هشام: (ج ٢/٧٦).

(١٤٢) «فقه السيرة» للشيخ محمد الغزالي: (ص ١٥٧).

(١٤٣) هو البراء بن معرور الخزرجي الأنصاري أول من بايع وأول من استقبل القبلة وأول من أوصى بثلاث ماله، وأحد النقباء من الاثنى عشر. انظر «الإصابة»: (ج ١/١٤٤)، و«الأعلام» للزركلي: (ج ١/٤٧) الطبعة الرابعة. والحديث في «المسند»: (ج ٣/٤٦١).

(١٤٤) أي نساءنا.

(١٤٥) أي السلاح.

(١٤٦) أبو الهيثم بن التيهان: مالك بن عتيك الأنصاري الأوسي: أحد النقباء. آخى =

فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلاً وأنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم» (١٤٧).

قال ابن هشام: الهدم الهدم: يعني الحرمة، أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم (١٤٨).

ثم قام: أسعد بن زرارة (١٤٩) فقال: رويداً يا أهل يثرب: فإننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجهم اليوم مناواة للعراب كافة، وقتل خياركم وإن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جنة فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا يا أسعد: أمط عنا يديك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها، ثم قاموا إليه رجلاً رجلاً فبايعوه (١٥٠).

= النبي ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون، وشهد المشاهد كلها، وهو القائل في رثاء رسول الله ﷺ (لقد جدعت آذاننا وأنوفنا غداة فجعنا بالنبي محمد)، توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة سنة عشرين. انظر «الاستيعاب»: (ج ٤/٢٠٠)، و«الإصابة»: (ج ٤/٢١٢)، و«المعارف»: لابن قتيبة: (ص ٢٧٠) تحقيق ثروت عكاشة، و«الأعلام» للزركلي: (ج ٥/٢٥٨).

(١٤٧) «السيرة» لابن هشام: (ج ٢/٨٤ - ٨٥)، والحديث في «المسند»: (ج ٢/٢٧٤) طبعة الساعاتي مع «الفتح الرباني».

(١٤٨) «السيرة» لابن هشام: (ج ٢/٨٤ - ٨٥)، والحديث في «المسند»: (ج ٢/٢٧٤) طبعة الساعاتي مع «الفتح الرباني».

(١٤٩) أسعد بن زرارة: أبو أمانة الأنصاري الخزرجي النجاري، شهد العقبتين، وكان نقيباً على قبيلته. ذكر الواقدي أنه مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة. وقال البيهقي: بلغني أنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة وأنه أول ميت صلى عليه النبي ﷺ. قال ابن حجر: وقد اتفق أهل المغازي والتواريخ أنه مات في حياة النبي ﷺ قبل بدر. «الإصابة»: (ج ١/٣٤).

(١٥٠) «مسند أحمد»: (ج ٣/٣٢٢، ٣٣٩، ٣٩٤)، والحاكم: (ج ٢/٦٢٤ - ٦٢٥)، =

أجل: (إنه الإيمان بالله والحب فيه، والإخوة على دينه، والتناصر بأسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم، وسوف يمنعونه بأرواحهم، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء) (١٥١).

تري: أي صورة أعظم من هذه الصورة لهذا الولاء الصادق؟ لقد كانت بيعة على دين الله ومرضاته. وأنظر إلى رد المصطفى ﷺ: «بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» هذه هي الصلة الحقيقية والشيجة الصادقة لعلاقة المسلم بأخيه المسلم. لقد أصبح الدم واحداً. «أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» وهكذا تنقطع علائق الدم الجاهلي والتناصر الجاهلي والولاء الجاهلي ليحل محلها الولاء الإسلامي والوقوف في الصف الإسلامي والبراءة من الكفر وأهله وأعتناق الإخوة الجديدة التي أمر الله بها. إنها البديل الصالح لتلك الوشائج الجاهلية كما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» (١٥٢).

وهكذا نصل إلى معرفة ما فعل الله بنبيه ودعوته ومن معه، وما هياً لهم من النصرة والمنعة والدار التي يقام فيها حكم الله وشريعته ومنهاجه في الأرض. أرض الأنصار. أرض الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

فإلى صورة جديدة مشرقة للولاء في العهد المدني.

= والبيهقي في السنن الكبرى: (ج ٩/٩).

(١٥١) «فقه السيرة» للشيخ الغزالي: (ص ١٦١).

(١٥٢) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤٤٢، ج ٦٠٢٦) كتاب الأدب، و«صحيح

مسلم»: (ج ٤/١٩٩٩، ج ٢٥٨٥) كتاب البر والصلة.

الفصل السادس

الولاء والبراء في العهد المدني

لما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز عبده ورسوله محمد ﷺ ومن معه، أمره بالهجرة لتكون مبدأً فاصلاً بين الحق والباطل، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١٥٣).

ولقد كانت الهجرة إيذاناً من المولى جلّ وعلا بقرب وعده الذي وعد به المؤمنين وهو وعد دائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

[سورة النور: ٥٥].

ولقد وقع هذا التمكين الرباني بالفعل ولذلك نجد القرآن يذكر المؤمنين بهذا التمكين والنصر فيقول:

وَأَذْكُرُوا أَنَّهُ قَلِيلٌ مَّنْ سَخَطُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَخْطِفَكُمُ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَابْتَدَكُمْ بِنَصْرِهِمْ وَوَرِّدَكُم
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

[سورة الأنفال: ٢٦].

(١٥٣) انظر زاد المعاد: (ج ٤٣/٣) تحقيق الأرثووط.

وسيقى هذا الوعد بالتمكين مادام المسلمون ملتزمون بالشرط وهو عبادته وحده لا شريك له.

نبذة تاريخية

لما أذن الله بالهجرة: خرج المسلمون إلى المدينة زرافات ووحداناً، ولم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي حيث أقاما بأمر منه ﷺ وإلا من آحبتسه المشركون كرهاً.

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى المدينة، وعرفوا أنها دار منعة، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس: خافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحقوه بهم حيث سيشتد أمره وتقوى شوكته، فلذلك آجتمعوا في دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجاء منهم ليتشاوروا في أمره.

وخرجوا من ذلك الاجتماع برأي واحد: وهو أن يقوم من كل قبيلة شاب ثم يضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل.

ولكن حماية الله ونصرته لنبيه ﷺ أكبر من مكر أولئك المجرمين، فقد نزل جبريل عليه السلام على المصطفى ﷺ يأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة. وخرج رسول الله ﷺ ومعه صاحبه الأمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وبقي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث نام تلك الليلة في فراش المصطفى ﷺ. وينتهي الأمر بخسارة وذلة "الملاء" من قريش (١٥٤).

ووصل المصطفى ﷺ إلى دار الهجرة، دار النصر والمنعة، حيث وجد

(١٥٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام: (ج ٢/ ١٢٤ - ١٢٧)، وهزاد المعاده: (ج ٣/ ٥٠ - ٥١).

”أنصار الله“ فكانت هذه الهجرة نصراً للمؤمنين المهاجرين الذين وجدوا من يؤويهم وينصرهم ويشاركهم الأموال والمساكن وحتى الأزواج!! وكانت نصراً أيضاً للأنصار حيث قضى على الأحن والأحقاد الجاهلية بين أوسهم وخزرجهم، وعلى كيد اليهود الذين كانوا يشيعون بينهم الفرقة والفتنة.

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ في المدينة هو بناء المسجد. لينطلق منه النداء الرباني ”الله أكبر الله أكبر“ وليكون هذا المسجد الطاهر هو الملتقى التربوي للأمة المسلمة يتلقون فيه وحي الله عن رسول الله، ويتعلمون أمور دينهم، وهذا المسجد هو أيضاً مكان القيادة العسكرية الإسلامية التي انطلقت للجهاد في سبيل الله.

وبعد ذلك: (آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل:

وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ

[سورة الأحزاب: ٦].

رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة (١٥٥).

إن هذه الإخوة الإيمانية هي الوشيجة العظمى، والرابطة الفريدة في علاقات البشر بعضهم مع بعض، فلقد أحس كل مؤمن - كما قال الأستاذ محمد قطب - سواء كان مهاجراً أم أنصارياً برباط جديد يربطه بأخوته في الله، فكل واحد منهم يحب أخاه كحبه لنفسه، مع أنه من قبيلته ولا بينهما آصرة دم بل أن آصرة الدم - حين كانت في الجاهلية - لم تكن تنشئ

(١٥٥) زاد المعاد: (ج ٣/٦٣).

في نفس أحدهم ذلك الحب الصافي العجيب الذي يحسه الآن لأخيه في العقيدة.

ترى ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام؟

لماذا لا توجد هذه المشاعر إلا على العقيدة؟

والجواب: أن الأمر ليس سرًا، ولا سحرًا، ولكنه الإسلام يلتقي فيه الناس على العقيدة في الله، لأن كلاً منهم يحب الله ورسوله، فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخر كما هي الحال في العلاقات الجاهلية، وإنما الجانب البارز هو الحب في الله^(١٥٦).

وقفة عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

إن هذه الأخوة جديرة بالدراسة والاعتبار. ذلك أنه نتج عنها أمور عظيمة في حياة المسلمين سواء في مستوى "الأمة والدولة" أم على مستوى الأفراد.

فأما ما يتعلق بهم أمة: فقد كانت هذه المؤاخاة هي الركيزة الأساسية في تكوين مفهوم "الأمة المسلمة" أمة آلتقت على العقيدة في الله، وعاشت لأجل تلك العقيدة وليس لرابطة الدم أو الحسب والنسب، أو الأرض أو اللون أو اللغة، أو الجنس فيها أي حساب يذكر إذا تعارض ذلك مع العقيدة. والله سبحانه وتعالى هو صاحب المنة والفضل في ذلك فهو القائل:

وَأَعِصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ

(١٥٦) «منهج التربية الإسلامية»: (ج ٢/ ٤٠ - ٤١).

فَأَنفَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٥﴾
وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٦﴾ وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٧﴾

[سورة آل عمران: ١٠٣ - ١٠٥].

لقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم لبعض، كل منهم يحب أخاه كحبه
لنفسه، ويناصره ويجاهد من أجله، ويؤثره على كل قريب وحبيب من مال
أو أهل أو عشيرة أو ولد

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

[سورة التوبة: ٧١].

وأشد كيانهم فكانوا كالجسد الواحد «المؤمن للمؤمن كالبنيان الواحد
يشد بعضه بعضاً ثم شبك ﷺ بين أصابعه» (١٥٧) وعن النعمان بن بشير
قال: قال رسول الله ﷺ: «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم
كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر
والحمى» (١٥٨).

ولقد أثنى سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار. فقال سبحانه عن
المهاجرين:

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ
هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

[سورة الحشر: ٨].

(١٥٧) سبق ترجمته: (ص ١٨٩).

(١٥٨) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤٣٨، ح ٦٠١١) كتاب الأدب، وصحيح
مسلم: (ج ٤/١٩٩٩، ح ٢٥٨٦) كتاب البر، واللفظ للبخاري.

ثم ينشئ سبحانه على الأنصار بقوله:

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
يَحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً
مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

[سورة الحشر: ٩].

بل إن الأمر أصبح أكبر من ذلك. فهؤلاء الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ، ومن معه وآزروهم ونصروهم وبذلوا لهم النفس والنفيس آبتغاء رضوان الله قد أصبح حُبهم من العقيدة التي يدين بها المسلم ربه، وبغضهم وكرهيتهم نفاق ففي الحديث الصحيح «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار» (١٥٩).

وقال ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله» (١٦٠).

وبهذه الأخوة تكون "المجتمع الإسلامي" ذلك المجتمع الذي تظلمه راية لا إله إلا الله وتحكمه الشريعة الربانية، ويسوده الحب والتفاني، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، الجهاد رهبانيته، والدعوة إلى الله سبيله ومنهاج حياته، القوي فيه ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف فيه قوي حتى يأخذ حقه، ولاؤه لله ورسوله والمؤمنين وبغضه وكرهيته لأعداء الله ولو كانوا أقرب قريب، وجدوا حلاوة الإيمان وطعمه، وعرفوا الكفر وأهله حتى أن أحدهم

(١٥٩) «صحيح البخاري»: (ج ١/ ٦٢ ح ١٧) كتاب الإيمان، و«صحيح مسلم»:

(ج ١/ ٨٥ ح ٧٤). واللفظ للبخاري.

(١٦٠) «صحيح البخاري»: (ج ٧/ ١١٣ ح ٣٧٨٣) كتاب المناقب، و«صحيح مسلم»:

(ج ١/ ٨٥ ح ٧٥). واللفظ للبخاري.

يجب أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما قال ﷺ - وهذا ما تحقق فيهم - لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» (١٦١).

وبهذه المؤاخاة الإيمانية وجد "التكافل الاجتماعي" وبرزت فيه صور خالدة لم توجد قط إلا فيه وحده!!

ومنها ما رواه البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إنني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين! ولي امرأتان فأنظر إلي أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا أنقضت عدتها فتزوجها!! قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فلما آنقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو حتى جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهم؟» قال: تزوجت. قال: «كم سقت إليها؟» قال: نواة من ذهب (١٦٢) (وإن إعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن الذي زاحم اليهود في سوقهم وبزهم في ميدانهم، وأستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه، ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان) (١٦٣).

وخلاصة القول: إن هذه المؤاخاة (كانت تدريباً عملياً على الأخوة الإسلامية التي تبعثها تلك العقيدة في نفوس المؤمنين بها ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وكان تدريباً ناجحاً فذاً في نجاحه، فريداً في التاريخ.

-
- (١٦١) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤٦٣ خ ٦٠٤١) كتاب الأدب، وصحيح مسلم: (ج ١/٦٦ ح ٤٣). واللفظ للبخاري.
 (١٦٢) «صحيح البخاري»: (ج ٧/١١٢ ح ٣٧٨٠) كتاب مناقب الأنصار.
 (١٦٣) «فقه السيرة» للشيخ الغزالي: (ص ١٩٣)

وكانت كذلك تدريباً عملياً على "التكافل" وهو معنى من المعاني العميقة في بناء الجماعة الإسلامية. القادرون يكفلون غير القادرين على أساس الأخوة في الله من جانب وعلى أناس التصرف في مال الله بما يرضي الله من جانب آخر (١٦٤).

ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين. بهذا الحب الكريم. وبهذا البذل السخي. وبهذه المشاركة الرضية. وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء. حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة.

سمات الولاء والبراء في العهد المدني

لئن كانت سمات العهد المكي - كما سبق القول في ذلك - هي: بيان الحجة وإقامتها. والصبر على الأذى وكف الأيدي، والهجر الجميل، فإن ذلك كان لحكمة ربانية، منها: أن ذلك كان لتربية الأمة على هذا الدين الحنيف، وصقل النفوس على ضوء منهاجه، والتقيد الكامل بأمر الله ورسوله في الفعل والترك على حدٍّ سواء.

ولكن الأمر أخذ صورة أخرى في العهد المدني، فمن الهجرة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، إلى قيام الدولة المسلمة إلى الجهاد في سبيل الله وهيمنة الشريعة الإسلامية.

وأول ما نذكره في هذا العهد: هو الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم، حيث وادع فيها اليهود، وعاهدهم، وتركهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم. وقد أوردها ابن

(١٦٤) «منهج التربية الإسلامية» للاستاذ محمد قطب: (ج٢/٦٩).

* «الظلال»: (ج٦/٣٥٢٦).

إسحاق دون سند^(١٦٥)، وأوردها البنا في شرح مسند الإمام أحمد^(١٦٦)، وأوردها أصحاب السير والمغازي.

على أنني سأقتصر على بعض فقراتها التي تخص موضوع الموالة. جاء في أولها: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»^(١٦٧).

«... وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة^(١٦٨) ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أبايهم عليه جميعاً. ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أديانهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم».

«وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»^(١٦٩).

(١٦٥) «السيرة النبوية» لابن هشام: (ج ٢/١٤٧).

(١٦٦) «المسند» بشرح البنا: (ج ١٠/٢١).

(١٦٧) «السيرة» لابن هشام: (ج ٣/١٤٧).

(١٦٨) الدسيعة: العظيمة .

(١٦٩) «السيرة» لابن هشام: (ج ٢/١٤٨-١٤٩).

هذه الوثيقة هي الصورة الصادقة لحقوق الإنسان حيث وردت بما يجعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً متلاحماً متأسكاً، وكفّلت - أيضاً - حقوق أهل الديانات الأخرى ما داموا يعيشون تحت مظلة الحكم الإسلامي.

وقد لخص الإمام آبن القيم رحمه الله صورة المجتمع المدني آنذاك بقوله: (لما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم.

وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة.

وقسم تاركوه، فلم يصلحوه ولم يحاربوه، بل أنتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين وهؤلاء هم المنافقون.

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربّه تبارك وتعالى (١٧٠).

* * *

وقد أتضح لي من خلال هذا البحث أن هناك ثلاثة أمور هامة هي سمات هذا العهد:

(١) كيد أهل الكتاب للإسلام "ثم النهي والتحذير من موالاتهم وطاعتهم".

(٢) ظهور النفاق والمنافقين.

(٣) البراء من هؤلاء وأولئك: أي المفاصلة التامة بين المسلمين وأعدائهم ولها صور ترد في موضعها.

(١٧٠) زاد المعاد: (ج ٣/١٢٦).

أولاً: كيد أهل الكتاب للإسلام وتحذير المسلمين من موالاتهم:

تتفق نظرة المنصفين الباحثين في التاريخ اليهودي: أن اليهود أمة حاقدة، الخداع طبعها، والغدر ديدنها، ومحادة الله ورسله خلقها، ولحكمة الله يعلمها أنتقلت الرسالة من بني إسرائيل فكان خاتم الأنبياء هو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي ﷺ وقد كان كيد اليهود - خاصة - قد بدأ منذ أن كان رسول الله ﷺ في مكة حيث كانت تُعاون قريشاً في أسئلة العناد التي توجه للمصطفى ﷺ، وذلك مثل قولهم لقريش: أسألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وغير ذلك مما هو معلوم من سورة الكهف.

ولما هاجر رسول الله ﷺ ومن معه إلى المدينة، قامت قيامة اليهود، فلم يهدأ لهم بال، ولم يهنا لهم عيش. ذلك أن قيام الدولة المسلمة في الأرض له أثره الكبير عليهم، فالإسلام هو الذي يكسر شوكتهم، ويفضح مكنوناتهم، ويحرر الناس من شرورهم، ويمزق شملهم وسيطرتهم وجبروتهم. ومن هنا لم يفتأوا يكيدون للإسلام ورسوله والمؤمنين، وينصبون العراقيل في وجه من يريد الإسلام وولد النفاق والمنافقون في أحضانهم، وخانوا الله ورسوله فلم يتقيدوا بالوثيقة الآتفة الذكر، وغدروا بالمسلمين فوالوا المشركين والكفار، وأذوا رسول الله ﷺ وهموا بما لم ينالوا.

ولذلك عني القرآن المدني وخاصة أكبر سوره - وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة - بكشف سترهم وفضحهم، وبيان كيدهم. والآيات الكريمة في هذا كثيرة جداً ولكنني أورد طرفاً منها هنا؛ ليتضح "للمسلمين" المخدوعين بهم اليوم، الذين يوالونهم ويجلونهم بل يقتدون بهم. ما عليه أعداء الله الذين هم قلة الأنبياء ودعاة الفساد في الأرض.

قال تعالى:

وَدَكِّيرِينَ أَهْلِي
أَلِكُنْبِ لَوِزُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا

مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَرُوا
وَاصْفَحُوا حَقٌّ يَأْتِي اللَّهَ بِأَمْرِ يُعْطِيَنَّ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

[سورة البقرة: ١٠٩].

وفي سورة آل عمران:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

[سورة آل عمران: ٦٩].

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَمْرَهُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

[سورة آل عمران: ٧٢].

وَقَالُوا اكُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة البقرة: ١٣٥].

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُزَالَ عَنْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٥﴾

[سورة البقرة: ١٥٥].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

صُدُّوهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾

[سورة آل عمران: ١١٨].

فهذه الآيات وغيرها مما في مثل معناها: تبين كيدهم وما يتربصون به للإسلام وأتباعه. ولذلك جاءت آيات كثيرة في تحذير المؤمنين ونهيهم عن الاستماع للكفار عامة ولأهل الكتاب خاصة، أو طاعتهم، أو اتخاذهم أولياء، أو الركون إليهم. وساقصر هنا أيضاً على بعض هذه الآيات لأنه سيأتي مزيد من تفصيل هذا في الفصل التالي إن شاء الله حول صور الموالاة.

قال تعالى:

وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

[سورة البقرة: ١٢٠].

يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يُرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٢١﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

[سورة آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠].

يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا
فِرْعَوْنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٢٢﴾
وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ
رُسُلُهُ ۚ وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٣﴾

[سورة آل عمران: ١٠٠ - ١٠١].

ورد في سبب نزول هاتين الآتين: أن شاس بن قيس اليهودي - وكان شيخاً قد أغبر في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - مر على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم، وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: قد آتجمع ملاً بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار! فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال: أعمد إليهم فأجلس معهم، ثم ذكرهم بعث - أحد أيامهم في الجاهلية - وما كان فيه، وأنشدهم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار، ففعل. وتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجلان من الحيين، فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه: إن شئت رددتها جذعة! وغضب الفريقان جميعاً وقالا: أرجعنا السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة - وهي الحرة - فخرجوا إليها، وأنضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعوهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

وبلغ رسول الله ﷺ ذلك فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين: الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وأستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً!!». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم أنصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ ءَاتَوَا الْكِتَابَ﴾ الآية.

قال جابر بن عبد الله، ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله ﷺ، فأوماً إلينا بيده، فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا

من رسول الله ﷺ، فما رأيت يوماً أقبح ولا أوحش أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم^(١٧١).

ويوجه الله عباده المؤمنين ويرشدهم - بعد أن ذكر قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام في قصة ذبح البقرة - بقوله:

أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَظُنُّونَ ۖ وَإِذَا الْقَوَا أَلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَا بِمَضْجُفِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمَوَاتٍ
أَلَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَاجُوكُمْ فِيهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۖ
أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُظَنُّونَ ۖ

[سورة البقرة: ٧٥ - ٧٧].

ثم يأتي التحذير الأقوى في سورة المائدة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١].

إِنَّمَا أَوْلِيَاكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۖ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُزُوءًا وَلِئَامِنَ الَّذِينَ
أَلِكْتَبَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ ۖ

[سورة المائدة: ٥٥ - ٥٧].

(١٧١) انظر «تفسير الطبري»: (ج ٢٣/٤)، و«أسباب النزول» للواحدي: (ص ٦٦)،
و«أحكام القرآن» للقرطبي: (ج ١٥٥/٤)، و«تفسير البغوي»: (ج ٣٨٩/١).
وقد بذلت جهدي في تخريج الحديث من المصادر الأصلية فلم أعثر على ذلك
فجزى الله من وجد تخرج هذا الحديث ونهني إلى ذلك خير الجزاء.

إن هذه النصوص وغيرها: قد ربت المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، فقطعت ما في نفوس بعض المسلمين من ود وولاء لهؤلاء الأعداء، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط.

ثانياً: النفاق والمنافقون:

إن المؤمنين في العهد المكي كانوا مبتلين، يعذبون، ويضطهدون ومع ذلك صبروا وأحتسبوا فلم يكن في مكة حينئذ إلا فريقان: فريق المؤمنين الصابرين، وفريق الكفار والمشركين الجابرة ولم يكن هناك «منافقون» لأن النفاق طبيعته المراوغة والاحتيايل وهذا الدين لم يكن يقدر عليه في مكة إلا المؤمنون الصادقون.

أما في المدينة، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة، التي تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام، وتحب الكفر وأهله ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به.

والمنافقون: (قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعادة الله ورسوله، فهم في الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى:

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَوِيْرًا ﴿١٤٥﴾

[سورة النساء: ١٤٥].

(فالكافرون، المجاهرون أخف منهم، وهم فوقهم في دركات النار، لأن الطائفتين. أشركنا في الكفر ومعادة الله ورسوله، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق. وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى في حقهم:

هَرَّالْعَذْرُوْا فَاحْذَرُوْهُمْ

[سورة المنافقون: ٤].

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر. أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وإنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها.

(فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم - أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم. لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، أما هؤلاء فمعهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتدبرون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم.. صحبتهم توجب العار والشنار، ومودتهم تحل غضب الجبار، وتوجب دخول النار.

(من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً، ويمشي على عقبه القهقري إداراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً) (١٧٢).

وكان من نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أن لا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق، ذلك أن عدم التمييز يؤدي إلى ضياع القدوة الحسنة في المجتمع الإسلامي، ويؤدي أيضاً إلى ذوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق.

(وفي المتسبين للإسلام أناس "نفعيون" لا هم لهم إلا الحصول على المال أو أي مأرب من مآربهم الدنيئة، فإذا آنصر المؤمنون كانوا معهم، وإذا أضيوا كانوا عليهم، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض

(١٧٢) انظر «طريق المجرتين وباب السعادتين» لابن القيم: (ص ٤٠٢-٤٠٨) الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥هـ. السلفية بمصر.

الهدامة ممن قد آمتلأت قلوبهم بالحقد والحسد، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتظاهرون لهم بأنهم معهم، ولكنهم يخونونهم في أخرج المواقف (١٧٣).

ولما كان الأمر كذلك ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الابتلاء والامتحان قال تعالى:

الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَذَبُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾

[سورة العنكبوت: ١ - ٣].

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴿١﴾ وَتِلْكَ الْآيَاتُ تُدْأَوُّ لَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿٣﴾

[سورة آل عمران: ١٤٠ - ١٤١].

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

[سورة آل عمران: ١٧٩].

أجل: إنه لا بد من التمييز بين الخبيث والطيب، فالابتلاء سنة ربانية في تمحيص النفوس وصقلها على الحق، ثم إن الله سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، فله سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية بمقتضى الحال.. لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع

(١٧٣) «المنافقون في القرآن الكريم» للاستاذ عبدالعزيز الحميدي: (ص ١١٦).

والعطش، والتعب والنصب، فذلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال
الإنساني والاستقامة المطلوبة منه^(١٧٤).

والحديث عن المنافقين طويل وقد كتب فيه في القديم
والحديث^(١٧٥).

وقد سبق لي في التمهيد أن تكلمت عن أنواع النفاق وأحكامه، وأتكلم
هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين في كيدهم للدعوة الإسلامية.

(١) من أخطر ما أرتكبه المنافقون: موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين
وقد فضحهم القرآن في عدة مواضع ومنها سورة الحشر، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ
أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ
وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِلَنَّ الْأَظْفَارَ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾

[سورة الحشر: ١١ - ١٢].

وقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا

غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَآهُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

(١٧٤) انظر «إغاثة اللهفان» لابن القيم تحقيق الفقي: (ص ١٩٠).
(١٧٥) هناك رسالة قيمة للاستاذ عبدالعزيز الحميدي بعنوان «المنافقون في القرآن» لعلها
من أحسن ما كتب في هذا الموضوع، وهي موجودة بالدراسات العليا بكلية
الشريعة بمكة المكرمة، وانظر أيضا كتاب: النفاق آثاره ومفاهيمه للشيخ
عبدالرحمن الدوسري رحمه الله.

[سورة المجادلة: ١٤].

ذكر السدي ومقاتل: أنها نزلت في عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل المنافقين: فقد كان أحدهما يجالس النبي ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود^(١٧٦). وهذه الآية كقوله تعالى:

مَذْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٧٣﴾

[سورة النساء: ١٤٣].

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هي سورة "المنافقون" بين الله فيها أنهم يظهرون ما لا يطمنون، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُفْضُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا إِلَيْهِ
حَرَّابِينَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُتَّقِينَ لَا يَفْقَهُونَ

[سورة المنافقون: ٧].

وفيها أيضاً:

يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ
مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْبَصَرُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ
الْمُتَّقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة المنافقون: ٨].

روى البخاري ومسلم في سبب نزولها عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال

(١٧٦) أسباب النزول للواحدي: (ص ٢٣٥)، وتفسير القرطبي: (ج ١٧/٣٠٤)

رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها متنة» فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق: قال ﷺ: «دعه. لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» (١٧٧).

قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إنه بلغني إنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرفني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه مني، أنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل تترفق به ونحسن صحبته ما بقي معناه» (١٧٨).

وذكر عكرمة وغيره: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة، وأستل سيفه، فجعل الناس يمحرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له آتبه: وراعه، فقال: مالك ويملك؟ قال: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ - وكان إنما يسير ساقية - (١٧٩) فشكى إليه عبد الله بن أبي آتبه، فقال الابن: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن (١٨٠).

(١٧٧) «صحيح البخاري»: (ج ٨/٦٥٢ ح ٤٩٠٧) كتاب التفسير، وصحيح مسلم: (ج ٤/١٩٩٩ ح ٢٥٨٤) واللفظ له.

(١٧٨) «السيرة لأبن هشام: (ج ٢/٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير»: (ج ٨/١٥٩)، ولم يخرج - فيما أعلم - إلا ابن إسحاق.

(١٧٩) من صفته ﷺ أنه يسوق أصحابه. أي يقدمهم ويمشي خلفهم تواضعاً ولا يدع أحداً يمشي خلفه.

(١٨٠) «تفسير ابن كثير»: (ج ٨/١٥٩).

وحقاً إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الابن لرسول الله: إن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه!! إنه ما حمل هذا الابن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء في نفسه.

(٢) من أقيع صفاتهم: رفض التحاكم إلى شريعة الله، والتحاكم إلى الطواغيت التي تحقق رغباتهم، قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَلَّا نَحْسَنَّا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا

[سورة النساء: ٦٠ - ٦٣].

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى:

وَيَقُولُونَ
ءَاْمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ لِقَاءُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٤٩﴾ أَلَيْسَ قُلُوبُهُمْ مُرْسِئًا رِزًا بَوَّاءً يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَلَيْسَ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

[سورة النور: ٤٨ - ٥٠].

والله قد وضع ميزاناً دقيقاً في هذه القضية بين المؤمن والمنافق.

فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ فَإِنَّهُ يَنْقَادُ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَيَرْضَى بِهِ وَيَقُولُ: سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ:

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

[سورة النور: ٥١].

هذه هي صفة المؤمن، أما المنافق فصفتة الإعراض والاستكبار عن حكم الله، قال تعالى:

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ
[سورة النور: آية ٤٨]

(٣) من صفاتهم وأفعالهم الدنيئة: التخاذيل في صف المسلمين، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم. قال الله عنهم:

الَّذِينَ قَالُوا لِلْأُخَوْنَةِ
وَقَعَدُوا لَنَا طَاعُونًا مَا قُتِلُوا قُلٌّ فَأَذَرَهُ وَأَعَنَ أَنْفُسَهُمْ
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

[سورة آل عمران: ١٦٨].

ولقد أصيب المسلمون في غزوة أحد بالدهشة حين رجع ثلث الجيش
بزعامة آبن أبيي. وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها.
وفي موالاتهم للكفار يقول الله في شأنهم:

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتُ
عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

[سورة النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

وأخبرنا سبحانه أنهم هم:

الَّذِينَ يَرَبُّونَكُمْ وَإِنْ كَانَ لَكُمْ قَتْلٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ
 نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْخَرُوا
 عَلَيْهِمْ وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَهُ يُخَكِّمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

[سورة النساء: ١٤١].

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى:

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتُهُمْ قُلُوبُهُمْ قَتْلُهُمْ
 فِي رَيْبِهِمْ تَرَدُّدٌ ﴿١٤٢﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
 لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
 وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿١٤٣﴾ لَوْ خَرَجُوا فِىكُمْ
 مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَافَكُمْ يَتَفَوَّنُكُمْ
 الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَنَعُونَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾
 لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
 جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا ﴿١٤٥﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَشْذَن لِي وَلَا تَقْتُلْنِي الْفِتْنَةُ
 سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٤٦﴾
 إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوِفُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ
 مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوِلُوا
 وَهُمْ قَرِحُونَ ﴿١٤٧﴾

[سورة التوبة: ٤٥ - ٥٠].

ففي هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا
 فيكم ما زادوكم إلا خبالاً لأنهم جناء، مخذولون، ولأسرعوا بينكم بالهزيمة

والبغضاء، والفتنة^(١٨١). وقال الله فيهم أيضاً:

وَإِذَا
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنَّمَا يَأْتِيهِ اللَّهُ وَجْهًا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَ
أَوَّلُوا أَلْطَوَلَّ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٦﴾
رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَمَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأُهم
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

[سورة التوبة: ٨٦ - ٨٧].

ولهم مواقف أخرى كبيرة، ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبين
لرسوله ﷺ أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عياناً ولكنهم
يعرفون بلحن القول:

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُم بِالْحَمْدِ فَلَظُنُّكُمْ بِسَمْعِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي
لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾

[سورة محمد: ٣٠].

وسنعرف بعد قليل كيف كان البراء منهم، وكيف كان هدي رسول
الله ﷺ معهم:

**ثالثاً: البراء في العهد المعني أي: المفاصلة القائمة بين المسلمين وجميع
أعدائهم:**

لئن كانت التربية في العهد المكي تمتاز بضبط النفس، والصبر على
الأذى، وتبليغ الدعوة وإعداد العدة مع حبس دواعي الانطلاق، وكف حدة
الإقدام: فإن التربية في المدينة مبنية على هذه الأسس ولكن في شكل جديد،
حيث أنطلق المؤمنون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والضرب على يد أعداء

(١٨١) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج ٤/ ١٠٠).

الله بقوة لا تعرف الضعف، وعزيمة لا تعرف الوهن^(١٨٢). من هنا كان الجهاد في سبيل الله هو أبرز سمات هذا العهد الزاهر، وهو أول صورة من صور البراء والمفاصلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في العهد المدني وبعد الهجرة النبوية. والجهاد وجه جديد من وجوه الثبات على العقيدة، وأحتمال المشقات والأذى في سبيل الذود عنها من الأعداء^(١٨٣).

والحديث عن الجهاد طويل طويل، وآياته كثيرة وكذلك الأحاديث النبوية فيه، وفهم الناس لمقصده مختلف، خاصة في العصور المتأخرة، فقد وجد من المسلمين أناس أصيبوا بالهزيمة النفسية أمام شبهات الكفار والملحدين والمستشرقين والمستغربين على حد سواء!.

ففي الوقت الذي يقول فيه أعداء الله. إن دين الإسلام آتشر بالسيف، وجد ممن ينتسبون للعلم والعلماء من يدافع - حسب زعمه - عن الإسلام؟ فيلوي أعناق النصوص الشرعية لتوافق ما زعمه دفاعاً عن الإسلام! ومن هنا يوضع الإسلام في مقام الدفاع، ويصور على أنه كالذي يقاتل في معركة انسحاب حيث كلما طرأت شبهة آنبرى لها من يدافع!!

والذي نعتقد ونراه الحق في هذه القضية: أن هذه مهزلة سخيصة لم تحدث إلا في القرون المتأخرة، حين صارت الغلبة للكفر وأربابه، وأنذر المسلمون من مقام القيادة والجهاد إلى مقام الاستخذاء والضعف والدفاع والتبعية العمياء.

وقد كتب علماء فضلاء من علماء المسلمين حول هذا الموضوع ما يكفي ويشفي ويفني^(١٨٤). ومن المهم في هذا المقام: أن نعرف هدي

(١٨٢) انظر «سبيل الدعوة الإسلامية» د. محمد أمين المصري: (ص ١١٣) ط. (١) سنة ١٤٠٠ هـ دار الأرقم بالكويت.

(١٨٣) انظر «منهج التربية الإسلامية» للاستاذ محمد قطب: (ج ٢/٧٠).

(١٨٤) اذكر منهم شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم والشيخ محمد بن =

المصطفى ﷺ وسيرته مع أعداء الله؛ وجهاده لهم. وللإمام آبن القيم رحمه الله تلخيص قيم أورده هنا بتمامه نظراً لأهميته.

قال رحمه الله في «زاد المعاد»:

(أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه.

بَيِّنَاتُ الْمَدْثَرِ ﴿١﴾ قُرْآنًا ذَرِ

[سورة المدثر: ١ - ٢].

(فنبأه بقوله: ﴿اقْرَأْ﴾ وأرسله بـ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال، ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

(ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن أعترله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:

(١) أهل صلح وهدنة.

(٢) وأهل حرب.

(٣) وأهل ذمة.

(فأمر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة

عبد الوهاب وتلاميذه، ومن المعاصرين الاستاذين الجليلين أبو الأعلى المودودي وسيد قطب والشيخ سليمان بن حمدان رحمهم الله. وغيرهم ممن لا يحضرني ذكره الآن.

”براءة“ نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلبة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان.

(وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام.

(١) قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له فحاربهم وظهر عليهم.

(٢) وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

(٣) وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا آنسلخت قاتلهم. وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله:

فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ

[سورة التوبة: ٥].

فالحرم ها هنا أشهر التيسير، أولها يوم الأذان وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها العاشر من ربيع الآخر. وليست هي الأربعة المذكورة في قوله تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِي كَتَبِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ

[سورة التوبة: ٣٦].

فإن تلك: واحد فرد، وثلاثة سرد. رجب وذو القعدة وذو الحجة

والمحرم. ولم يسير المشركين في هذه الأربعة. فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد أنسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهد، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموфи بعهدده عهدده إلى مدته فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

(ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به ومسلم آمن وخائف محارب) (١٨٥).

وقد ركز القرآن الكريم على أهداف الجهاد في غير ما آية. فمنها قوله تعالى:

لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونا الدِّينُ كُلُّهُنَّ وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى

[سورة الأنفال: ٣٩].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ويكون الدين كله لله﴾: لا يكون مع دينكم كفر (١٨٦). وقال تعالى:

هُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

[سورة التوبة: ٣٣].

(١٨٥) (زاد المعاد: (ج ٣/١٥٨-١٦٠).

(١٨٦) (تفسير ابن كثير: (ج ٣/٥٩٧).

وقال:

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَ سَبِيلُ
صَالِحٌ وَمُجْرِمٌ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُكَ كَرَّمَ اللَّهُ بِهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيْسَ نَصْرُكَ إِلَّا اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ يَكُنْ اللَّهُ لِقَوِيٍّ
عَزِيزًا ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنَؤُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ

[سورة الحج: ٤٠ - ٤١].

إن الجهاد في الإسلام: هدفه أن يعبد الله وحده في الأرض، وأن تهيمن شريعته، ويتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن تأليه البشر إلى ألوهية الواحد الأحد (١٨٧).

ومن هدف الجهاد أيضاً إنقاذ المستضعفين في الأرض

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
نَصِيرًا

[سورة النساء: ٧٥].

وإليك تفصيل صور البراء من كل طائفة، وكيفية جهاد المسلمين لهم:

(أ) صور البراءة من المشركين :

(١) بعد أن قامت الدولة المسلمة في المدينة، كان لابد من اجتثاث شجرة الشرك في مكة وغيرها وقد نزلت سورة التوبة بقتال المشركين،

(١٨٧) انظر «معالم في الطريق»: فصل الجهاد في سبيل الله، وطريق الدعوة في ظلال القرآن (ج/١/٢٨٩).

وتفصيل ذلك ورد في تلخيص آبن القيم الذي سبق ذكره. قال تعالى:

بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَيُنْذِرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ آلِيمٍ
﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ
فَأَقِلُّوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا مِنْهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ
وَأَعْقِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ
رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾
كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْفُقُوا فِيكُمْ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةٌ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَنَاقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثُمَّ قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاصْدُوا
عَنِ سَبِيلِهِمْ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا تَرْفُقُوا
فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ
فِي الَّذِينَ وَفَّصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا

أَيَّمَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا
 أَنِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ
 ﴿١٣﴾ أَلَا تَنْظُرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُمُوا
 بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدْعُ وَكُفْرٌ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 اتَّخَذْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
 قَتَلُوهُمْ بَعْدَ بَيْعِهِمْ إِلَى اللَّهِ بِلَا حِسَابٍ وَبِغَيْرِ
 عِلْمٍ وَيَشْفِ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَيَذْهَبُ
 غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

[سورة التوبة: ١ - ١٥].

(٢) منعهم من دخول المسجد الحرام قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
 نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا
 وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ
 شَاءَ ابْنُ اللَّهِ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

[سورة التوبة: ٢٨].

قال ابن كثير: كان نزول هذه الآية سنة تسع. ولهذا بعث رسول
 الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ، وأمره أن ينادي
 في المشركين، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت
 عريان^(١٨٨)، فأتى الله ذلك وحكم به شرعاً وقدر^(١٨٩).

(٣) منع النكاح بالمشركات: ذكر ابن جرير - وهو يتحدث عن صلح
 الحديبية - أنه جاء إلى النبي ﷺ نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل:

(١٨٨) صحيح البخاري: (ج ٨/٣١٧ ح ٤٦٥٥) كتاب التفسير: تفسير سورة
 التوبة.

(١٨٩) تفسير ابن كثير: (ج ٤/٧٣).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَ مِنْكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ
 مِنْهُمْ جَرَّبَتْ فَأَمْسَكُوهُنَّ اللَّهُ أَكْثَرُ بِأَيْمَنِنَ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
 فَلَا مَرْجُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يُحِلُّونَ لَكُمْ وَأَنَّهُمْ
 مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ الْأَرْبُوعَ
 وَلَا تُنكِحُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَسَقَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنفَقُوا
 ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَنْصَحُكُمْ بِنَفْسِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

[سورة الممتحنة: ١٠].

قال فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك (١٩٠).
 (٤) منع إقامة المسلم في دار الشرك، وذلك بعد أن أعز الله دينه وعباده،
 وقامت لهم دولة فحيثئذ تحرم الإقامة بدار الشرك خشية على المسلم
 أن يفتن، ولكي ينضم إلى جماعة المسلمين فهم أخوته وأولياؤه من
 دون الناس. قال عليه السلام: «أنا بريء من كل مسلم يقم بين أظهر
 المشركين» قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما» (١٩١).

(ب) البراء من أهل الكتاب :

كما سبق أن قلنا: أن الجهاد هو أكبر مظاهر المفاصلة بين المسلمين
 وجميع أعدائهم - ومنهم أهل الكتاب - فإنه لا بد أن نشير إلى بعض ما نزل
 في مفاصلة أهل الكتاب إضافة إلى مبدأ جهادهم.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران التي عنيت بهم كثيراً
 وكشفت ما لديهم:

(١٩٠) «تفسير الطبري»: (ج ٢٦/ ١٠٠) وانظر «أحكام أهل الذمة لابن القيم:
 (ج ١/ ٦٩).
 (١٩١) «سنن أبي داود»: (ج ٣/ ١٠٥ ح ٢٦٤٥) كتاب الجهاد، والترمذي في «السيرة»:
 (ج ٥/ ٢٢٩ ح ١٦٠٤).

يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُونُونَ الْهَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

[سورة آل عمران: ٧٠ - ٧١].

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
بِغَفِلٍ عما تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾

[سورة آل عمران: ٩٨ - ٩٩].

وفي سورة المائدة قوله تعالى:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا أَمَانًا
يَا اللَّهُ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ
هَلْ أُتَيْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

[سورة المائدة: ٥٩ - ٦٠].

ففي هذه الآيات وغيرها نجد التقرير لأهل الكتاب والتنديد بباطلهم
ومخازيهم.

ثم يأتي النص القرآني للرسول ﷺ - وللمؤمنين من ورائه - بأن يقولوا
لأهل الكتاب أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا شرع الله ويحكموا كتابه:

= قال الألباني: هو حديث حسن. انظر: «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٢/ ١٧)
ح (١٤٧٤).

قُلْ يَٰ أَهْلَ

الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

[سورة المائدة: ٦٨].

وهذه الآية الكريمة من أعظم ما بين صورة البراء من أهل الكتاب. ولقد كان جهاد المصطفى ﷺ وأصحابه لأهل الكتاب - بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير - صورة واضحة في مفاصلتهم وجهادهم والبراء منهم. وسيرد الحديث عن إجلالهم عن أرض الجزيرة في الفصل السادس من الباب الثاني.

(ج) البراء من المنافقين :

مفاصلة المنافقين والبراء منهم تؤخذ من هدي رسول الله ﷺ معهم، وفي ذلك يقول العلامة آبن القيم:

(وأما سيرته ﷺ في المنافقين: فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة. وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم) (١٩٢).

وقد قلنا فيما سبق: أن من أبرز صفات المنافقين موالة الكفار، وكراهية دين الله والتخذيل في صف المسلمين لذلك حين بين الله حالهم للمؤمنين: كان لا بد من مفاصلتهم والبراء منهم ونزل في ذلك آيات توضح صور هذه المفاصلة وذلك البراء ومنها:

(١) الإعراض عنهم والغلظة عليهم: وقد جاء ذلك مقروناً بجهاد الكفار،

(١٩٢) (زاد المعاد: (ج) ١٦١/٣).

فالغلظة على المنافق من أنواع الجهاد قال تعالى:

يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا لِّلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ
وَمَا أَوْنَهُمْ بِهِمْ رَيْسَ الْمَصِيرِ ﴿٧٣﴾

[سورة التوبة: ٧٣].

”وهي نفس آية ٩ من سورة التحريم“ وسورة التوبة فضحتهم فضحاً عظيماً حتى إنها سميت بـ «الفاضحة». ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها» (١٩٣). وفي سورة النساء:

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ
عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا

[سورة النساء: ٨١].

(٢) النهي عن الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم:

وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ

[سورة التوبة: ٨٤].

قال ابن كثير: وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين (١٩٤).

(٣) لا يقبل لهم عذر في التخلف عن الجهاد، ومن ثم عدم قبولهم فيه

(١٩٣) صحيح البخاري: (ج ٦٢٩/٨ ح ٤٨٨٢) كتاب التفسير: تفسير سورة الحشر.

(١٩٤) تفسير ابن كثير: (ج ٤/١٣٢).

مرة أخرى. قال تعالى:

فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَىٰ طَائِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِاخْرُوجْ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن
تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا
مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٢﴾

[سورة التوبة: ٨٣].

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَن
نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُغَرِّضَنَّ عَنْهُمْ فَاغْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَنُهُمُ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٨٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنُغَرِّضَنَّ عَنْهُمْ فَإِنْ
غَرِّضْنَا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٦﴾

[سورة التوبة: ٩٤ - ٩٦].

(٤) عدم الاستغفار لهم. قال تعالى:

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٨٠].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاهُ وَرَدَّهُمْ

وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
 أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة المنافقين: ٥ - ٦].

(د) قطع الموالاة مع الأقارب إذا كانوا محادين لله ورسوله :

قلنا في العهد المكي: إن المؤمن كان مأموراً بصلة والديه الكافرين وإحسان معاشرتهم، وليس في ذلك ولاء على أية حال إلا إنه لم يؤمر بمقاطعتهم ومفاصلتهم، ولكن الصورة تختلف في العهد المدني بعد قيام الدولة المسلمة وجهاد الكفار والمشركين. حيث جاءت المفصلة الثامنة بين المؤمن وقرية المشرك أو الكافر أو المنافق ونزل في ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى:

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
 حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
 أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
 الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
 عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

[سورة المجادلة: ٢٢].

قال أهل العلم في سبب نزولها: إنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجراح حين قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، وفي أبي بكر حين دعا أباه للمبارزة يوم بدر، وفي عمر حيث قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر، وفي علي وحمة حين قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر^(١٩٥). وقيل غير

(١٩٥) «أسباب النزول» للواحدي: (ص ٢٣٦)، وتفسير ابن كثير: (ج ٨/٧٩).

ذلك من الأسباب (١٩٦).

وهذه الآية الكريمة تشير إلى المفاضلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان، وأن المؤمن يجب عليه أن ينحاز إلى الصف المسلم متجرداً من كل عائق أو جاذب ومرتبلاً في العروة الواحدة بالحبل الواحد. ومن ثم فلا نسب ولا صهر، ولا أهل ولا قرابة، ولا وطن ولا جنس ولا عصبية ولا قومية حين تقف هذه الوشائج دون ما أراد الله. وإنما هي العقيدة من وقف تحت رايتها فهو من حزب الله، ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة (١٩٧). وفي سورة التوبة يأتي الأمر الأخير بالمفاضلة. وبيان أن القضية: قضية إيمان وكفر وليست قضية جزئية أو ثانوية. قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٣ - ٢٤].

فهذا أمر من الله بمباينة الكفار وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا أختاروا الكفر على الإيمان (١٩٨).

قال القرطبي: وهذه الآية - آية ٢٣ - باقية الحكم إلى يوم القيامة في

(١٩٦) للاستزادة في هذا انظر أحكام القرآن للقرطبي: (ج ١٧/٣٠٧).

(١٩٧) انظر الظلال: (ج ٦/٣٥١٤-٣٥١٦).

(١٩٨) ابن كثير: (ج ٤/٦٦).

قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين^(١٩٩). وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: هو مشرك مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك^(٢٠٠).

وهذا السياق القرآني الكريم قد استعرض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها في كفه، ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى.

الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة "وشيجة الدم والنسب والقرباة والزواج"، والأموال والتجارة "مطعم الفطرة ورغبتها"، والمساكن المريحة "متاع الحياة ولذتها".. كل ذلك في كفة وفي الكفة الأخرى: حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله. الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته وما يتبعه من نصب وتعَب، ومن تضيق وحرمان وألم وتضحية وجراح وأستشهاد. الجهاد المجرد من الصيت والذكر والظهور والمباهاة والفخر والرياء.

وما يكلف الله المؤمنين هذا التكليف إلا وهو يعلم أن فطرتهم تطيق ذلك، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتفال، وأودع فيها الشعور بلذة الاتصال بالله التي لا تعدلها أي لذة. لذة الاستعلاء على الضعف والهبوط والخلاص من ثقل اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضي^(٢٠١).

وخلاصة القول: إن الولاء والبراء قد أكتملت صورته الحقيقية في العهد المدني حيث قامت دولة الإسلام الراشدة وأصبحت الأخوة الإيمانية فيها هي الرابطة الحقيقية، ودونها تهدر كل رابطة. وشرع الجهاد للكفار والمشركين ومن نقض عهده. وجاء الأمر بالغلظة على المنافقين والإعراض عنهم. وحصلت البراءة من كل قريب لا يؤمن بالله ورسوله ولا يدين دين الحق ولو كان أباً

(١٩٩) «أحكام القرآن» للقرطبي: (ج٨/٩٤).

(٢٠٠) «أحكام القرآن» للقرطبي: (ج٨/٩٤).

(٢٠١) «الظلال»: (ج٣/١٦١٥) بتصرف.

أَوْ أَخًا أَوْ زَوْجًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَعَارَفَ النَّاسُ عَلَيْهِ أَنَّهُ رَابِطَةٌ.

ولقد تميز المسلمون وأستعلوا بدينهم، وأفتخروا بالانتماء إلى هذا الدين الذي هو سبب تلك العزة والرفعة والسيادة حين فتحوا الشرق والغرب. ولن يكون للمسلمين اليوم أَوْ غَدًا عزٌ إلا بالرجوع إلى هذه العقيدة عن حب وولاء لدين الله والمؤمنين به، وبراء من كل كافر ومشرك ومنافق ولو كان أقرب قريب. أما الإحسان إلى الوالدين وبرهما - وهما كافران - فهذا أمر باقٍ إلى قيام الساعة.

الفصل السابع

صور الموالاة ومظاهرها

إن جمع صور الموالاة ومظاهرها في فصل مستقل أمر له أهميته في مثل هذا البحث، وذلك حتى يكون القارئ على بينة من الأمور والقضايا التي تمسها قضية الولاء والبراء.

وأحب أن أنبه في هذا المقام على أنني لم ألزم نفسي بتتبع الحكم الشرعي في كل صورة من هذه الصور، وذلك لصعوبة القطع بالحكم في كل قضية، لأنه - كما يقول أهل العلم - قد يكون القول أو الفعل كفرًا، ولكن هناك ما يصرفه عن ظاهره فيما بين العبد وبين ربه، ولكن على العموم فهذه الصور تتفاوت من كون فاعلها خارجاً من الملة كمن يحب الكفار لأجل كفرهم إلى كبيرة من الكبائر كتعظيمهم والثناء عليهم^(٢٠٢). ذلك أن (مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة كذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات)^(٢٠٣). وقد حرص الدين الإسلامي على إخلاص العبادة «وهي الطاعة والانقياد» لله وحده والبراءة من كل متبوع أو مرغوب، أو مرهوب، وتعلق القلب بربه في الخشية والخوف والرجاء والعون والنصرة، لأن (كل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه: خضع قلبه لهم، وصار فيه من

(٢٠٢) «الدرر السنية»: (ج٧/٢٠١)، والهدية الثمينة: للشيخ/ عبدالله السليمان بن حميد: (ص ١٧).

(٢٠٣) «الرسائل المفيدة»: للشيخ/ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ: (ص ٤٣).

العبودية لهم بقدر ذلك.. ومعلوم أن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه وآسرق وأسر لا ييالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. أما إذا كان القلب متيمماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض (٢٠٤).

وخطورة موالاة الكفار تبرز في أن ضررها على المسلمين كافة أعظم من خطر من يكفر في نفسه فقط. ذلك أن (الإضرار بالمسلمين يزيد على تغيير الاعتقاد، ويفعله من يظن سلامة الاعتقاد، وهو كاذب عند الله ورسوله والمؤمنين في هذه الدعوى والظن، ومعلوم أن المفسدة في هذا أعظم من المفسدة في مجرد تغيير الاعتقاد) (٢٠٥) وإليك تفاصيل صور موالاة الكفار (٢٠٦).

(١) الرضى بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة (٢٠٧).

ويتضح هذا الأمر في كونه ولاء للكفار: إنه يسرهم ويسعدهم أن يروا من يوافقهم على كفرهم ويجاريهم على مذاهبهم الإلحادية.

وقد سبق في التمهيد القول بأن من معتقد أهل السنة والجماعة: أن حب القلب وبغضه يجب أن يكون كاملاً. فالذي يجب الكافر لأجل كفره فهو كافر بإجماع الأمة، ولم يخالف في ذلك أحد من علماء المسلمين.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

(٢٠٤) «رسالة العبودية» لابن تيمية: (ص ٩٥-٩٦).

(٢٠٥) «الصارم المسلول على شاتم الرسول» لابن تيمية: (ص ٣٧١).

(٢٠٦) من أحسن من كتب في ذلك الإمام/ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأبناؤه، لذلك فمعظم هذه الصنور منقولة من كتبه.

(٢٠٧) انظر نواقض الإسلام في «مجموعة التوحيد»: (ص ١٢٩) مطبعة الحكومة بمكة.

(أما حب القلب وبغضه، وإرادته وكرهيته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان. وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته. ومتى كانت إرادة القلب وكرهاته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل، ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكرهاته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله، وهذا من نوع الهوى، فإن أتبعه الإنسان فقد أتبع هواه:

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يُغَيِّرْهُدًى مِنَ اللَّهِ

[سورة القصص: ٥٠] (٢٠٨).

إذن: فالمحبة والرضى أمران جازمان لا يخرجان عن كونهما كفراً إذا كانا للكفار أو إيماناً إذا كانا للمؤمنين.

(٢) التولي العام واتخاذهم أعواناً وأنصاراً وأولياء أو الدخول في دينهم وقد نهى الله عن ذلك فقال:

لَا يَخِذْ الْمُؤْمِنُونَ بِالْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

[سورة آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير في تفسيرها:

(من اتخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً يواليهم على دينهم ويظاهرهم على المسلمين فليس من الله في شيء. أي قد برىء من الله وبرىء الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر. ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاهُ﴾ أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بالستكم

(٢٠٨) «شذرات البلاتين»: (ج ١/٣٥٤)، «رسالة الأمر بالمعروف».

وتضمرُوا العداوة، ولا تشابهوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل (٢٠٩).

وقال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١].

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها:

(من تولى اليهود والنصارى من دون المؤمنين فإنه منهم. أي من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا رضي به ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه) (٢١٠).

وقال ابن حزم:

(صح أن قول الله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ إنما هو على ظاهره: بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه أثنان من المسلمين) (٢١١).

وقال ابن تيمية:

(أخبر الله في هذه الآية: أن متوليهم هو منهم وقال سبحانه:

(٢٠٩) تفسير الطبري: (ج ٣/ ٢٢٨).

(٢١٠) المصدر السابق: (ج ٦/ ٢٧٧).

(٢١١) المحلى: (ج ١٣/ ٣٥) تحقيق حسن زيدان سنة ١٣٩٢ هـ الناشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرَةِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ
مَا اتَّخَذُوا آلِهَةً

[سورة المائدة: ٨١].

فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء وبضاده ولا يجتمع
الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. فالقرآن يصدق بعضه بعضاً (٢١٢).

وقال آبن القيم:

(إن الله قد حكم ولا أحسن من حكمه أنه من تولي اليهود
والنصارى، فهو منهم ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾، فإذا كان أولياؤهم
منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم. وهذا عام، خص منهم من يتولاهم
ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام فإنه لا يُقر ولا تُقبل منه الجزية. بل إما
الإسلام أو السيف لأنه مرتد بالنص والإجماع، ولا يصح إلحاق من دخل
في دينهم من الكفار قبل التزام الإسلام بمن دخل فيه من المسلمين؛ لأن
من دان بدينهم من الكفار بعد نزول القرآن فقد أنتقل من دين إلى دين خير
منه - وإن كانا جميعاً باطلين -، وأما المسلم فإنه قد أنتقل من دين الحق
إلى الدين الباطل بعد إقراره بصحة ما كان عليه وبطلان ما أنتقل إليه فلا يقر
على ذلك (٢١٣).

ويستبعد الأستاذ سيد قطب أن يكون بين المسلمين، من يميل إلى أتباع
اليهود والنصارى في الدين. وإنما المراد ولاء التحالف والتناصر. يقول رحمه
الله:

(إن الولاية المنهي عنها هنا ولاية التناصر والتحالف معهم، ولا تتعلق
بمعنى أتباعهم في دينهم، فبعيد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى
أتباع اليهود والنصارى في الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر الذي كان

(٢١٢) انظر «الإيمان» لابن تيمية: (ص ١٤) طبع المكتب الإسلامي.

(٢١٣) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم: (ج ١/٦٧، ٦٩).

يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأوصار، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله. يوضح ذلك قوله تعالى بشأن المسلمين الذين لم يهاجروا:

مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهِاجِرُوا

[سورة الأنفال: ٧٢].

أي ولاية التناصر والتعاون وليس ولاية الدين.

(نقول هذا: لأن البعض يخلط بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة: أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين!! أمام الكفار والملحدين. فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين.

فلندع من يغفل عن هذا ولنكن واعين للتوجيه القرآني: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ (الآية (٢١٤)).

(٣) الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى:

(٢١٤) «في ظلال القرآن»: (ج ٢/ ٩٠٩-٩١٠) بتصرف. وسيرد مزيد من التفصيل إن شاء الله عند الحديث عن زمالة الأديان!

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْفُتُونَ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

[سورة النساء: ٥١].

ونظير هذه الآية قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب:

وَلَتَجَاكَيْنَهُمُ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبِّدْ فِرْقَيْنِ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾
وَاتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَنَّ

[سورة البقرة: ١٠١ - ١٠٢].

فأخبر سبحانه أنهم اتبعوا السحر وتركوا كتاب الله كما يفعله كثير من اليهود وبعض المنتسبين إلى الإسلام. فمن كان من هذه الأمة موالياً للكفار: من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة كإتيانه أهل الباطل واتباعهم في شيء من فعالهم ومقالهم الباطل: كان له من الذم والعقاب والتفاق بحسب ذلك^(٢١٥). وإن هذه الصورة من صور الموالاة قد وقع فيها معظم المنتسبين إلى الإسلام اليوم، فالإيمان ببعض ما هم عليه أمر واقع في "العالم الإسلامي" لا ينكره إلا مكابر جاهل، فها هي البيغوات من أبناء أمتنا وممن ينطقون بالسنتنا قد آمنت بالشيوعية مذبة تارة وبلاشتركية تارة أخرى، وبالديمقراطية نظاماً أو العلمانية دستوراً، فأخذت هذه المبادئ الكافرة وطبقته في بلاد المسلمين ملزمة الناس بعبادتها "في الطاعة والانقياد والتنفيذ" ونصبت العداء لكل مسلم موحد ينادي في الأمة أن تعود إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(٢١٥) انظر فتاوى ابن تيمية: (ج ٢٨/١٩٩-٢٠١).

وهذه الردة الجديدة سيأتي تفصيل الحديث عنها إن شاء الله في الباب الأخير.

وإن من الإيمان ببعض ما هم عليه: مسألة فصل الدين عن الدولة وإنه لا علاقة للإسلام بالسياسة، فهذه أيضاً فرع للقضية السابقة، لم توجد إلا في أوروبا أيام الاضطهاد الكنسي لرجال العلم. ولكن أين الإسلام دين العدل ودين السياسة ودين القوة من "هرطقة" رجال الكنيسة حتى يأتي بعض الأقزام فيستورد تلك السموم من أوروبا ليلبس الإسلام قناعاً مزيفاً فيقول: الإسلام علاقة بين العبد وربّه والسياسة لها رجالها ولها قضاياها التي لا تمت إلى الدين بصلة^(٢١٦).

(٤) مودتهم ومحبّتهم: وقد نهى الله عنها بقوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ
الَّتِي كَفَرُوا بِهَا لَعَنَ اللَّهُ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
أَوْ إِخْوَانُهُمْ أَوْ عَشِيرَتُهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(أخبر الله أنك لا تجد مؤمناً يواد المحاذين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان أنتفى ضده، وهو موالات أعداء الله. فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه؛ كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب) (٢١٧).

(٢١٦) هناك كتاب أجلاء أفاضوا الحديث في هذه القضية منهم الاساتذة: د. محمد البهي والاستاذ سيد قطب والاستاذ محمد قطب والاستاذ المودودي وغيرهم. ومن أراد التفصيل الدقيق فعليه بمراجعة كتاب «العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي» للأخ الاستاذ/ سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

(٢١٧) «الإيمان»: (ص ١٣).

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ

[سورة الممتحنة: ١].

(٥) الركون إليهم:

قال تعالى:

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

[سورة هود: ١١٣].

قال القرطبي: الركون حقيقته: الاستناد والاعتماد، والسكون إلى الشيء والرضا به (٢١٨). وقال قتادة معنى الآية: لا توادوهم ولا تطيعوهم. وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم.

وهذه الآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم فإن صحبتهم كفر أو معصية. إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة كما قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي (٢١٩)
وقال تعالى:

وَلَوْلَا أَن نَّبَشَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ
تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٥٨﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ

(٢١٨) «تفسير القرطبي»: (ج ١٠٨/٩)، وانظر «البغوي والخازن»: (ج ٢٥٦/٣). أما البيت فهو لطرفة بن العبد.

(٢١٩) المصدر السابق.

الْحَيَوَةُ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

[سورة الإسراء: ٧٤ - ٧٥].

وإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلاة الله وسلامه عليه فكيف بغيره؟ (٢٢٠).

(٦) مدهانتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين:

قال تعالى:

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾

[سورة القلم: ٩].

والمداينة والمجاملة والمدارة على حساب الدين أمر وقع فيه كثير من المسلمين اليوم، وهذه نتيجة طبيعية للانهمام الداخلي في نفوسهم. حيث رأوا أن أعداء الله تفوقوا في القوة المادية فأنبهروا بهم، ولأمر ما رسخ وترسب في أذهان المخلدوعين أن هؤلاء الأعداء هم رمز القوة ورمز القدوة - فأخذوا ينسلخون من تعاليم دينهم مجاملة للكفار ولئلا يصمهم أولئك الكفرة بأنهم "متعصبون"! وصدق المصطفى ﷺ، إذ يقول في مثل هؤلاء: «لتبعن ستن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم».

قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ (٢٢١).

إن المداينة والمجاملة قد تبدأ بأمر صغير ثم تكبر وتنمو حتى تؤدي - والعياذ بالله - إلى الخروج من الملة. وهذه إحدى مزالق الشيطان فليحذر المسلم منها على نفسه، وليعلم أنه هو الأعز وهو الأقوى إذا أمثل منهج الله وتقيد بشرعه ومقتضيات عقيدته.

(٢٢٠) «مجموعة التوحيد»: (ص ١١٧) طر دار الفكر.

(٢٢١) «صحيح البخاري»: (ج ٣٠٠/١٣، ح ٧٣٢) كتاب الاعتصام، وصحيح

مسلم: (ج ٢٠٥٤/٤ ح ٢٦٦٩). واللفظ للبخاري.

ومن الأمور الواضحة في تاريخ المسلمين: أن من أكبر العوامل في انتصارهم - بعد الإيمان بالله ورسوله - الاعتزاز بالإسلام. يصدق ذلك ويؤيده قول الفاروق رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله» (٢٢٢).

(٧) آتخاذهم بطانة من دون المؤمنين:

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُوًّا مَا عَيْنُكُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَةَ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

[سورة آل عمران: ١١٨].

نزلت هذه الآية في أناس من المؤمنين كانوا يصفون المنافقين، ويواصلون رجلاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصدقة والجوار فأنزل الله هذه الآية تنهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم (٢٢٣).

وبطانة الرجل: خاصته، تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم. وقد بين الله العلة في النهي عن مباطنتهم فقال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، ثم إنهم يودون ما يشق عليكم من الضر والهلاك.

والعداوة التي ظهرت منهم: شتم المسلمين والوقية فيهم، وقيل: بإطلاع المشركين على أسرار المسلمين (٢٢٤). وفي سنن أبي داود قوله ﷺ: «الرجل

(٢٢٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک»: (ج ١/٦٢) كتاب الإيمان. وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه.

(٢٢٣) «أسباب النزول» للواحدي: (ص ٦٨).

(٢٢٤) انظر «تفسير البغوي»: (١/٤٠٩)، و«تفسير ابن كثير»: (٢/٨٩).

على دين خليله فليُنظر أحدكم من يخال (٢٧٥).

(٨) طاعتهم فيما يأمرُون ويشيرون به (٢٢٦):

قال تعالى ناهياً عن ذلك:

وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

[سورة الكهف: ٢٨].

وقال:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ آغْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

[سورة آل عمران: ١٤٩].

وقال:

وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

[سورة الأنعام: ١٢١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

(﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾) حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقد متم عليه غيره فهذا هو الشرك، كما قال تعالى:

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

[سورة التوبة: ٣١] (٢٢٧).

(٢٢٥) «سنن أبي داود: (ج ٥/١٦٨، ح ٤٨٣٣) كتاب الأدب، وفي «المسند»:

(ج ١٦/١٧٨، ح ٨٣٩٨)، طبعة شاكر، والترمذي: (ج ٧/١١١، ح ٢٣٧٩)

في «الزهدي»، وقال هذا: حديث حسن غريب.

(٢٢٦) «مجموعة التوحيد»: (ص ١١٧).

(٩) مجالستهم، والدخول عليهم وقت آستهزائهم بآيات الله:

قال تعالى في النهي عن مجالستهم:

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِمْ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

[سورة النساء: ١٤٠].

قال ابن جرير:

(قوله ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ أي إنكم إذا جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون فأنتم مثلهم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها.

وفي الآية دلالة واضحة على النهي عن مجالسة اهل الباطل من كل نوع من الكفرة والمبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم) (٢٢٨).

وفي الحديث: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابكم» (٢٢٩).

(١٠) توليتهم أمراً من أمور المسلمين:

كالإمارة والكتابة وغيرها، والتولية شقيقة الولاية لذلك فتوليتهم نوعاً

(٢٢٧) «تفسير ابن كثير»: (ج ٣/٣٢٢).

(٢٢٨) «تفسير الطبري»: (ج ٥/٣٣٠).

(٢٢٩) رواه أحمد في «المسند»: (ج ٨/٨٠، ح ٥٧٠٥) بتحقيق أحمد شاكر، و«صحيح

البخاري»: (ج ٨/١٢٥، ح ٤٤١٩) كتاب المغازي، و«صحيح مسلم»:

(ج ٤/٢١٨٥، ح ٢٩٨٠) كتاب الزهد.

من توليهم. وقد حكم الله أن من تولاهم فإنه منهم. ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم. والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً.

والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً. والولاية صلة فلا تجتمع معاداة الكافر أبداً. ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب - مثلاً - ومكاتبتهم الفرغ أعداء الإسلام، وتغنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان: لثناهم ذلك عن تقريرهم وتقليدهم الأعمال. فهذا الملك "الصالح" كان في دولته نصراني يسمى: محاضر الدولة أبا الفضل بن دخان ولم يكن في المباشرين أمكن منه. كان قذى في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين. بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكتاب الفرنج بأخبار المسلمين، وأعمالهم، وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها.

وكان مجلسه معموراً برسل الفرنج والنصارى وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الإدرار والضيافات، وأكابر المسلمين مجبوبون عن الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام. وحدث أن آت جمع في مجلس "الصالح" أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى فبسط لسانه في ذلك وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق. وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب، ولا يدرونه على الحقيقة لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً. والله تعالى يقول:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ

[سورة المائدة: ٧٣].

وأول أمانتهم وعقد دينهم: "بسم الآب والابن وروح القدس إله واحد"، فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا
حد رب السورى تعالى ثلاثة

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما أخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان ديناراً وأخذ لنفسه اثنين ولا سيما وهو يعتقد ذلك قرينة وديانة؟ وأنصرف القوم واتفق أن كبت النصارى بطنته، وظهرت خيانتهم فأريق دمه وسلط على وجوده عدمه (٢٣٠).

(١١) استثمانهم وقد خونهم الله:

قال تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِطَافٍ
يُؤْذِيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤْذِيهِ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ
سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

[سورة آل عمران: ٧٥].

(١٢) الرضى بأعمالهم والتشبه بهم، والتزبي بزعمهم (٢٣١):

(١٣) البشاشة لهم والطلاقة وأنشراح الصدر لهم وإكرامهم وتقريبهم (٢٣٢):

(١٤) معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم:

ويضرب القرآن لذلك مثالين هما: امرأة لوط التي كانت رداءً لقومها، حيث كانت على طريقتهن، راضية بأفعالهم القبيحة، تدل قومها على ضيوف لوط. وكذلك فعل امرأة نوح (٢٣٣).

(٢٣٠) «أحكام أهل الذمة لابن القيم: (ج ١/ ٢٤٢ — ٢٤٤) بتصرف بسيط.

(٢٣١) «مجموعة التوحيد»: (ص ١١٧).

(٢٣٢) «مجموعة التوحيد»: (ص ١١٧).

(٢٣٣) «تفسير ابن كثير»: (ج ٦/ ٢١٠) وقد سبق الحديث عنهما.

(١٥) مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم^(٢٣٤):

وهذه الصورة ظهرت واضحة في العصور الأخيرة فقد رأينا "أفراخ المستشرقين" - مثلاً - ينشرون فضائلهم وأنهم أصحاب المنهج العلمي السديد و.. و.. إلخ. كذلك جاء من ينشر "فضائل" الغرب أو الشرق مضافاً إليها ألقاب التقدم والحضارة والرقى، وواصماً الإسلام والمنتسبين إليه بالرجعية والجمود والتأخر عن مسيرة الركب الحضاري والأمم المتقدمة.

(١٦) تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم :

مثل: السادة والحكماء ومبادئهم بالسلام (ومما يجب النهي عنه ما يفعله كثير من الجهال في زماننا إذا لقي أحدهم عدواً لله سلم عليه ووضع يده على صدره إشارة إلى أنه يحبه محبة ثابتة في قلبه. أو يشير بيده إلى رأسه إشارة إلى أن منزلته عنده على الرأس، وهذا الفعل المحرم يُحسَى على فاعله أن يكون مرتداً عن الإسلام؛ لأن هذا من أبلغ الموالاة والمودة والتعظيم لأعداء الله)^(٢٣٥).

والتعظيم واللقب الرفيع رمز للعزة والتقدير وهما مقصورتان على المؤمن. أما الكافر فله الإهانة والذلة. وقد ورد في الحديث الصحيح النهي عن مبادئهم بالسلام فقال عليه السلام: «لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فأضطروه إلى أضيقه»^(٢٣٦) وسيأتي تفصيل هذه القضية في الباب الثاني.

(١٧) السكنى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم^(٢٣٧):

-
- (٢٣٤) «مجموعة التوحيد»: (ص١١٧)، ورسائل سعد بن عتيق: (ص١٠١).
(٢٣٥) «تحفة الإخوان» للشيخ حمود التويمري: (ص١٩)، الطبعة الأولى، مؤسسة النور بالرياض.
(٢٣٦) «صحيح مسلم»: (ج٤/١٧٠٧، ح٢١٦٧) كتاب السلام، وأبو داود: (ج٥/٣٨٤، ح٥٢٠٥) في الأدب.
(٢٣٧) «الرسائل المفيدة» للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: (ص٦٤).

قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» (٢٣٨). وقال: «لا تساكنا المشركين ولا تجامعهم فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منا» (٢٣٩). وسوف يأتي - بمشيئة الله - في الباب الثاني تفصيل لهذه المسألة إذا كانت هناك ضرورة لهذه المساكنة.

(١٨) التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم، والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم، والتجسس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم، والقتال في صفهم (٢٤٠):

وهذه الصورة من أخطر ما أبليت به أمتنا في هذا العصر. ذلك أن وجود ما يسمى في المصطلح الحديث "الطابور الخامس" قد أفسد أجيال الأمة في كل مجال سواء في التربية والتعليم أم في السياسة وشؤون الحكم أم في الأدب والأخلاق أم في الدين والدنيا معاً. وصدق الشاعر محمود أبو الوفا فيما نقله عنه أستاذنا الفاضل الشيخ محمد قطب أنه قال حين خرج الاستعمار الانجليزي من مصر: (خرج الانجليز الحمر وبقي الانجليز السمر!!) - نعم إن داءنا هم الانجليز السمر.

ترى من هو الساهر على تنفيذ خطة «دنلوب» في التربية والتعليم؟ ومن هو القائم بتنفيذ مخططات اليهود الثلاثة: فرويد وماركس ودور كايم في أفكارهم الخبيثة؟ (٢٤١). إنهم المستغربون من أبناء هذه الأمة الذين حققوا

(٢٣٨) أبو داود: (ج٣/٢٢٤، ح٢٧٨٧) كتاب الجهاد، وقال الشيخ الألباني: حديث حسن، انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج٦/٢٧٩، ح٦٠٦٢).

(٢٣٩) الحاكم في «المستدرك»: (ج٢/١٤١)، وقال صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢٤٠) «الإيمان. حقيقته. أركانه. نواقضه» للدكتور محمد نعيم ياسين: (ص١٤٧).

(٢٤١) يراجع كتاب «التطور والثبات في حياة البشرية» للأستاذ محمد قطب: (ص٣٥) =

لأعداء الله ما لا يحملون به. ولكن هيهات لهم فإن الله يقول:

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِِبَادِنَا الَّذِينَ يَرْسِلِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمْ لَكُذَّبُونَ ﴿٣٢﴾
وَلَنْ جُنْدًا لَهُمْ الْعَزِيزُونَ

[سورة الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

(١٩) من هرب من دار الإسلام إلى دار الحرب بغضاً للمسلمين وحباً للكافرين (٢٤٢).

(٢٠) من آنخرط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية كالشيوعية والاشتراكية والقومية والماسونية وبذل لها الولاء والحب والنصرة (٢٤٣).

ما يقبل من الأعذار وما لا يقبل في هذه الصور

قد يعتذر بعض الموالين للكفار بأنهم يخافون على سلطانهم وأموالهم ومراكزهم وغير ذلك من المخاوف التي لا تصح، ولا يعتبرها الله، عذراً لهم فيعذرهم من أجلها. لأنها جميعاً من تزوين الشيطان وتسويله، وحب الدنيا والطمع في زينتها.

والله سبحانه وتعالى لم يقبل عذراً لأحد في إظهار موالاته للكفار وطاعتهم وموافقتهم على دينهم إلا عذراً واحداً هو: الإكراه.

قال تعالى:

= فصل: اليهود الثلاثة، وكتاب «هل نحن مسلمون؟» (ص ١٣٣)، وكتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٢٤٢) «الردة بين الأمس واليوم»: (ص ٣٣).

(٢٤٣) المصدر السابق: (ص ٤٠).

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ لَا مَنْ أَكْثَرَهُ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^{٢٤٤}
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

[سورة النحل: ١٠٦ - ١٠٧].

وقال سبحانه:

لَا يَتَّبِعِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَتَنَفَّسُوا مِنْهُمْ
نَفْسًا

[سورة آل عمران: ٢٨].

والإكراه لا ينفع أحداً فيما يتعلق بالرضى القلبي، والميل الباطني إلى
الكفار لأنه غير مأذون فيه على أية حال لقوله تعالى: ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾^{٢٤٥}
ولأن الإكراه لا سلطان له على القلوب. فإنه لا يعلم ما في القلب إلا الله.

فمن وإلى الكفار بقلبه ومال إليهم فهو كافر على كل حال. فإن أظهر
موالاته بلسانه أو بفعله عومل في الدنيا بكفره وفي الآخرة يخلد في النار، وإن
لم يظهرها بفعل ولا قول وعمل بالإسلام ظاهراً عصم ماله ودمه وهو منافق
في الدرك الأسفل من النار^(٢٤٤).

موقف المسلم تجاه هذه الصور :

الولاء والبراء هو الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة وهو مفهوم
ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة.

(٢٤٤) انظر «الإيمان» للدكتور محمد نعيم ياسين: (ص ١٤٧ - ١٤٨).

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ:

قَدَّبَتَيْنَ الرُّشْدُ

مِنَ الْتِيْ فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ

أَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

[سورة البقرة: ٢٥٦].

وَاللَّهُ جَلُّ جَلَالِهِ أَرَادَ لِلْمُسْلِمِ - بَلْ لِلْإِنْسَانِ - الْكَرَامَةَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

[سورة الإسراء: ٧٠].

فحين يكون ولاء المسلم لله ولدينه وحزبه المؤمنين فهو بهذا يقدر هذا التكريم حق قدره، ويعبد الله حق عبادته، لأنه تخلى بل وعادى كل عبودية تريد إخضاعه لسلطانها من دون الله.

أما حين ينتكس فيعبد غير الله - سواء بالشعائر أم بالشرائع أم بالطاعة والانقياد - فإنه بهذا يهبط من تلك المكانة والكرامة إلى عبودية أهواء شتى، وآراء ومذاهب تمزق عليه حياته وتضيع عليه آخرته، فيعيش شقيًّا - وإن زعم أنه سعيد -، ذلك أن مقياس السعادة والشقاوة في التصور الإسلامي، نابع من عبادة الله وحده، وتحكيم شرعه، والخلوص له. أو عكس ذلك: عبادة الطاغوت والهوى والشهوة وتلك هي دركات-الشقاء التي يعيش فيها كل من أعرض عن هدى الله ودينه.

وموالة غير المؤمنين - فضلاً عن أنها ردة وعصيان لله سبحانه - هي مصدر التذبذب والفصام التكد في حياة فاعلها، لأنه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وفي هذا العصر الذي اختلطت فيه المفاهيم، وأضطربت فيه الآراء، وخلط الحق بالباطل بل أقصي الحق ورفعت شارة الباطل: أين يقف المسلم؟ أين يكون ولاؤه؟ ولمن يكون؟ وهو يرى الكفر الصريح معلناً ومنفذاً في حياة الناس ثم يوضع لذلك "لافتة بسيطة"، إن هذا لا يتعارض مع الإسلام؟

ومثال ذلك من يدين بالاشتراكية أو الديمقراطية أو العلمانية أو القومية أو الشيوعية ثم يقال: هذا لا يعارض الإسلام لأنه علاقة بين العبد وربّه. لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى شرع الله معبداً من الأرض ومحارباً، ثم يستورد القانون البشري ليكون هو دستور الناس في حياتهم ومنهج مسيرتهم ويقال: إن هذا لا يعارض الإسلام لأن التشريع الإسلامي - سواء قيلت بلسان الحال أو المقال - لم يعد مسaireاً لركب الحضارة والتطور؟!

لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى المنافقين يتمسحون باسم الإسلام وهم في الحقيقة أخطر على الدين من أعدائه الصرحاء؟

هذه أسئلة وأسئلة غيرها كثيرة.. والإجابة عليها تكمن في الحقيقة التالية: إنه لا يمكن للمسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه وللمؤمنين خالصاً إلا إذا كان مدركاً لحقيقة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ممثلاً لها، مدركاً مدلولها ومعناها عارفاً بمقتضياتها ولوازمها.

ثم علمه بالجاهلية والشرك والكفر والردة والنفاق حتى لا يكون مصيدة للوقوع في هذا الشر. لأنه لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

ثم علمه بحقيقة الولاء والبراء في المفهوم الإسلامي الصحيح وهو: أن الولاء والحب والنصرة للمؤمنين من أي جنس كانوا وبأي لغة نطقوا وفي أي مكان حلوا، لأنه لا يؤمن بما تؤمن به الجاهليات من لوثة الدم وتنن العرق وخسة التراب.

فهو مع إخوانه المؤمنين بقلبه ولسانه وماله ودمه، يألم لألمهم ويفرح لفرحهم، وبغضه وبرائه لجميع أعداء الله، سواء كانوا كفاراً أصليين أم مرتدين أم منافقين، وموقفه منهم: الجهاد بالنفس والمال والقلم واللسان وكل ما أوتي من طاقة وعلى حسب جهده وطاقته.

إن هذه الحقيقة هي التي - إذا أدركها المسلم وعمل بها - يستطيع بها

أن يحدد موقفه من كل صورة من الصور السابقة وغيرها، فيعرف من يوالي ومن يعادي، وماذا يريد الإسلام منه وماذا يراد للإسلام من أعدائه. وهو بهذا يكون مسلماً واعياً عزيزاً بعزة الله غير واهن ولا حزين لأن الله معه وهو القائل:

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

[سورة آل عمران: ١٣٩].

ومن كان الله معه فلن تضيره أن تجتمع البشرية بكاملها لأن تضره، فهي بمجموعها لا تستطيع ذلك، إلا إذا كان الله يريد له ذلك، وإلا فهي أعجز من أن تنال منه شيئاً بسيطاً بغير قدر الله وإرادته.

الفصل الثامن

الرد على الخوارج والرافضة في عقيدة الولاء والبراء

قد يقول بعض من لا يدرك حقيقة العقيدة، ولا يعي مفاهيم ”لا إله إلا الله“: إن مصطلح الولاء والبراء من مصطلحات الخوارج والشيعة فكيف يدرج في معتقد السلف الذين هم أهل السنة والجماعة؟

والجواب على هذا الاعتراض: من عدة وجوه:

(١) نحن مطالبون بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهما عقيدتنا وشريعتنا ونظام حياتنا، وأحسب أنني قد ذكرت عدداً كبيراً جداً من عشرات الآيات في الولاء والبراء وعشرات الأحاديث النبوية الصحيحة في هذه القضية.

(٢) من منطلق عقيدة سلفنا الصالح نقول: لسنا مستعدين للتنازل عن أي أمر من أمور ديننا الصغيرة فضلاً عن أمور العقيدة الكبرى لأجل أن ناعقاً أخذ بعض مصطلحاتنا وبنى عليها مفاهيمه البدعية المنكرة.

(٣) هل يستطيع مسلم يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله أن يقول إن إبراهيم عليه السلام - وهو القدوة الأولى في الولاء والبراء كما ذكرنا - استخدم مصطلحات الخوارج والرافضة الذين جاعوا بعده بآلاف السنين؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

(٤) إن قضية الولاء والبراء باعتبارها مبدأ عقدي: مبدأ صحيح لا غبار عليه ورد به كتاب الله وسنة نبي الله ولكن الخطأ كل الخطأ والبدعة كل البدعة هو ما بنى عليه هؤلاء السفهاء - من خوارج ورافضة - من

مفاهيم سقيمة خرجوا بها عن النصوص الصريحة وإجماع الأمة المحمدية.
وصدق القائل:

وما ضر الورود وما حوته
إذا المذكوم لم يطعم شذاها

معتقد الخوارج في هذه القضية

أما الخوارج فهم الذين قال فيهم إمام السنة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه:

(هم الذين مرقوا من الدين، وفارقوا الملة، وشردوا عن الإسلام، وشذوا عن الجماعة فضلوا السبيل والهدى، وخرجوا على السلطان، وسلوا السيف على الأمة، وآستحلوا دماءهم وأموالهم، وعادوا من خالفهم إلا من قال بقولهم. وكان على مثل قولهم ورأيهم، وثبت معهم في بيت ضلالتهم، وهم يشتمون أصحاب محمد ﷺ وأصحابه وأختانه، ويتبرأون منهم، ويرمونهم بالكفر والعظائم، ويرون خلافهم في شرائع الإسلام.. يقولون من كذب كذبة، أو أتى صغيرة أو كبيرة من الذنوب فمات من غير توبة: فهو في النار خالداً مخلداً أبداً.. وهم قدرية جهمية مرجئة رافضة، لا يرون الجماعة إلا خلف إمامهم.. ولا يرون للسلطان عليهم طاعة، ولا لقريش عليهم خلافة. وأشياء كثيرة يخالفون عليها الإسلام وأهله. وكفى بقوم ضلالة: أن يكون هذا رأيهم ومذهبهم ودينهم وليسوا من الإسلام في شيء. ومن أسمائهم الحرورية وهم أصحاب حروراء^(٢٤٧) وأزارقة: وهم أصحاب نافع بن الأزرق.. والنجدية: وهم أصحاب نجدة بن عامر الحروري.. والاباضية.. والصنفية وغيرهم.. كل هؤلاء خوارج، فساق مخالفون للسنة، خارجون من

(٢٤٦) قرية بالكوفة كانت بها وقعة على الخوارج بقيادة نجدة بن عامر. انظر هامش «السنة» للإمام أحمد: (ص ٨٤) وكتب الفرق.

الملة، أهل بدعة ضلالة) (٢٤٨).

وفرقه الخوارج قد آنحرفت في مفهوم الولاء والبراء فهي لا تتولى إلا من يدين بنحلته القائمة على تكفير مرتكب الذنوب وخاصة الكبائر. وموقفهم من صحابة رسول الله ﷺ أنهم يتولون أبا بكر وعمر ويتبرأون من عثمان وعلي (٢٤٩).

وخلاصة القول في الرد عليهم: أن أهل السنة والجماعة يتبرأون منهم بسبب بدعتهم الضالة. ولا يتولونهم في شيء.

أما الولاء والبراء بمفهومه الصحيح فهو ما عليه أهل السنة والجماعة، ولا يضيرهم أن الخوارج قالوا بقضية الولاء والبراء. لأن العبرة ليست في العناوين والشعارات، بل في المفاهيم والتصورات التي توافق الكتاب والسنة أو تناقضها، ومن هنا فإن ولاء الخوارج وبراءهم الذي يعتقدونه: إنما هو بحسب أهوائهم وليس متفقاً مع نصوص الكتاب والسنة.

معتقد الرافضة في الولاء والبراء

وأما الرافضة: فهم الذين يتبرأون من أصحاب محمد ﷺ ويسبونهم وينتقصونهم، ويكفرون الأئمة إلا أربعة: علياً، وعماراً، والمقداد، وسلمان (٢٥٠).

وقال الأشعري: إنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر (٢٥١).

ولكن كان الخوارج قد آنحرفوا في الأمور التي ذكرناها آنفاً عنهم: فإن

(٢٤٧) كتاب «السنة» للإمام أحمد: (ص ٨٣ - ٨٥) تصحيح إسماعيل الأنصاري (بتصرف بسيط).

(٢٤٨) «التنبيه والرد» للملطي: (ص ٥٣).

(٢٤٩) «السنة» للإمام أحمد: (ص ٨٢). وفي قوله: يكفرون الأئمة الأربعة نظر فلعل الصواب: إلا أربعة.

(٢٥٠) «مقالات الإسلاميين»: (ج ١/ ٨٩).

الرافضة أيضاً لا يقلُّون جرماً عنهم، حيث وقفوا من أصحاب رسول الله ﷺ موقفاً مشيناً، ولعبت بهم الأيدي اليهودية الممثلة في شخصية عبد الله بن سبأ التي أخذت تنصب خيالات من الحب الكاذب لآل البيت، وتبرأ من بقية أصحاب رسول الله ﷺ وتعاديهم، مع أن آل البيت براء مما ألصقه بهم هؤلاء الرافضة.

قال ابن كثير:

(إن الطائفة المخذولة - الرافضة - يعادون أفضل الصحابة ويغضونهم ويسبونهم عياداً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي الله عنهم^(٢٥٢)؟ أما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله. وهم متبعون لا مبتدعون.)^(٢٥٣).

والرافضة تقول: لا ولاء إلا ببراء: أي لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر. رضي الله عنهما!^(٢٥٤).

ولكن لا غرابة في ذلك من زمرة فضائحها في الكتب مسطورة. فقد كانت الرافضة على طول تاريخها حرباً على أهل الإسلام، يوالون أعداء المسلمين من تثار وصلبيين وغيرهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الرافضة توالي من حارب أهل السنة والجماعة، فهم يوالون التثار ويوالون النصاري. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة، حتى صارت الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم، وغلمان السلطان، وغيرهم من

(٢٥١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [سورة التوبة: ١٠٠].

(٢٥٢) «التفسير»: (ج ٤/١٤٢).

(٢٥٣) «شرح الطحاوية»: (ص ٥٣٢).

الجند والصبيان. وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور. وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة، وقتل أهل بغداد.

ووزير بغداد آبن العلقمي الرافضي هو الذي خامر على المسلمين وكاتب التتار، حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، ونهى الناس عن قتالهم.

(وقد عرف العارفون بالإسلام: أن الرافضة تميل مع أعداء الدين، ولما كانوا ملوك القاهرة كان وزيرهم مرة يهودياً، ومرة نصرانياً أرمينياً، وقويت النصرارى بسبب ذلك النصراني الأرميني، وبنوا كنائس كثيرة بأرض مصر في دولة أولئك الرافضة المنافقين، وكانوا ينادون بين القصرين: من لعن وسب فله دينار وإردب.

وفي أيامهم أخذت النصرارى ساحل الشام من المسلمين حتى فتحه نور الدين وصلاح الدين (٢٥٥).

ومن أحفادهم في الوقت الحاضر النصيرية الكافرة التي آبتلي بها المسلمون، ذلك أن كفرها أشد من كفر اليهود والنصارى كما قرر ذلك شيخ الإسلام آبن تيمية وغيره. وهم الذين كانوا أداة طيعة للاستعمار الفرنسي في غزوه لبلاد الشام. ويشنون اليوم حرباً شرسة على المسلمين في ديارهم وبعد: فإن أهل السنة والجماعة هم الذين يحبون أصحاب رسول الله ﷺ، ولا يفرطون في حب أحد منهم، ويتولونهم جميعاً ولا يتبرأون من أحد منهم،

(٢٥٤) «الفتاوى»: (ج ٢٨/٦٣٦ - ٦٣٧).

ويغضون من يغضهم ويرون أن حبههم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان^(٢٥٦).

وهم براء من الخوارج والرافضة ومن كل الفرق الضالة.

(٢٥٥) انظر «الطحاوية مع شرحها»: (ص ٥٢٨)، وقد اطلعت — بعد كتابة هذا الكتاب — على كتاب قيم يكشف أستار الشيعة ويفضحهم في عصرنا الحاضر وخصوصاً زعيمهم (الخميني) ذلك الكتاب هو «وجاء دور المجوس» لمؤلفه الدكتور عبد الله محمد الغريب، وهو كتاب قيم في موضوعه فليراجعه من شاء ليستبين زيف باطلهم وخططهم ضد أهل السنة والجماعة.

الباب الثاني

من مقتضيات الولاء والبراء

من مقتضيات الولاء والبراء

سبق القول في أول البحث: أن الولاء أصله: الحب، والبراء أصله: البغض، وينشأ عنهما من أعمال الجوارح ما يؤيد صدق ذلك الحب أو يكذبه، وما يؤيد ذلك البراء أو ما يطل زعمه.

والحب عنصر أصيل في التصور الإسلامي، دليل ذلك قول المولى جل وعلا:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا

[سورة مريم: ٩٦].

وقوله:

إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ

[سورة هود: ٩٠].

وقوله:

وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾

[سورة البروج: ١٤].

وقوله:

الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥].

وقوله:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

[سورة آل عمران: ٣١].

ذلك أن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية لا تجفف ذلك النداء الحبيب بين الله وعباده، فهي علاقة الرحمة والعدل والود وليست كما يدعي أعداء الله: أن العلاقة بين العبد وربّه علاقة جافة وعنيفة، علاقة قهر وقسر، وعذاب وعقاب، وجفوة وانقطاع!

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا

[سورة الكهف: ٥].

وحب الله لعبده أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من عرفه. الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه وكما وصفه رسوله، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره.

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها. وإذا كان حب الله لعبده أمراً هائلاً عظيماً، وفضلاً غامراً جزيلاً، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل هو إنعام هائل عظيم^(١).

ومن نعمة الله على عباده المؤمنين أن جعل المحبة فيه هي الوشيجة العظمى بينهم، وهي المورد العذب الذي ينهلون منه جميعاً، ثم جعل سبحانه وجود المحبة للقوم ولما يلحق بهم المحب سبيلاً للحاق بهم يؤيد ذلك قوله ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٢). وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٣).

وعن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة

(١) «الظلال»: (ج ٢/ ٩١٨ - ٩١٩) بتصرف.

(٢) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/ ٥٥٧، ح ٦١٦٨) كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله.

(٣) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/ ٥٥٧، ح ٦١٦٩) كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/ ٢٠٣٤، ح ٢٦٤٠) كتاب البر.

ولكني أحب الله ورسوله قال: «أنت مع من أحببت»^(٤).
 على أن من الواجب ذكره هنا: أن هذا الحب ليس مجرد أمني أو
 أحلام تناقضها الأفعال القبيحة. أو "هرطقة" رقعاء الصوفية أو.. أو.. إلخ
 وإنما هو حب بالقلب وعمل بالجوارح قال الله تعالى:

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ

وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ
 وَلَا يَحْذِلْهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

[سورة النساء: ١٢٣].

وقال:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

[سورة آل عمران: ٣١].

قال الحسن: لا تغتر بقولك: المرء مع من أحب إن من أحب قوماً أتبع
 آثارهم، ولن تلحق الأبرار حتى تتبع آثارهم، وتأخذ بهديهم، وتقتدي بستمهم،
 وتمسي وتصبح وأنت على منهاجهم، حريصاً أن تكون منهم، وتسلك
 سبيلهم وتأخذ طريقهم، وإن كنت مقصراً في العمل فإن ملاك الأمر أن تكون
 على استقامة، أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء الرذيلة يحبون أنبياءهم
 وليسوا معهم لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلخوا غير طريقهم فصار
 موردتهم النار؟^(٥).

والمحبة تنقسم إلى أربعة أقسام^(٦):

(٤) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٥٥٧، ح ٦١٧١) كتاب الأدب، باب علامة

الحب في الله، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/٢٠٣٢، ح ٢٦٣٩) كتاب البر.

(٥) «الحكم الجديدة بالإذاعة من قول النبي: بعثت بالسيف بين يدي الساعة لابن
 رجبه: (ص ١٣٣) تحقيق محمد حامد الفقي.

(٦) ذكر ذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب: «مجموعة التوحيد»: (ص ١٧)، طبعة
 دار الفكر.

(١) محبة شركية: وأصحابها هم الذين قال الله فيهم:

وَمِنْ

النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوُونَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿٣٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا
لِنَاكِرَةٍ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾

[سورة البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

(٢) حب الباطل وأهله، وبغض الحق وأهله وهذه صفة المنافقين.

(٣) محبة طبيعية: وهي محبة المال والولد إذا لم تشغل عن طاعة الله
ولا تعن على محارم الله فهي مباحة.

(٤) حب أهل التوحيد وبغض أهل الشرك: وهي أوثق عرى الإيمان، وأعظم
ما يعبد به العبد ربه.

وما دامت المحبة في الله هي أوثق عرى الإيمان كما ورد في الحديث
«أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» (٧) فإن الطريق الموصل
إليها وإلى موالاة الله عز وجل هو: اتباع شرعه الذي جاء به محمد ﷺ،
وبغير هذا الطريق تكون دعوى الولاية كاذبة كما كان المشركون يتقربون
إلى الله تعالى بعبادة من يعبدونه من دونه كما قال الله عنهم:

مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى

[سورة الزمر: ٣]

وكما حكى عن اليهود والنصارى أنهم قالوا:

(٧) سبق تخريجه في التمهيد: ص ٤٣.

مَنْ أَبْغَضَ اللَّهَ وَأَحْبَبَهُ

[سورة المائدة: ١٨].

مع إصرارهم على تكذيب رسله وارتكاب مناهيه وترك فرائضه^(٨). ومتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محاذ ذلك من القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه وإرادته إلا ما يريد منه مولاه، فإذا تحقق القلب بالتوحيد التام لم يبق فيه حبة لغير الله، ولا كراهة لغير ما يكره الله، ومن كان كذلك لم تنبعث جوارحه إلا بطاعة الله، وإنما تنشأ الذنوب من حبة ما يكره الله، أو كراهة ما يحبه الله وذلك ينشأ من تقديم هوى النفس على حبة الله وخشيته^(٩).

ويصور شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عظمة حبة الله ولذتها فيقول: (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة) . وقال بعضهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه^(١٠).

أما البغض في الله فهو أمر ملازم للحب في الله لا ينفصل عنه، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يوالي محبوبه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويبغض لبغضه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك.

ومعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه، ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى:

(٨) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: (ص ٣١٦).

(٩) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: (ص ٣٢٠).

(١٠) مدارج السالكين: (ج ١/ ٤٥٤).

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ
بُنِينَ مَرُصُوسٌ

[سورة الصف: ٤].

وقد وصف المولى سبحانه وتعالى عباده الذين يحبهم ويحبونه فقال:

أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ

[سورة المائدة: ٥٤].

أي إنهم يعاملون المؤمنين بالذلة واللين وخفض الجناح، ويعاملون الكافرين بالعزة والشدة عليهم، والغلظة لهم. فهم يحبون من أحبه الله فيعاملونه بالمحبة والرأفة واللين، ويغضون أعداء الله الذين يعادونه فيعاملونه بالشدة والغلظة كما قال تعالى:

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِيمًا بَيْنَهُمْ

[سورة الفتح: ٢٩].

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ

[سورة المائدة: ٥٤].

وأعداء الله لهم البغض ولهم من المؤمنين الجهاد:

عَلَيْهِمْ قِتْلُهُمْ يَعِدُ بِهِ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ

[سورة التوبة: ١٤].

ومن هنا فإن مقتضيات الولاء والبراء: حق المسلم على المسلم.

فما هو ذلك الحق؟

(١١) انظر «التحفة العراقية»: (ص ٦٤ — ٦٥).

(١٢) انظر «جامع العلوم والحكم»: (ص ٣١٧).

الفصل الأول

حق المسلم على المسلم

قلنا: إن المحبة في الله هي الوشيجة العظمى التي ألتقى عليها المؤمنون، ويلتقون عليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وعلى هذه الوشيجة تنبني حقوق المسلم على المسلم، وهي كثيرة جداً: النصرة، والمودة، والزيارة، والإكرام، والسلام، وحماية العرض، والمواساة وغير ذلك مما هو منصوص عليه في الكتاب والسنة.

ولكن الحقوق التي أتحدث عنها هي ما يتعلق بموضوع البحث. ومن هذه الحقوق:

(١) المودة: وهذه للمؤمنين من بعضهم لبعض، فليس للكافر ولا للفاسق ولا للمبتدع فيها نصيب، ومن هذه المودة حب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه^(١٣).

(٢) النصرة: وهذه واجب أخوي إيماني على كل مسلم لأخيه المسلم من أي جنس كان وفي أي أرض حل، وبأي لون كان، ينصره بنفسه وبماله وبالذنب عن عرضه ولذلك ورد التهديد لمن يترك ذلك وهو قادر عليه. قال ﷺ: «ما من أمرىء يخذل أمراً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة ويتنقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته وما من أمرىء ينصر مسلماً في موضع يتنقص فيه من عرضه وينتهك فيه من

(١٣) «صحيح البخاري»: (ج ١/٥٧، ح ١٣) كتاب الإيمان، و«صحيح مسلم»: (ج ١/٦٧، ح ٤٥) كتاب الإيمان.

حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته»^(١٤).

وقد أمتدح سبحانه وتعالى الأنصار رضوان الله عليهم في نصرتهم
لأخوانهم المهاجرين فقال سبحانه:

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

[سورة الأنفال: ٧٤].

ومن الأوامر النبوية في شأن النصر قوله ﷺ: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»^(١٥). ونصرته إذا كان مظلوماً ظاهرة أما نصرته إذا كان ظالماً فبرده عن الظلم ومنعه عنه. وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله عز وجل في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» متفق عليه^(١٦).

والمسلم داخل المجتمع الإسلامي ما هو إلا عضو عامل كأي عضو من أعضاء الجسد فإذا حصل لهذا العضو مرض أو اختل عمله تأثر لذلك بقية الجسد، ويصور ذلك المصطفى ﷺ في قوله الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(١٧). وقوله: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم

(١٤) أبو داود: (ج ٥/١٩٧، ح ٤٨٨٤) كتاب الأدب، والمسند: (ج ٤/٣٠). وقال الألباني: حديث حسن، انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٥/١٦٠، ح ٥٥٦٦).

(١٥) «صحيح البخاري»: (ج ٥/٩٨، ح ٢٤٤٣) كتاب المظالم.

(١٦) «صحيح البخاري»: (ج ٥/٩٧، ح ٢٤٤٢) كتاب المظالم، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/١٩٩٦، ح ٢٥٨٠) كتاب البر والصلة.

(١٧) سبق تخريجه: ص ١٨٧.

مثل الجسد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (١٨).
وقال أيضاً: «المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه» (١٩).

ولو أردنا تتبع كل النصوص في هذا الشأن لطال الحديث أكثر من هذا: وسيرة المصطفى ﷺ وأصحابه وخير القرون بعده والذين سلكوا سبيله وآتتوا بهديه على مدار التاريخ الإسلامي: تؤكد هذه الحقيقة الهامة.

ولقد كان ألتحام المسلمين ونصرة كل منهم لأخيه مثلاً فريداً في تاريخ التلاحم والتواصل والتناصر سواء على مستوى الأمة أم الأفراد. حيث حققوا الموالاة والمعادة على أوضح صورهما.

ولن ينتصر المسلمون إلا إذا تحقق فيهم - بعد صفاء العقيدة ووضوحها - حب المسلم لأخيه كحبه لنفسه، وشعوره بآلام أخيه كشعوره بما يصيبه هو، وحب نصرته كما يحب أن ينصره هو، وآله ينصر من ينصره إن آله لقوي عزيز.

وتتحقق النصر بعدة أمور منها: الدفاع بالنفس عن الأخ المسلم وكسر شوكة الظالمين وبذل المال له لإعزازه وتقوية جانبه، والذب عن عرضه وسمعته والرد على أهل الباطل الذين يريدون خدش كرامة المسلمين. والدعاء للمسلم بظاهر الغيب بالنصر والتوفيق وتسديد الخطي، وتتبع أخبار المسلمين في أنحاء المعمورة والوقوف على أحوالهم ودعمهم بقدر الاستطاعة.

كل هذه الأمور تحقق للإنسان ولاءه لأخوانه المسلمين وتجعله عضواً عاملاً صالحاً في جسم الكيان الإسلامي.

(١٨) سبق تخريجه: ص ١٩٢.

(١٩) «الأدب المفرد» للبخاري: (ص ٧٠)، وأبي داود: (ج ٥/٢١٧، ح ٤٩١٨)

كتاب الأدب، والحديث حسن. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٦/٦،

ح ٦٥٣٢).

الفصل الثاني

الهجرة

هذا الفصل له أهمية خاصة، ذلك أن الهجرة مرتبطة بالولاء والبراء، بل هي من أهم تكاليفهما. والحديث فيها متشعب لذلك سأقسمه إلى الفقرات التالية:

- (أ) الإقامة في دار الكفر وحكم ذلك.
- (ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.
- (أ) الإقامة في دار الكفر :

لا بد لنا أولاً أن نعرف دار الكفر ودار الإسلام. فقد قال أهل العلم رحمهم الله:

إن دار الكفر: هي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر، ويكون النفوذ فيها للكفار وهي على نوعين:

(١) بلاد كفار حريين.

(٢) بلاد كفار مهادين بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة. فتصير إذا كانت الأحكام للكفار: دار كفر، ولو كان بها كثير من المسلمين^(٢٠).

ودار الإسلام: هي التي يحكمها المسلمون، وتجري فيها الأحكام الإسلامية ويكون النفوذ فيها للمسلمين ولو كان جمهور أهلها كفاراً^(٢١).

(٢٠) «الفتاوى السعدية» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي: (ج ١/٩٢)، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٨هـ، دار الحياة بدمشق.

(٢١) المصدر السابق: (ج ١/٩٢).

ولما كان الإسلام هو دين العزة ودين القوة: فإنه قد أتى على معتنقيه أن يُستدلوا للكفار، ولذلك جاء المنع من الإقامة بين ظهرائي غير المسلمين، لأن إقامته بينهم تشعره بالوحدة والضعف وترى فيه روح الاستخذاء والاستكانة، وقد تدعوه إلى المحاسنة ثم المتابعة. والإسلام يريد للمسلم أن يمتلئ قوة وعزة وأن يكون متبوعاً لا تابعاً، وأن يكون ذا سلطان ليس فوقه إلا سلطان الله لذلك حرم الإسلام على المسلم أن يقيم في بلد لا سلطان للإسلام فيه إلا إذا استطاع أن يظهر إسلامه ويعمل طبقاً لعقيدته دون أن يخشى الفتنة على نفسه، وإلا فعليه أن يهجر هذا البلد إلى بلد يعلو فيه سلطان الإسلام فإن لم يفعل فالإسلام بريء منه مادام قادراً على الهجرة. وفي ذلك كله يقول المولى سبحانه:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَافِرِينَ
ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنَّا قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾

[سورة النساء: ٩٧ - ٩٩].

وقال ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قيل: يا رسول الله، ولم؟ قال: «لا تراءى ناراهما» (٢٢). وقال: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» (٢٣). ويقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» (٢٤) (٢٥).

(٢٢) سبق تخريجه: (ص ٢٢٤).

(٢٣) سبق تخريجه: (ص ٣٤٧).

(٢٤) «المسند»: (ج ٩٩/٤)، وأبي داود: (ج ٧/٣، ح ٢٤٧٩) كتاب الجهاد، والدارمي: (ج ٢/٢٣٩) كتاب السير. وقال الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ١٨٦/٦، ح ٧٣٤٦).

(٢٥) انظر «الإسلام وأوضاعنا القانونية» للأستاذ عبد القادر عودة: (ص ٨١).

وقال الحسن بن صالح:

(من أقام في أرض العدو وإن أتى الإسلام وهو يقدر على التحويل إلى المسلمين فأحكامه أحكام المشركين، وإذا أسلم الحربي فأقام ببلادهم وهو يقدر على الخروج فليس بمسلم، يحكم فيه بما يحكم على أهل الحرب في ماله ونفسه) (٢٦).

وقال الحسن:

(إذا لحق الرجل بدار الحرب ولم يترد عن الإسلام فهو مرتد بتركه دار الإسلام) (٢٧).

وقال آبن حزم:

(من لحق بدار الكفر والحرب مختاراً محارباً لمن يليه من المسلمين: فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها: من وجوب القتل عليه متى قدر عليه، ومن إباحة ماله وأنفساخ نكاحه وغير ذلك.

وأما من فرّ إلى أرض الحرب لظلم خافه، ولم يحارب المسلمين، ولا أعان عليهم، ولم يجد في المسلمين من يجيره، فهذا لا شيء عليه، لأنه مضطر مكره.

أما من كان محارباً للمسلمين معيناً للكفار بخدمة أو كتابة فهو كافر.

وإن كان إنما يقيم هنالك لدنيا يصيبها وهو كالذمي لهم، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين وأرضهم فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عنراً، ونسأل الله العافية.

(٢٦) «أحكام القرآن» للجصاص: (ج٣/٢١٦).

(٢٧) «أحكام القرآن» للجصاص: (ج٣/٢١٦).

(٥) هكذا بالأصل والذي يظهر لي أن الصواب: مجاهرًا لأن الكافر لا يسمى مجاهدًا.

وأما من سكن في أرض القرامطة مختاراً فكافر بلا شك لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام. وأما من سكن في بلد تظهر فيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر فهو ليس بكافر لأن أسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد والإقرار برسالة محمد ﷺ والبراءة من كل دين غير الإسلام وإقامة الصلاة وصيام رمضان وسائر الشرائع التي هي الإسلام والإيمان.

وقول رسول الله ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين» يبين ما قلناه، وأنه عليه السلام، إنما عني بذلك دار الحرب، وإلا فقد استعمل عليه السلام عماله على خير وهم كلهم يهود.

ولو أن كافراً مجاهداً^(٢٨) غلب على دار من دور الإسلام، وأقر المسلمين بها على حالهم إلا إنه هو المالك لها، المنفرد بنفسه في ضبطها وهو معلن بدين غير الإسلام: لكفر بالبقاء معه كل من عاونه وأقام معه وإن ادعى أنه مسلم - لما ذكرنا^(٢٨).

وللشيخ حمد بن عتيق^(٢٩) رحمه الله رسالة قيمة حول هذا

(٢٨) «المحلى» لابن حزم: (ج ١٣/١٣٩ - ١٤٠).

(٢٩) هو الشيخ المحقق حمد بن علي بن محمد بن عتيق، ولد سنة ١٢٢٧هـ بالزلفي وحفظ القرآن، وكانت له همة وعلو نفس سمت به إلى معالي الأمور. تتلمذ على الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ صاحب كتاب «فتح المجيد» ولازمه. ولازم أيضاً غيره من العلماء. وجدّد واجتهد حتى صار من كبار العلماء. عين قاضياً في الخرج ثم الأفلاج ومن مؤلفاته «إبطال التنديد شرح كتاب التوحيد»، و«النجاة والفكاك والدفاع عن أهل السنة والاتباع»، و«الفرق المبين بين السلف وابن سبعين»، وغير ذلك. وتوفي سنة ١٣٠١هـ عن عمر يناهز السبعين ورثاه تلميذه سليمان بن سحمان بقصيدة منها:

يعنزل علينا أن نرى اليوم مثله

لحل عويص المشكلات البوادر

انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» للبسام: (ج ٢/٢٢٩).

الموضوع^(٣٠) فقد قسم المقيمين في بلاد الحرب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقيم عندهم رغبة واختياراً لصحبهم، فيرضى ما هم عليه من الدين أو يمدحه، أو يرضيهم بعيب المسلمين، أو يعاونهم على المسلمين بنفسه أو ماله أو لسانه: فهذا كافر عدو لله ولرسوله لقوله تعالى:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

[سورة آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير: قد برىء من الله وبرىء الله منه لارتداده عن دينه ودخوله في الكفر. وقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ

[سورة المائدة: ٥١].

وقال عليه السلام: «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله»^(٣١).

وصح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: من بنى بأرض المشركين فصنع نيروزهم ومهرجاناتهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة^(٣٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وظاهر هذا أنه جعله كافراً بمشاركتهم في مجموع هذه الأمور.

(٣٠) اسمها: «الدفاع عن أهل السنة والاتباع»، نشرها حفيده إسماعيل بن سعد بن عتيق بلون تاريخ.

(٣١) «الدفاع» لابن عتيق: (ص ١٠ - ١٢)، والحديث سبق تخريجه (ص ٢٤٧).

(٣٢) قال ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢٠٠) إسناده صحيح.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: لما ذكر الأنواع التي يكفر بها الرجل: قال النوع الرابع: من سلم من هذا كله ولكن أهل بلده يصرون على عداوة التوحيد وآتباع أهل الشرك وهو يعتذر إن ترك وطنه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده ويجاهد بماله ونفسه فهذا أيضاً كافر، فإنه لو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه ولا يمكنه ترك ذلك إلا بمخالفتهم فعل. وموافقته لهم مع الجهاد معهم بنفسه وماله مع أنهم يريدون بذلك قطع دين الله ورسوله أكبر من ذلك بكثير فهذا أيضاً كافر وهو ممن قال الله فيهم:

سَتَجِدُونََ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بِنُفُسِهِمْ وَبِأَمْوَالِهِمْ كُلِّ مَآرَدٍ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْرِزُوا لَكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا إِلَيْكُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

[سورة النساء: ٩١].

القسم الثاني: أن يقيم عندهم لأجل مال أو ولد أو بلاد وهو لا يظهر دينه مع قدرته على الهجرة، ولا يعينهم على المسلمين بنفس ولا مال ولا لسان، ولا يوالهم بقلبه ولا لسانه، فهذا لا يكفرونه لأجل مجرد الجلوس، ولكن يقولون إنه قد عصى الله ورسوله بترك الهجرة، وإن كان مع ذلك يفضضهم في الباطن لقول الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَاوْلَتْكُمْ مَا وَهَبَهُمُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا

[سورة النساء: ٩٧].

(٣٣) «الدفاع: (ص ١٠ - ١٢)».

قال ابن كثير: ﴿ظالمي أنفسهم﴾ أي بترك الهجرة، ثم قال: فهذه الآية عامة لكل من أقام بين ظهرائي المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين فهو مرتكب حراماً بالإجماع وبنص هذه الآية (٣٤).

قلت: وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثر سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله هذه الآية: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ (٣٥).

وقد سدَّ الله باب الأعذار الواهية في قوله تعالى:

قُلْ

كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنَوْنَ كَسَادَها وَمَسْكِنٌ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ. فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ مِّنْهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٤].

وما من أحد يترك الهجرة إلا وهو يعتذر بشيء من هذه الثمانية وقد سدَّ الله على الناس باب الاعتذار بها وجعل من ترك الهجرة لأجلها أو لأجل واحد منها فاسقاً وإذا كانت مكة هي أشرف بقاع الأرض وقد أوجب الله الهجرة منها ولم يجعل محبتها عذراً فكيف بغيرها من البلدان؟ (٣٦).

القسم الثالث: من لا حرج عليه في الإقامة بين أظهرهم وهو نوعان:

(٣٤) انظر تفسير ابن كثير: (ج ٣/٢: ٣). والدفاع لابن عتيق: (ص ١٣).

(٣٥) صحيح البخاري: (ج ٨/٢٦٢، ح ٤٥٩٦).

(٣٦) الدفاع لابن عتيق: (ص ١٣ - ١٤)، وانظر بيان النجاة والفكاك له أيضاً:

(ص ٧٠ - ٧٢).

(١) أن يكون مظهراً دينه فيتبرأ منهم وما هم عليه، ويصرح لهم ببراءته منهم وأنهم ليسوا على حق، بل أنهم على باطل وهذا هو إظهار الدين الذي لا تجب معه الهجرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ إلى آخر السورة. فأمره أن يخاطبهم بأنهم كافرون، وأنه لا يعبد معبوداتهم، وأنهم يريثون من عبادة الله أي أنهم على الشرك وليسوا على التوحيد، وأنه قد رضي الله بدينه الذي هو عليه ويرى من دينهم الذي هم عليه كما قال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَأَنْ أَقَرَّ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة يونس: ١٠٤ - ١٠٥].

فمن قال مثل ذلك للمشركين لم تجب عليه الهجرة.

وليس المراد بإظهار الدين: أن يُترك الإنسان يصلي ولا يُقال له أعبد الأوثان! فإن اليهود والنصارى لا ينهون من صلى في بلدانهم، ولا يكرهون الناس على أن يعبدوا الأوثان؟! بل المقصود: أن إظهار الدين هو: التصريح للكفار بالعداوة كما أحجج خالد بن الوليد على جماعة (٣٧) بأنه سكت ولم

(٣٧) هو جماعة بن مرارة بن سلمى الحنفي البجلي. كان من رؤساء بني حنيفة وكان من أسر يوم البجامة. وكان بليغاً حكيماً. ومن حكمه قال لأبي بكر الصديق: إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يقاتل به، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور (الإصابة: (ج ٣/٣٦٢).

(٣٨) هو ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي أبو أمامة البجلي، حديثه في البخاري حين أسر ثم أسلم. قال ابن إسحاق إن ثمامة ثبت على إسلامه لما ارتد أهل البجامة وارتحل هو ومن أطاعه من قومه فلحقوا بالعلاء بن الحضرمي =

يظهر البراءة كما أظهرها ثمامة^(٣٨) واليشكري. والقصة معروفة في السير، فما لم يحصل التصريح للمشركين بالبراءة منهم ومن دينهم لم يكن إظهار الدين حاصلًا^(٣٩).

(٢) أن يقيم عندهم مستضعفًا وقد بين الله الاستضعاف في كتابه فقال:

إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

[سورة النساء: ٩٨].

وهذا الاستثناء بعد ما توعد المقيمين بين أظهر المشركين بأن

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [سورة النساء: ٩٧].
فأستثنى من لا يستطيع حيلة ولا يهتدون سبيلاً. قال آبن كثير:
لا يقدرّون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدرّوا ما عرفوا
يسلكون الطريق^(٤٠).

= فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين «الإصابة»: (ج ١/٢٠٣).
(٣٩) «الدفاع»: (ص ١٦)، والقصة المذكورة هنا أوردها المؤلف في كتابه «النجاة
والفكاك» حيث قال: لما سار خالد إلى الإمامة لقتال المرتدين بعث قبله مائتي
فارس، وقال من أصبم من الناس فخذوه، فأخذوا (جماعة) في ثلاثة وعشرين
رجلاً من قومه فلما وصلوا إلى خالد قال له: يا خالد، لقد علمت أنّي قدمت
على رسول الله ﷺ في حياته فبايعته على الإسلام وأنا اليوم على ما كنت عليه
أمس، فإن يك كاذباً قد خرج فينا فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فقال خالد: يا جماعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك
بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه وأنت أعز أهل الإمامة، وقد بلغك مسيري
— إقراراً له ورضاء بما جاء به فهلا أبدت عذراً وتكلمت فيمن تكلم؟ فقد
تكلم ثمامة فرد وأنكر، وتكلم اليشكري: فإن قلت: أخاف قومي. فهلا عمدت
إلّي أو بعثت إلّي رسولاً؟ فقال: إن رأيت يا بن المغيرة أن تغفر عن هذا كله؟
فقال خالد: قد عفوت عن دمك، ولكن في نفسي حرج من تركك.

«بيان النجاة والفكاك»: (ص ٦٨ — ٧٠).

(٤٠) «تفسير ابن كثير»: (ج ٢/٣٤٣).

وقال تعالى:

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِثْلَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِثْلَ لَدُنْكَ
نَصِيرًا

[سورة النساء: ٧٥].

فذكر في الآية الأولى: حالهم وهو المعجز عن الخروج وعدم دلالة الطريق.
وذكر في الآية الثانية: مقالهم وهو أنهم يسألون الله أن يخرجهم من بلاد
الشرك والظالم أهلها وأن يجعل لهم ولياً يتولاهم وناصراً ينصرهم، فمن كانت
تلك حاله وهذا مقاله

فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا

[سورة النساء: ٩٩].

وقد ذكر البغوي: أن الأسير المسلم عند الكفار إذا استطاع الخلاص
والانفلات منهم لم يحل له المقام بينهم، فإن حلفوه أنهم إن خلوه لا يخرج
فحلف فخلوه، وجب عليه الخروج ويمينه يمين مكره لا كفارة عليه فيها، وإن
حلف استطابة لنفوسهم من غير أن يحلفوه فعليه الخروج إلى دار الإسلام
ويلزمه كفارة اليمين^(٤٢).

أما حكم السفر إلى بلاد الكفار الحربية لأجل التجارة ففي ذلك تفصيل:
فإن كان يقدر على إظهار دينه ولا يوالي المشركين جاز له ذلك فقد سافر

(٤١) «الدفاع»: (ص ١٦)، وما ذكره الشيخ حمد هنا موافق تماماً لإجابة الشيخين
حسين وعبد الله ابني محمد بن عبد الوهاب حين سئلا في هذا الموضوع، انظر
«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»: (ج ١/ ٣٩)، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ،
مطبعة المنار بمصر.

(٤٢) «شرح السنة» للبغوي: (ج ١٠/ ٢٤٦).

بعض الصحابة رضي الله عنهم كأبي بكر رضي الله عنه وغيره إلى بلدان المشركين لأجل التجارة ولم ينكر ذلك النبي ﷺ كما رواه أحمد في مسنده (٤٣) وغيره.

وإن كان لا يقدر على إظهار دينه ولا على عدم موالاتهم لم يميز له السفر إلى ديارهم كما نص على ذلك العلماء وعليه تحمل الأحاديث التي تدل على النهي عن ذلك. ولأن الله تعالى أوجب على الإنسان العمل بالتوحيد، وفرض عليه عداوة المشركين، فما كان ذريعة وسبباً إلى إسقاط ذلك لم يميز (٤٤).

وبعد هذه النصوص الكثيرة الصريحة علينا أن ندرك مدى الهوة التي وصل إليها المسلمون اليوم، ومدى موالاتهم لأعداء الله والإقامة بأرضهم وآبئناهم إلى ديارهم لتحضير الشهادات العليا في الشريعة واللغة العربية!

إنها مهزلة مبكية ووصمة عار سيسجلها التاريخ: أن يذهب أبناء المسلمين لأخذ الشهادات في العلوم الشرعية واللغة العربية من بلاد الكفار!

وقد كتب علماء أفاضل في خطورة هذه المسألة، وبينوا مخاطر الابتعاث، وأهداف الكفار من غسل أدمغة أبناء المسلمين ومسحهم من إسلامهم، فلتراجع في مظانها (٤٥).

(ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام

أصل المهاجرة: المجافاة والترك.

(٤٣) هكذا في النص الذي في «الجامع الفريد» ولكنني بحثت عنه في «المسند» فلم أجده.

(٤٤) انظر «الجامع الفريد»: (ص ٣٨٢)، الطبعة الثانية.

(٤٥) من هؤلاء الكتاب: الأستاذ محمد محمد حسين في كتبه القيمة: «الانجاعات الوطنية»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، و«حصوننا مهددة من داخلها». وهناك بحث قديم للشيخ محمد لطفي الصبّاغ بعنوان: «الابتعاث ومخاطره» نشره المكتب الإسلامي فلتراجع أمثال هذه المؤلفات بخصوص ما ذكرنا.

وفي الاصطلاح الشرعي: الانتقال من بلد الكفر والشرك إلى دار الإسلام^(٤٦). ومن المعلوم: أن من كان دينه الإسلام المبني على صرف جميع العبادات لله وحده ونفي الشرك وبغضه وبغض أهله ومعاداتهم ومقاطعتهم فإنه لا يتركه أهل الكفر على دينه مع القدرة عليه كما أخبر عن ذلك المولى عز وجل بقوله:

وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا

[سورة البقرة: ٢١٧].

كما أخبر الله عن أصحاب الكهف أنهم قالوا:

إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْنَا يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُبَدِّلُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَأَ

[سورة الكهف: ٢٠].

وأخبر سبحانه بذلك عن جميع الكفار حيث قال:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ إِنَّا لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ

[سورة إبراهيم: ١٣].

وكذلك قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: يا ليتني أكون جذعاً إذ يخرجك قومك قال: أومخرجني هم؟! قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، فلذلك أخرجوه من مكه إلى الطائف ثم هاجر إلى المدينة بعدما هاجر طائفة من أصحابه إلى الحبشة مرتين^(٤٧).

(٤٦) انظر «فتح الباري»: (ج ١/ ١٦).

(٤٧) انظر «الدفاع» لابن عتيق: (ص ١٨ — ١٩)، وقصة ورقة مع رسول الله ﷺ

في «سيرة ابن هشام»: (ج ١/ ٢٥٤).

والهجرة شأنها عظيم، وأمرها كبير إذ هي فرع الولاء والبراء، بل إنها من أبرز تكاليف الولاء والبراء، وما كانت الجماعة المسلمة لتترك أرضها وقومها وتتكبد مشاق الغربة ووعثاء السفر لولا أن ذلك تكليف رباني لمن لا يستطيع أن يقيم دينه، ويظهر إسلامه في أرضه. وقد وعد الله عباده المؤمنين المهاجرين بـ ”الحسنات“ في الدنيا والآخرة فقال:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا
لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجَرًا لِّلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

[سورة النحل: ٤١ - ٤٢].

وللهجرة مفهوم شامل في التصور الإسلامي ليس مقتصرًا على الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فحسب ولكنه كما يقول آبن القيم: الهجرة هجرتان هجرة بالجسم من بلد إلى بلد وهذه أحكامها معلومة.

والهجرة الثانية: الهجرة إلى الله ورسوله فهذه هي الهجرة الحقيقية، وهجرة الجسد تابعة لها وهي هجرة تتضمن ”من“ و ”إلى“ فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه. ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه سبحانه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. وهذا بعينه معنى الفرار إلى الله كما قال تعالى:

فَقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ

[سورة الذاريات: ٥٠].

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

والهجرة إلى الله تتضمن: هجران ما يكره، وإتيان ما يحبه ويرضاه. وأصلها: الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لابد أن يكون

ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر.

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب دواعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً ولا يتحرك لها إرادة^(٤٨).

أما الهجرة التي هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فإليك تفصيل أحكامها:

قال الخطابي^(٤٩): كانت الهجرة في أول الإسلام مندوباً إليها غير مفروضة وذلك في قوله تعالى:

وَمَنْ يَهِاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَماً كَثِيراً وَسَعَةً

[سورة النساء: ١٠٠].

فقد نزلت حين أشد أذى المشركين على المسلمين عند انتقال رسول الله ﷺ إلى المدينة. ثم أمروا بالانتقال إلى حضرته ليكونوا معه، فيتعاونوا ويتظاهروا إن حَزَبهم أمر، وليتعلموا منه أمر دينهم، ويتفقهوا فيه. وكان أعظم الخوف في ذلك الزمان من قريش وهم أهل مكة، فلما فتحت مكة ونغمت بالطاعة زال ذلك المعنى وارتفع وجوب الهجرة وعاد الأمر فيها إلى الندب. وبهذا يظهر الجمع بين حديث معاوية عن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٥٠).

(٤٨) «الرسالة التبوكية» لابن القيم: (ص ١٤ - ١٨)، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٤هـ، المطبعة السلفية بمصر.

(٤٩) هو الإمام حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب من ولد زيد بن الخطاب. يكنى أبا سليمان. كان محدثاً فقيهاً وأديباً شاعراً لغوياً ومن تلاميذه الحاكم النيسابوري. ولد سنة ٣١٩هـ في بلدة بست من بلاد كابل وتوفي فيها سنة ٣٨٨هـ، انظر مقدمة «معالم السنن» المطبوع مع سنن أبي داود: (ج ١/١١)، و«الأعلام» للزركلي: (ج ٢/٢٧٣)، الطبعة الرابعة.

(٥٠) سبق تخريجه في أول هذا الفصل: (ص ٢٧١).

وبين حديث آبن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»^(٥١) على أن بين الإسنادين ما بينهما فإسناد حديث آبن عباس متصل صحيح وإسناد معاوية فيه مقال^(٥٢).

ولأهمية موضوع الهجرة - خاصة في أول الإسلام - فقد قطع الله ولاية التناصر بين المسلمين المهاجرين في المدينة وبين المسلمين الذين لم يهاجروا وبقوا في مكة. قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَمْ يُهَاجِرُوا ءَمَّا لَكَرِمِينَ وَلَيَسَّيْنَهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَقٍّ يُهَاجِرُوا
 وَإِنْ أَتَيْنَا نَصْرُوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلْنَاكُمْ النَّصْرَ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ
 يَبِينُكُمْ وَيُنَبِّئُهُمْ مِمَّنْ شَأْنُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

[سورة الأنفال: ٧٢].

ثم يأتي الثناء على المهاجرين والأنصار في قوله تعالى:

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا
 وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمْ
 الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

[سورة الأنفال: ٧٤].

والكلام على المهاجرين والأنصار قد سبق فيه الحديث.

أما الصنف الذي نريد أن نتحدث عنه هنا فهم المؤمنون الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في مكة فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم:

(٥١) «صحيح البخاري»: (ج ٦/٣٧، ح ٢٨٢٥) كتاب الجهاد، باب وجوب النفير.

(٥٢) «معالم السنن» للخطابي: (ج ٣/٣٥٢) تحقيق أحمد شاكر وعبد حامد الفقي،

وانظر «الناسخ والمنسوخ»: (ص ٢٠٧).

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةَ
 ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
 قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَبِعْدَةِ فَنُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُنْهُمْ
 جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
 وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٨﴾
 فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩﴾

[سورة النساء: ٩٧ - ٩٩].

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من المسلمين
 كانوا مع المشركين، يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم
 فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
 تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (٥٣).

ولذلك فالذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم ليس لهم في المغام
 نصيب ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال كما قال الإمام أحمد (٥٤)، يدل
 على ذلك الحديث المروي في المسند وصحيح مسلم عن ابن بريدة عن أبيه
 قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة
 نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: أغزوا باسم الله، في
 سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا،
 ولا تقتلوا وليداً وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال
 "أو خلال"، فإتين ما أجابوك فأقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام
 فإن أجابوك فأقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار
 المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على

(٥٣) سبق تخريجه: (ص ٢٧٨).

(٥٤) تفسير ابن كثير: (ج ٤/٤٠).

المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفبيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم^(٥٥).. الحديث. ونستطيع أن نلخص أنواع الهجرة - سواء ما بقي منها مفروضاً أو ما نسخ، وما هو غير ذلك - في النقاط التالية:

(١) الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً في أيام النبي ﷺ وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي أنقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان. فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام^(٥٦).

ويؤيد ذلك حديث مجاشع بن مسعود^(٥٧) حيث جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي ﷺ فقال: هذا مجالد يبايعك على الهجرة فقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد فتح مكة ولكن أبايعه على الإسلام»^(٥٨) وعلى ذلك فإن النصوص الواردة في وجوب الهجرة باقية في حال المسلم المقيم بدار الحرب وقد ذكرتها في الإقامة في دار الكفار.

(٢) الخروج من أرض البدعة. قال الإمام مالك: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد

(٥٥) الحديث في «مسند أحمد»: (ص ٣٥٢/٥)، وفي «صحيح مسلم»: (ج ٣/١٣٥٧، ح ١٧٣١).

(٥٦) «أحكام القرآن» لابن العربي: (ج ١/٤٨٤)، وانظر شرح النووي على «صحيح مسلم»: (ج ٨/١٣)، وتفسير القرطبي: (ج ٥/٣٠٨).

(٥٧) هو مجاشع بن مسعود بن ثعلبة السلمي. قال البخاري وغيره له صحة، روى عنه أبو عثمان النهدي وغيره. قتل يوم الجمل. «الإصابة»: (ج ٣/٣٦٢)، و«المعارف» لابن قتيبة: (ص ٣٣١).

(٥٨) «صحيح البخاري»: (ج ٦/١٨٩، ح ٣٠٧٩) كتاب الجهاد، باب لا هجرة بعد الفتح، كتاب الإمارة: (ج ٣/١٤٨٨، ح ١٨٦٤).

سب فيها السلف^(٥٩).

(٣) الخروج عن أرض غلب عليها الحرام. فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم^(٦٠).

وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أحوال البلاد كأحوال العباد فيكون الرجل تارة مسلماً، وتارة كافراً، وتارة مؤمناً، وتارة منافقاً، وتارة براً تقياً، وتارة فاجراً شقياً. وهكذا المساكن بحسب سكانها فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باق إلى يوم القيامة^(٦١).

(٤) الفرار من الأذية في البدن، وذلك فضل من الله عز وجل أرخص فيه، فإذا خشى المرء على نفسه في موضع فقد أذن الله سبحانه له في الخروج عنه، والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المخبور، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام لما خاف من قومه قال:

إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي

[سورة العنكبوت: ٢٦].

وقال:

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ

[سورة الصافات: ٩٩].

وموسى عليه السلام قال الله فيه:

(٥٩) «أحكام القرآن» لابن العربي: (ج ١/٤٨٤، ٤٨٥).

(٦٠) «أحكام القرآن» لابن العربي: (ج ١/٤٨٤، ٤٨٥).

(٦١) «مجموع فتاوى ابن تيمية»: (ج ١٨/٢٨٤).

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

[سورة القصص: ٢١] (٦٢).

(٥) خوف المرض في البلاد الوخمة، والخروج منها إلى الأرض النزهة وقد أذن النبي ﷺ للمرينين في ذلك حين استوحشوا المدينة أن يخرجوا إلى المرج، فيكونوا فيه حتى يصحوا وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون كما قرر ذلك الحديث الصحيح (٦٣).

(٦) الفرار خوف الأذية في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله أو أكد (٦٤).

وبعد: فإن الهجرة وغيرها من الأعمال والأقوال - مبنية على النية كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (٦٥).

(٦٢) «أحكام القرآن» لابن العربي: (ج ١/٤٨٥).

(٦٣) المصدر السابق: (ج ١/٤٨٥)، وحديث المرينين في «صحيح البخاري»:

(ج ١٠/١٤٢، ح ٥٦٨٦) كتاب الطب، و«صحيح مسلم»: (ج ٣/١٢٩٦،

ح ١٦٧١) كتاب القسامة، أما حديث الطاعون ففي البخاري: (ج ١٠/١٧٩،

ح ٥٧٢٨) كتاب الطب، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/١٧٤١، ح ٢٢١٩) كتاب

السلام، ونصه: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض

وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

(٦٤) «أحكام القرآن»: (ج ١/٤٨٦).

(٦٥) «صحيح البخاري»: (ج ٩/١، ح ١) كتاب بدء الوحي، و«صحيح مسلم»:

(ج ٣/١٥١٥، ح ١٩٠٧) كتاب الإمارة.

الفصل الثالث

الجهاد في سبيل الله

وهو من أهم مقتضيات الولاء والبراء لأنه الفاصل بين الحق والباطل وبين حزب الرحمن وحزب الشيطان والجهاد: بكسر الجيم - لغة: المشقة، يقال: جهدت جهاداً: بلغت المشقة.

وشرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار^(٦٦).

ويطلق أيضاً: على مجاهدة النفس والشيطان والفساق. فأما مجاهدة النفس: فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها ثم على تعليمها وأما مجاهدة الشيطان: فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات. وأما مجاهدة الكفار: فتقع باليد والمال واللسان والقلب. وأما مجاهدة الفساق: فباليد ثم اللسان ثم القلب^(٦٧).

وقد سبق القول في الفصل الثاني من الباب الأول "أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما": أن العداوة بين الفريقين أمر متأصل وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لأن المنهجين مختلفان، ويستحيل الالتقاء بينهما لأن حزب الله يريد إقامة كلمة الحق في الأرض وهيمنة الشريعة الإسلامية على كل وضع. وحزب الشيطان يغيظه هذا المنهج فيسمى جاهداً في سحقه وإبادته ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد تحدثنا عن البراء وقلنا: إن أبرز صوره هو الجهاد لأنه هو السبيل

(٦٦) «فتح الباري» لابن حجر: (ج٣/٦).

(٦٧) «فتح الباري» لابن حجر: (ج٣/٦).

الوحيد للمفاصلة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان.

وإذا رجعنا إلى سيرة المصطفى ﷺ: لوجدنا أن الجهاد هو الخطوة التالية للهجرة النبوية. مما يدل على أهميته في إقامة هذا الدين، وبيع المهج في سبيل الله تلبية لنداء الجهاد في سبيل الله.

ومن المعلوم: أن هذا الدين الحنيف يأمر بدعوة الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة والألوهية فإذا لبوا هذا النداء فهذا هو المراد من بعثة الرسل، وإنزال الكتب وإن آتكم صواباً فلا بد من جهادهم.

حَقَّ لَا تَكُوبُ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُمُ

[سورة الأنفال: ٣٩].

وقد سبق معنا حديث رسول الله ﷺ: .. فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأبتنهن ما أجابوك فأقبل منهم وكف عنهم^(٦٨).

فالدين الإسلامي يبدأ بدعوة الناس إلى الخير وجدالهم بالتي هي أحسن، فإذا قامت عليهم الحجة ثم أعرضوا وجب قتالهم. وإذا كان هناك سلطان وطواغيت ترفض أن يستمع الناس للإسلام؛ فإنه يجب بتر هذه الطواغيت من أساسها لتبلغ كلمة الإسلام للناس ثم يأتي هنا مبدأ ﴿لا إكراه في الدين﴾ أي إذا سيطر سلطان المسلمين على منطقة ما فإن أهلها لا يجبرون على اعتناق عقيدة الإسلام، ولكن يجب أن يخضعوا لسلطانهم، فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين وإن طلبوا البقاء على ديانتهم فعليهم دفع الجزية للمسلمين وإلا فالسيف بينهم وبين المسلمين^(٦٩).

(٦٨) سبق تحريجه: (ص ٢٨٧).

(٦٩) انظر تفسير ﴿لا إكراه في الدين﴾ في ابن كثير: (ج ٤٥٩/١)، وانظر فصل

الجهاد في «معالم في الطريق»: (ص ٧٤).

ومن هنا: فإن أهداف الجهاد في الإسلام أهداف سامية عالية فهو:

- (١) يقاتل الكفار لتقرير حرية العقيدة.
- (٢) ويجاهد ثانياً لتقرير حرية الدعوة.
- (٣) ويجاهد ثالثاً لإقامة نظام الإسلام في الأرض. وتحقيق حرية الإنسان، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها.

فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريق التشريع، وإنما هناك رب واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم وهو الذي يتوجهون إليه وحده بالطاعة والخضوع كما يتوجهون إليه بالإيمان والعبادة على السواء.

وعبودية الجهاد من أشرف وأحب أنواع العبودية لله سبحانه وتعالى لأنه (لو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها. من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس) (٧١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(إنه لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه.. لأن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، وهو مشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، ففيه من محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال ما لا يشتمل عليه عمل آخر، والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى

(٧٠) انظر «طريق الدعوة»: (ج ١/ ٢٨٨ - ٢٨٩).

(٧١) «مدارج السالكين»: (ج ٢/ ١٩٦).

الحسنين دائماً: إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة (٧٢).

وقد وردت نصوص كثيرة جداً في فضيلة الجهاد نذكر طرفاً منها:

قال تعالى في بيان منزلة الشهيد وإنه حي عند ربه:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٣١﴾ فَرِحِينَ
بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَنَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٢﴾

[سورة آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ
الصَّادِقُونَ

[سورة الحجرات: ١٥].

والجهاد هو التجارة الرابعة مع الله كما قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَى تَجَرَّةٍ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ تَوَفَّيْتُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ
طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَحْزَنْ جَعَلْنَاهَا نَصْرًا
مِنَ اللَّهِ وَفَتْحًا قَرِيبًا وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة الصف: ١٠ - ١٣].

(٧٢) «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»: (ص ١١٨)، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٩هـ.

أما السنة النبوية فقد ورد فيها أحاديث كثيرة في فضيلة الجهاد نذكر منها قوله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» (٧٣).

وقال أيضاً: «ما أغبرنا قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار» (٧٤).

وفي الصحيح: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد قال: لا أجده. قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ فقال ومن يستطيع ذلك» (٧٥).

وفي السنن أنه ﷺ قال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى» (٧٦).

والجهاد ذروة سنام الإسلام كما جاء ذلك في الحديث «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد» (٧٧) وقال أيضاً: «لغدوة في سبيل أو روحة خير من الدنيا وما فيها» رواه البخاري (٧٨) ومسلم.

وفي مقابل هذا الثناء الجميل: ورد الذم للتاركين للجهاد، بل إن الله وصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال تعالى:

(٧٣) «صحيح البخاري»: (ج ١١/٦، ح ٢٧٩٠) كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله.

(٧٤) «صحيح البخاري»: (ج ٢٩/٦، ح ٢٨١١).

(٧٥) «صحيح البخاري»: (ج ٤/٦، ح ٢٧٨٥).

(٧٦) «سنن أبي داود»: (ج ١٢/٣، ح ٢٤٨٦) كتاب الجهاد، «مستدرك» الحاكم:

(ج ٧٣/٢)، وسنده حسن. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج ٢٢٥/١، ح ٧٢٤).

(٧٧) «سنن الترمذي»: (ج ٢٨١/٧، ح ٢٦١٩) أبواب الإيمان، و«سنن ابن ماجه»:

(ج ١٣١٤/٢، ح ٣٩٧٣)، وقال الألباني: حديث صحيح. انظر «صحيح

الجامع الصغير»: (ج ٣٠/٥، ح ٥٠١٢).

(٧٨) «صحيح البخاري»: (ج ١٣/٦، ح ٢٧٩٢) كتاب الجهاد، و«صحيح مسلم»:

(ج ١٤٩٩/٣، ح ١٨٨٠) كتاب الإمارة.

قُلْ إِنْ

كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٤].

وقال سبحانه:

فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ

تُنْزِلُ فِيهَا آيَاتٌ الَّتِي رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ
شُرَكَاءُ وَفَرَقٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمْتَ الْأَمْرُ فَلَوْ كُنْتُمْ إِلَّا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢٣﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ

[سورة محمد: ٢٠ - ٢٣].

والجهد ضرورة للدعوة وستة ربانية في الابتلاء والتمحيص. قال تعالى:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَاصِرِينَ

[سورة آل عمران: ١٤٢].

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِجَهَدِ اللَّهِ وَأَنَّ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة التوبة: ١٦].

(إن الجهاد في سبيل الله هو طريق الدعوة إلى الله، والجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات فترة الدعوة الأولى. إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة، ولو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول الواسعة من صلب كتاب الله، ولما استغرق فصلاً طويلاً من سنة رسول الله ﷺ.

(والله يعلم أن هذا المنهج الإلهي تكرهه الطواغيت، ويعلم أنه لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم، ليس بالأمس فقط ولكن اليوم وغداً، وفي كل أرض وفي كل جيل، وأن الله سبحانه يعلم أن الشر متبجح ولا يمكن أن يكون منصفاً، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادة، فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولته قتل الحق وخنقه بالقوة، هذه فطرة وليست حالة طارئة.. ومن ثم لا بد من الجهاد.. لا بد منه في كل صورة، ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح، ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة. وإلا كان الأمر هزلاً لا يليق بالمؤمنين.. ولا بد من بذل الأموال والأنفس كما طلب الله من المؤمنين) (٧٩).

ويوم أن أدرك المسلمون معنى قوله تعالى:

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

[سورة النساء: ٧٤].

(٧٩) وطريق الدعوة: (ج ١/٣٠٣ - ٣٠٤).

انطلقت كتائب الفتح الإسلامي في الأرض تنشر الخير، وتلقن الإيمان، وتكسر شوكة الطاغوت من أجل أن يعبد الله وحده في الأرض.

ووجد في ذلك التاريخ المشرق نماذج رفيعة أجادت - بحق - صناعة الموت لأنها تريد الحياة الكريمة سواء كانت هذه الحياة على هذه الأرض بالنصر وإعلاء كلمة الله. أم بالحياة عند الله:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

[سورة آل عمران: ١٦٩].

لقد كانت هذه النماذج الإيمانية تستبطن أن تحول بينها وبين الجنة تمرات كما في قصة الصحابي الجليل عمير بن الحمام الأنصاري^(٨٠): حين سمع رسول الله ﷺ يقول في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يا رسول الله: جنة عرضها السموات والأرض! قال: نعم. قال: بخ بخ. قال رسول الله ﷺ: «وما يحملك على قول بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها» ثم أخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمى بها ثم قاتلهم وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد

إلا ألتقي وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد

وكل زاد عرضة للنفاد

غير التقى والبر والرشاد

(٨٠) هو عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي. ذكره موسى بن عقبة وغيره فيمن شهد بدرًا وهو أول قتيل قتل في سبيل الله في الحرب. انظر ترجمته في «الإصابة»: (ج ٣/٣١).

فما زال يقاتل حتى قتل^(٨١).

وهذا غسيل الملائكة الصحابي الجليل حنظلة بن أبي عامر يخرج من بيته حين سمع نداء الحرب في معركة أحد، وكان حديث عهد بعرس لم يكن ليتأخر حتى يقتسل من جنابته، بل هرع إلى ساعة الوغى حتى لا يفوته الجهاد فلما قتل قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة فأسألوا صاحبته»، فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهيعة فقال النبي ﷺ: «لذلك تغسله الملائكة»^(٨٢).

هذا غيظ من فيض، ونقطة من بحر، من تلك البطولات التي بعث الإيمان فيها شجاعة خارقة للعادة وحنيناً إلى الجنة وأستهانة نادرة بالحياة، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأى العين، فطاروا إليها طيران الحمام الزاجل لا يلوي على شيء^(٨٣).

هذا هو مفهوم الجهاد، وهؤلاء المؤمنون هم أصحاب الجهاد، ويلحق بهم من سار على نهجهم لأنهم يقاتلون في سبيل الله أما غيرهم فيقاتل في سبيل الطاغوت:

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ

[سورة النساء: ٧٦].

وليس ما يقوله المنهزمون اليوم هو الجهاد، بل إنه من الوجهة الصحيحة فساد. إنهم يدعون إلى عدم مقاتلة أولياء الشيطان، ويدعون إلى موالاتهم

(٨١) «مسند أحمد»: (ج٣/١٣٧)، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٥٠٩، ح١٨٩٩)

بدون ذكر الآيات، وانظر «فقه السيرة» للشيخ الغزالي: (ص٢٤٤).

(٨٢) «الإصابة» لابن حجر: (ج١/٣٦٠)، وانظر «فقه السيرة» للغزالي: (ص٢٧٢).

(٨٣) انظر مزيداً من تلك البطولات في «ماذا خسر العالم» للندوي:

(ص١٠٤ - ١٠٨).

وإلى مودتهم وإلى الاستكانة إليهم وإلى تجميع نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مقابل شبهات الملاحدة أنهزموا وذلوا وأستكانوا لأنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام ولا يمثلون إلا أسماء بدون مسمى، همهم التقليد الأعمى، وديدنهم الركض خلف كل ناعق، ولو كان الأمر هكذا لهان الخطب لأنه لا عبرة بهم، ففي أرض الله من يقوم بدين الله والله متكفل بذلك. ولكن إن يمتد جنبهم وذلتهم إلى الالتواء على النصوص القرآنية والسنة النبوية فيقال: إن الجهاد في الإسلام هو للدفاع فقط، فهذا ما يجب أن نعرية، ولا نسكت عنه، مهما كانت ألقابهم ومهما كانت شهرتهم، فإن دين الله هو الحق، والحق أحق أن يتبع، ولست بحاجة إلى الإطالة في هذا فقد ذكرت في الفصول السابقة^(٨٤) مجموعة من العلماء الفضلاء في القديم والحديث تولوا تعرية هذا الفكر الغريب على التصور الإسلامي. فلتراجع في مظانها.

وعوداً على بدء نقول: إنه لا حياة شريفة في ظل هذا الدين الحنيف إلا بالعودة إلى ينابيعه الصافية كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفهم العقيدة الصحيحة وسيرة سلف الأمة وإدراك معنى لا إله إلا الله ومعنى العبادة ومعنى الدين، ومعنى الجهاد في سبيل الله. وليس في سبيل الأرض أو الوطن أو الجنس أو اللون أو الشخص أو.. أو.. إلخ.

وعلى المسلمين اليوم إدراك هذه المعاني والاستعلاء بأنفسهم وعقيدتهم من تجميع المائعين وكيد الكائدين، وأن يواجهوا كل موقف بما يمليه عليهم كتاب ربهم وسنة نبيهم، وليعلموا أنهم مفتقرون إلى معية الله وولايته لهم وإن كيد الشيطان كان ضعيفاً.

(٨٤) راجع (ص ٢١٥).

حكم التجسس على المسلمين

جرت عادة المصنفين من العلماء أن يدرجوا الحديث عن الجاسوس في باب الجهاد. وذلك لحكمة هامة وهي أن التجسس أبرز ما يكون في موضوع كشف عورات المسلمين لأعدائهم خاصة وقت نشوب الحرب، فلذلك يأتون بالحديث عن الجاسوس، وأحكامه في ذلك الموضع ولذلك أقتديت بهم فأوردت هذا المبحث في فصل الجهاد.

والتجسس خيانة عظمى، وكبيرة من الكبائر إذا فعله المسلم. وهو من صور موالاتة الكفار التي يتراوح الحكم فيها بين الكفر المخرج من الملة إذا كان تجسسه حباً في انتصار الكفار وعلو شوكتهم على المسلمين وبين الكبيرة من كبائر الذنوب إذا كان لغرض شخصي أو دنيوي أو جاه أو ما أشبه ذلك.

وقد حذر الله من ذلك في قصة حاطب بن أبي بلتعة^(٨٥) رضي الله عنه في سورة الممتحنة.

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِم بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ

(٨٥) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، حليف قريش، وقيل هو حليف للزبير بن العوام. شهد بدرًا والحديبية، ومات سنة ثلاثين بالمدينة وهو ابن خمس وستين سنة، وصلى عليه عثمان رضي الله عنهم. وقد شهد الله لحاطب بالإيمان في سورة الممتحنة. بعثه رسول الله ﷺ سنة ست من الهجرة إلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية فأناته من عنده بهدايا منها مارية القبطية. انظر «الاستيعاب»: (ج/٣٤٨)، و«الإصابة»: (ج/٣٠٠/١).

وَاِيَّاكُمْ أَنْ تَزْمُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِ
وَأَيُّغَاةَ مَرْضَاتِي تُبْشِرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

[سورة الممتحنة: ١].

قال الطبري: لا يدعونكم أرحامكم وقرباتكم وأولادكم إلى الكفر بالله
وآخذ أعدائه أولياء تلقون إليهم بالمودة، فإنه لن تنفعكم أرحامكم
ولا أولادكم عند الله يوم القيامة لأنه سيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معاصيه
والكفر به النار^(٨٦).

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن علي رضي الله عنه قال: بعثني
رسول الله ﷺ أنا والزيبر والمقداد بن الأسود وقال: «انطلقوا حتى تأتوا
روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها» فأنطلقنا تعادى بنا خيلنا
حتى آتيناها إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت:
ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من
عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟»
قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأة ملصقة في قريش ولم أكن
من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قربات بمكة يحمون بها
أهلهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً
يحمون بها قرباتي وما فعلت كفراً ولا أرداداً ولا رضاً بالكفر بعد
الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «قد صدقكم» فقال عمر: يا رسول الله دعني
أضرب عنق هذا المنافق. قال: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله أن يكون
قد أطلع على أهل بدر فقال: أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(٨٧) الآيات.

(٨٦) «تفسير الطبري»: (ج ٢٨/٦١).

(٨٧) «صحيح البخاري»: (ج ٨/٦٣٣، ح ٤٨٩٠) كتاب التفسير، سورة الممتحنة.

قال العلامة ابن القيم: يؤخذ من هذه القصة جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً، لأن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ قتل حاطب بن أبي بلتعة فلم يقل رسول الله ﷺ لا يحل قتله إنه مسلم بل قال: وما يدريك لعل الله أن يكون قد أطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم» فأجاب بأن فيه مانعاً من قتله وهو شهوده بدرًا. وفي الجواب بهذا كالتنبية على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع. وهذا مذهب مالك وأحد الوجهين في مذهب أحمد، وقال الشافعي وأبو حنيفة لا يقتل وهو ظاهر مذهب أحمد، والفريقان يحتجون بقصة حاطب.

والصحيح: أن قتله راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله وإن كان استبقاؤه أصلح استبقاه والله أعلم^(٨٨).

وقال أيضاً: ومن فوائد هذه القصة: أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجس من حاطب مكفراً بشهوده بدرًا، فإن ما آشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة وتضمنته من محبة الله لها ورضاه وفرحه بها، ومباهاته للملائكة بفاعلها: أعظم مما آشتملت عليه سيئة الجس من المفسدة، وتضمنته من بغض الله لها فغلب الأقوى على الأضعف، فأزال وأبطل مقتضاه، وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات، الموجبين لصحة القلب ومرضه قال تعالى:

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

[سورة هود: ١١٤].

وقال:

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

[سورة النساء: ٣١].

(٨٨) (زاد المعاد: (٤٢٢/٣) بتصرف بسيط.

إلى أن قال: فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته وهم بين ظهرائي العدو وفي بلدهم ولم يشن ذلك عنان عزمه، ولا قل من حد إيمانه ومواجهته للقتال لمن أهله وعشيرته وأقاربه عندهم، فلما جاء مرض الجس برزت إليه هذه القوة. وكان البُحران^(٥) صالحاً فأندفع المرض وقام المريض وكأن لم يكن به قلبية^(٥٥) ولما رأى الطيب قوة إيمانية قد استعلت على مرض جسده وقهرته قال لمن أراد فصده: لا يحتاج هذا العارض إلى فصاد «وما يدريك لعل الله أن يكون قد أطلع على أهل بدر فقال، أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وعكس هذا ذو الخويصرة التميمي^(٨٩) وأضرابه من الخوارج الذين بلغ آجتهدهم في الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يحقر أحد الصحابة عمله معه كيف قال فيهم: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»^(٩٠). وقال: «أقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم»^(٩١). ومن له لب وعقل يعلم قدر هذه المسألة: وشدة حاجته إليها وآتفاعه بها، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وأحكام الموازنة.. وتفاوت المراتب في ذلك بأسباب مقتضية باللغة ممن هو قائم على كل نفس

(٥) الأطباء يسمون التغير الذي يحدث للعليل دفعة واحدة في الأمراض الحادة: بحرناً، انظر حاشية «زاد المعاد»: (ج/٣/٤٢٥).

(٥٥) القلبية: الداء والتعب. انظر مادة قلب في القاموس المحيط.

(٨٩) ذو الخويصرة التميمي ذكره ابن الأثير في الصحابة مستدركاً على من قبله ولم يورد في ترجمته سوى ما أخرجه البخاري: (ج/٦/٦١٧، ح/٣٦١٠) كتاب المناقب، ومسلم: (ج/٢/٧٤٠، ح/١٠٦٣) في الزكاة، من حديث أبي سعيد قال: بينا رسول الله ﷺ يقسم ذات يوم قسماً فقال ذو الخويصرة رجل من بني تميم يا رسول الله، إعدل. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل» الحديث انظر «الإصابة» لابن حجر: (ج/١/٤٨٥).

(٩٠) سبق تخريجه: (ص/٥١).

(٩١) «صحيح البخاري»: (ج/٦/٦١٨، ح/٣٦١١) كتاب المناقب، باب علامات النبوة، و«صحيح مسلم»: (ج/٢/٧٤٦، ح/١٠٦٦) كتاب الزكاة.

بما كسبت^(٩٢).

والذي يظهر لي - والله أعلم - هو ما ذهب إليه مالك وآبن عقيل من أصحاب أحمد وغيرهما أن الجاسوس المسلم يقتل لأن التعليل في قصة حاطب (تعليل بعلة مانعة من القتل منتفية في غيره، ولو كان الإسلام مانعاً من قتله لم يعلل بأخص منه، لأن الحكم إذا علل بالأعم كان الأخص عديم التأثير وهذا أقوى والله أعلم) ^(٩٣).

ونزول الخطاب القرآني بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

يدل على دخول حاطب في المخاطبة بأسم الإيمان ووصفه به، وتناوله النهي بعمومه، وله خصوص السبب الدال على إرادته، مع أن في الآية ما يشعر أن فعل حاطب نوع موالاة وأنه أبلغ بالمودعة، فإن فاعل ذلك قد ضل سواء السبيل، لكن قوله ﷺ: «صدقكم خلوا سبيله» ظاهر في أنه لا يكفر بذلك إذا كان مؤمناً بالله ورسوله غير شاك ولا مرتاب، وإنما فعل ذلك لغرض دنيوي، ولو كفر لما قيل «خلوا سبيله»^(٩٤). أما الجاسوس الكافر فهذا يجب قتله لأنه ﷺ قتل جاسوساً من المشركين. فعن أبياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: أتى النبي ﷺ عين من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم أنفتل فقال النبي ﷺ: «أطلبوه واقتلوه». فقتلته فنقله سلبه^(٩٥).

(٩٢) زاد المعاد: (ج ٢/٤٢٤ - ٤٢٧) بتصرف.

(٩٣) زاد المعاد: (ج ٣/١١٤)، وانظر «أقضية الرسول ﷺ» لابن فرج المالكي: (ص ٢٥).

(٩٤) إرشاد الطالب للشيخ سليمان بن سحمان: (ص ١٥).

(٩٥) «صحيح البخاري»: (ج ٦/١٦٨، ح ٣٠٥١) كتاب الجهاد، باب الحرني إذا دخل الإسلام بغير أمان، وأبي داود: (ج ٣/١١٢، ح ٢٦٥٣) في الجهاد.

الفصل الرابع

هجر أصحاب البدع والأهواء

من تكاليف الولاء والبراء: هجر أصحاب البدع والأهواء والبراءة من معتقداتهم الفاسدة ونحلهم الباطلة. وقد تكلمت في الفصل الثالث من الباب الأول عن طرف من موقف السلف من هؤلاء المبتدعة، وذكرت هناك تعريف البدعة وتقسيمها إلى كفرية وغير كفرية.

أما الحديث هنا فيأتي لبيان أن هجرهم وعدم مخالطتهم والإنكار عليهم واجب من واجبات الولاء والبراء، ومقتضى من مقتضياته، لأن المنطلق في هذه القضية هو حب الله وحب ما يحبه وبغض من يبغضه أو يرتكب ما يبغضه. وفساد الدين إنما يأتي من إحدى طريقتين أو هما معاً: فإما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلق.

فالأول: البدع، والثاني: اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنه وبلاء: وبهما كُذبت الرسل، وعُصي الرب، ودُخِلَت النار، وحلت العقوبات. لأن الفساد في الاعتقاد يأتي من جهة الشبهات، والفساد في العمل يأتي من جهة الشهوات ولهذا كان السلف يقولون: (آحذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواؤه، وصاحب دنيا أعجبه دنياه) (٩٦).

ويقولون أيضاً: (آحذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما

(٩٦) «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج ١/ ١٣٦)، وانظر «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية: (ص ٢٥).

فتنة لكل مفتون، لأن الأول يشبه المفضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه، والثاني يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم (٩٧).

وخطورة البدعة تكمن في أنها تناقض "الاستسلام لله وحده" كما قال بعض السلف: (قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم) (٩٨) وهي - كما قال الإمام سفيان الثوري - أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها، أما المعصية فيتاب منها. ذلك أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ورسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه. فما دام يرى فعله حسناً - وهو سيء في نفس الأمر - فإنه لا يتوب.

ولكن التوبة ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق، كما هدى الله من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال، وذلك بأن يتبع من الحق ما علمه لأن الله يقول:

وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ

[سورة محمد: ١٧].

وإذا انتشرت الجهالة بدين الرسل بين الناس، ونما زرع الجاهلية في نفوسهم: سارعت الطباع إلى الانحلال من ربة الاتباع لأن النفس فيها نوع من الكبر فهي تحب أن تخرج من العبودية بحسب الإمكان كما قال أحد السلف: (ما ترك أحد سنة إلا تكبر في نفسه) (٩٩). وكما قلنا في الفصل الثاني من الباب الأول: أن العداوة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر محتم وواقع، فإن العداوة هنا بين المتبع والمبتدع تأخذ نفس المرتبة والشأن

(٩٧) «إقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢٥).

(٩٨) «شرح السنة» للبغوي: (ج ١/ ١٧١).

(٩٩) انظر «التحفة المراقية» لابن تيمية: (ص ٣٨).

(١٠٠) «ملحق مؤلفات» الإمام محمد بن عبد الوهاب: (ص ٨٧)، طبعة جامعة الإمام.

ولذلك قال الشوكاني: العداوة بين المتبع والمبتدع أوضح من الشمس لأن المتبع يعادي المبتدع لبدعته، والمبتدع يعادي المتبع لاتباعه وكونه على الصواب. بل قد تبلغ عداوات أهل البدع لغيرهم من أهل الاتباع فوق ما تبلغه عداوتهم لليهود والنصارى^(١٠١). وقبل أن نعرف كيفية البراءة من أهل البدع والأهواء لابد من إمامة بسيطة بكيفية مخالطة الناس وقد رأيت كلاماً حسناً لابن القيم رحمه الله. أوجزه فيما يلي. فقد قسم رحمه الله مخالطة الناس إلى أربعة أضرب^(١٠٢).

(١) مَنْ مخالطته كالغذاء، لا يستغنى عنه في اليوم واليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج خلطه. وهذا النوع أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه. فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

(٢) مَنْ مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك فيه. وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في المعاش، وما يحتاج إليه من المعاملات والمشاركات فإذا قضيت حاجتك من مخالطته بقيت مخالطتهم من القسم الثالث وهم:

(٣) مَنْ مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فبعضهم كالداء العضال، لا تريخ عليه في دين ولا دنيا، بل تخسر معه الدين والدنيا أو أحدهما، ومنهم مَنْ مخالطته كوجع الضرس يؤلمك فإذا فارقك سكن الألم. ومنهم من مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، وإذا تكلم فكلامه كالعصى على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه، وظنه أنه كالمسك يطيب به المجلس وإن سكت فأنقل

(١٠١) «قطر الولي» للشوكاني: (ص ٢٥٩).

(١٠٢) «بدائع الفوائد»: (ج ٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

من نصف الرحي التي لا يطاق حملها، ولا جرهما على الأرض، وإذا كان لابد من هذا الضرب فليعاشر بالمعروف حتى يجعل الله لك منه فرجاً ومخرجاً.

(٤) مَنْ مخالطته فيها الهلاك كله، وهي بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق^(١٠٣) وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرة الله. وهم أهل البدع والضلال، الصائدون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً، فيجعلون البدعة سنة، والسنة بدعة، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً، إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا أنت من المشبهين، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين، وإن آتبت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين، وإن انقطعت إلى الله تعالى وخلت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين، وإن تركت ما أنت عليه وآتبت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين! فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بأعتابهم ولا بأستعتابهم ولا تبالي يذمهم ولا بغضهم فإنه عين، كمالك كما قال الشاعر:

وإذا أئتكت مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأنني فاضل

(١٠٣) الترياق: بكسر التاء، دواء السموم وهو فارسي معرب. «مختار الصحاح»:
(ص ٩١).

وعند الممات يحمد القوم التقى
وفي الصباح يحمد القوم السرى
أنتهى من «بدائع الفوائد».

وموقف المسلم من أصحاب البدع والأهواء يختلف باختلاف ما هم عليه. فأمّا من كانت بدعته كفرية أو شركية فهذا يتبرأ منه ويهجر هجراً نهائياً وليس له أي موالاة بل البراءة منه كالبراءة من الكافر الأصلي أو المشرك. ومثال ذلك من أحدث حدثاً في الإسلام، أو آوى محدثاً ونصره وأعانه كما جاء في الحديث: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» (١٠٤). قال ابن القيم: (ومن أعظم الحدث تعطيل كتاب الله وسنة رسوله وإحداث ما خالفهما، ونصر من أحدث ذلك والذب عنه، ومعاداة من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) (١٠٥). وأما من كانت بدعته دون ذلك أي من المعاصي والذنوب التي لا تصل إلى حد الكفر أو الشرك فهذه تختلف أيضاً باختلاف الأشخاص والأزمان.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستقيم إلا بالبصيرة والمعرفة التامة، وأقل الأحوال إذا لم يحصل للعبد ذلك: أن يقتصر على نفسه كما قال ﷺ: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك» (١٠٦). فإذا رأى المسلم

(١٠٤) أبو داود (ج ٤/٦٦٩، ح ٤٥٣٠) كتاب الديّات، والنسائي: (ج ٢٠/٨) في القسامة، وإسناده حسن.

(١٠٥) «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج ٤/٤٠٥).

(١٠٦) أبو داود: (ج ٤/٥١٢، ح ٣٤١) كتاب الملاحم، والترمذي: (ج ٣٠٦٠) في التفسير، وقال: حديث حسن غرب، وابن ماجه: (ج ٢/١٣٣١، ح ٤٠١٤) في الفتن، وانظر «جامع الأصول»: (ج ٣/١٠، ح ٧٤٥٣). قال الألباني: ضعيف ولبعضه شواهد. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج ٣/١٤٢٣).

من يعمل شيئاً من المعاصي: أبغضه على ما فيه من الشر، وأحبه على ما فيه من الخير - كما ذكرنا ذلك في معتقد أهل السنة في أول البحث - ولا يجعل بغضه على ما معه من الشر قاطعاً وقاضياً على ما معه من الخير فلا يحبه، بل إن كان بغضه له يزجره ذلك ولا يرتدع هو وأمثاله راعى فيه الإصلاح، لأن النبي ﷺ هجر من علم أن الهجر يزجره ويردعه، وقبل معذرة من علم أن الهجر لا ينجع فيه شيئاً ووكل سرائرهم إلى الله^(١٠٧).

وعلى أي حال فإنه ينبغي للمسلم أن لا يخالط أهل البدع والفجور وسائر المعاصي، إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم، ماقثاً شائناً ما هم فيه بحسب الإمكان كما في الحديث «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسهان» فإن لم يستطع فبقلمه وذلك أضعف الإيمان^(١٠٨).

والهجر الشرعي نوعان:

الأول: بمعنى الترك للمنكرات.

والثاني: بمعنى العقوبة عليها.

فالأول هو المذكور في قوله تعالى:

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

[سورة الأنعام: ٦٨].

وقوله تعالى:

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

(١٠٧) انظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية: (ج ٧/٤١).
 (١٠٨) تفسير سورة النور لابن تيمية: (ص ٥٥)، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧ هـ،
 والحديث في «صحيح مسلم»: (ج ١/٦٩، ح ٤٩) كتاب الإيمان.

أَلِكْتَبْ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِذَا أَمْلَأَهُمُ

[سورة النساء: ١٤٠].

وهذا الهجر من جنس هجر الإنسان نفسه عن فعل المنكرات كما قال
ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (١٠٩). ومن هذا الباب الهجرة
من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان، فإنه هجر للمقام بين
الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به، ومن هذا
قوله تعالى:

وَالزَّجْرَ فَأَهْجُرْ

[سورة المدثر: ٥].

أما النوع الثاني وهو الهجر على وجه التأديب: فهو هجر من يظهر
المنكرات حتى يتوب منها كما هجر النبي ﷺ والمسلمون: «الثلاثة الذين
خلفوا» (١١٠) حتى أنزل الله توبتهم.

وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم، وقتلهم
وكثرتهم فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل
حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى
ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع
بذلك بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف، بحيث تكون مفسدة ذلك راجحة
على مصلحته لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من
الهجر.

(١٠٩) صحيح البخاري: (ج ١/٥٣، ح ١٠) كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم
المسلمون من لسانه ويده.

(١١٠) سيرد حديثهم إن شاء الله في الباب الأخير عند الحديث عن كعب بن مالك
وهو أحدهم.

وقد كان النبي ﷺ يتألف قوماً ويهجر آخرين.
 وإذا عرف هذا فالهجر يجب أن يكون خالصاً لله وموافقاً لأمره، لأن
 من هجر لموى نفسه أو هجر هجراً غير مأمور به كان خارجاً عن هذا
 الأصل، وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة
 لله (١١١).

والهجر من باب "العقوبات الشرعية" فهو من جنس الجهاد في سبيل
 الله، وهذا يفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله،
 والمؤمن عليه أن يعادي في الله، ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن
 فعليه أن يواليه وإن ظلمه، فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية قال تعالى:

وَلَا تَلْفَنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفَنَتَلَوَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
 عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَنِّتُوا الَّتِي تَبْغِي حَقَّ نِفْيَةٍ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا
 بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
 فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ [سورة الحجرات: ٩ - ١٠].

فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغى (١١٢).

ومما ينبغى التنويه به: (أن هذا الهجران والتبري والمعاداة لأهل البدع
 المخالفين في الأصول. أما الاختلاف في الفروع بين العلماء فأختلاف
 رحمة أراد الله أن لا يكون على المؤمنين حرج في الدين، فذلك
 لا يوجب الهجران والقطيعة لأن هذا الاختلاف كان بين أصحاب
 رسول الله ﷺ مع كونهم إخواناً مؤتلفين، رحماء بينهم، وتمسك بقول
 كل فريق منهم طائفة من أهل العلم بعدهم، وكل في طلب الحق، وسلوك
 سبيل الرشد مشتركون) (١١٣).

(١١١) انظر «مجموع الفتاوى»: (ج ٢٨/ ٢٠٣ - ٢٠٧).

(١١٢) المصدر السابق: (ج ٢٨/ ٢٠٨).

(١١٣) «شرح السنة» للبغوي: (ج ١/ ٢٢٩).

كلمات للسلف في الاتباع والنهي عن الابتداع

سلف الأمة رحمهم الله كانوا حريصين على الوقوف عند كتاب الله العزيز وسنة نبيه ﷺ وكانوا يمتقون من يخرج عن هذين المصدرين الأصليين. وقد كثر كلامهم في هذا ولكني أورد هذه الكلمات القيمة لما لها من أثر في تزويد المؤمن بالثبات على ما ثبتوا عليه.

قال الإمام مالك رحمه الله: (من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين، لأن الله تعالى يقول:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

[سورة المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً (١١٤).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ستجدون قوماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم وإياكم والتبدع والتنطع والتعمق وعليكم بالعتيق» (١١٥).

وقال أبو العالية الرياحي: (تعلموا الإسلام فإذا علمتوه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإن الصراط المستقيم: الإسلام، ولا تحرفوه يميناً وشمالاً، وعليكم بسنة نبيكم وأصحابه) (١١٦).

(١١٤) «الاعتصام» للشاطبي: (ج ٢/٥٣).

(١١٥) «التنبيه والرد» للملطبي: (ص ٨٥)، ومعنى العتيق: أي القديم الأول.

(١١٦) المصدر السابق: (ص ٨٤).

وقال الشافعي رحمه الله: (لأن يلقى الله العبد بكل ذنب - ما خلا الشرك - خير من أن يلقاه بشيء من الهوى) (١١٧).

وقيل لسفيان بن عيينة: (ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم فقال: أنسيت قوله تعالى:

وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمَاجَالَ بِكُفْرِهِمْ

[سورة البقرة: ٩٣]) (١١٨).

ولذلك قال أبو قلابة: (لا تجالسوا أهل الأهواء فإنني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون) (١١٩).

وقال آبن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم» (١٢٠).
حقاً، لقد كفيتم فكتاب الله واضح وجلي، وسنة رسوله ﷺ واضحة ومفصلة وشارحة لكتاب الله، وسيرة سلفنا الصالح محفوظة لدينا وما علينا إلا اتباع الكتاب والسنة والبعد عن كل مبتدع ودخيل، وإذا فعلنا ذلك كنا أمة متميزة لها شخصيتها المستقلة التي لا تجاري أصحاب الأهواء والآراء البشرية الناقصة.

وما تبعت أمة داعي كل ناعق إلا تردت في مهاوي الجهل والظلام، والله يريد لعباده المؤمنين النور والصلاح والفلاح، وكل ذلك في الإسلام وحده وما عداه فجاهلية وضلال. أعاذنا الله من ذلك.

(١١٧) «الاعتقاد على مذهب السلف للبيهقي: (ص ١١٨).

(١١٨) «المبودية لابن تيمية: (ص ٧٠).

(١١٩) «الاعتقاد للبيهقي: (ص ١١٨).

(١٢٠) «سنن الدارمي: (ج ١/٦٩) في كتاب العلم، باب كراهية الأخذ بالرأي. قال

السخاوي: وأخرجه الديلمي في «مسنده». انظر «المقاصد الحسنة»: (ص ١٦).

الفصل الخامس

انقطاع التوارث والنكاح بين المسلم والكافر

من حرص الإسلام على تمييز المسلم وقطع العلائق والوشائج التي قد ترده عما أراده الله له: قطع التوارث بين المسلم وقربيه الكافر، وكان هذا التكليف من مقتضيات الولاء والبراء في التصور الإسلامي.

ولكن ذلك جاء بعد الأمر للنبي ﷺ بالجهاد، فقد كان ﷺ - كما يذكر ابن القيم - قبل أن يفرض الجهاد يقر الناس على ما هم عليه في الأنكحة ويدعوهم إلى الإسلام، وكانت المرأة تُسلم وزوجها كافر فلا يفرق الإسلام بينهما حتى صلح الحديبية، وبعد هذا الصلح نزل تحريم المسلمة على الكافر^(١٢١). قال تعالى:

لَا هُنَّ لَكُمْ وَلَا هُمْ بِكُمْ حَٰلُونَ

[سورة الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى:

وَلَا تَنْكِحُوا بَعْضَ الْكَافِرِ

[سورة الممتحنة: ١٠].

لقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة، وأن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات كما يستقر في واقعهم: أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان، وأن

(١٢١) وأحكام أهل الذمة: (ج ١/٦٩).

لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله (١٢٢).

وجاء التحريم أيضاً في سورة البقرة في قوله تعالى:

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى
يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
وَبَيِّنُ عَآيِنَهُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

[سورة البقرة: ٢٢١].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في قوله تعالى:
﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ هذه عامة في جميع النساء المشركات،
وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى:

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

[سورة المائدة: ٥].

أما قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ فهذا عام
لا تخصيص فيه.

وذكر سبحانه العلة والحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن
خالفهما في الدين فقال: ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾ أي في أقوالهم وأفعالهم
وأحوالهم فمخالطتهم على خطر منهم: بل إنه الشقاء الأبدي (١٢٣).

ونكاح المسلم للكتانية مجمع عليه - كما قال شيخ الإسلام ابن
تيمية - من السلف والخلف، ولكن يروى عن ابن عمر أنه كره نكاح

(١٢٢) (الظلال: ج ٦/٣٥٤٦).

(١٢٣) «تفسير كلام المتان» لابن سعدي: (ج ١/٢٧٤).

النصرانية وقال: لا أعلم شركاً أعظم ممن تقول إن ربها عيسى ابن مريم^(١٢٤)، ولكن الجواب على ذلك من ثلاثة أوجه:

(١) إن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين بدليل قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ

[سورة البقرة: ٦٢].

فإن قيل قد وصفوا بالشرك بقوله:

اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ

وَرُفِعَتْهُمْ أَرْكَبًا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ

مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْكِمُهُ عَمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

[سورة التوبة: ٣١].

قيل: أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك، لأن الله بعث الرسل بالتوحيد، ولكن النصارى ابتدعوا الشرك وما دام أنه ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم أتباع الكتب المنزلة.

(٢) أن يقال: آية البقرة عامة وآية المائدة خاصة. والخاص يقدم على العام.

(٣) أن يقال: آية المائدة ناسخة لآية البقرة لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء^(١٢٥).

(١٢٤) الأثر في «صحيح البخاري»: (ج ٩/٤١٦، ح ٥٣٨٥). كتاب الطلاق، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾. عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية قال: إن الله حرم المشركات على المؤمنين ولا أعلم من الإشراف شيئاً أكبر من أن تقول المرأة ربها عيسى وهو عبد من عباد الله.

(١٢٥) «دقائق التفسير» لابن تيمية: (ج ١/٢٥٨ — ٢٦٠) تحقيق وجمع الدكتور: محمد السيد الجليند. الناشر: دار الأنصار.

والذي يظهر لي. والله أعلم - أن الجواب الأول من الأجوبة الثلاثة التي ذكرها شيخ الإسلام غير مسلم به، مع التسليم بأن أصل دينهم هو التوحيد، ولكنهم نقضوا هذا الأصل والعبرة بالخواتيم. أما الجواب الثاني والثالث فهذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم^(١٢٦).

وأما انقطاع التوارث بين المسلم والكافر فهذا أيضاً من التكليف، والمقتضيات للولاء والبراء ودليل ذلك قوله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم» متفق عليه^(١٢٧).

والسبب في ذلك: أن التوارث يتعلق بالولاية. ولا ولاية بين المسلم والكافر لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضُهُمْ﴾^(١٢٨). قال البيهقي: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم: أن الكافر لا يرث المسلم، والمسلم لا يرث الكافر لقطع الولاية بينهما، إلا ما روي عن معاذ ومعاوية أنهما قالوا: المسلم يرث الكافر، ولا يرثه الكافر، وحُكي ذلك عن إبراهيم النخعي، كما أن المسلم ينكح الكاتبة ولا ينكح الكافر المسلمة، وبه قال إسحاق بن راهوية^(١٢٩).

أما المرتد: فلا يرث أحداً. لا مسلماً ولا كافراً ولا مرتداً. واختلفوا في ميراثه:

فذهب جماعة: إلى أنه لا يورث منه بل ماله فيء. وهذا قول مالك والشافعي.

(١٢٦) انظر على سبيل المثال «المغني» لابن قدامة: (ج٧/١٢٩).

(١٢٧) «صحيح البخاري»: (ج١٢/٥٠، ح٦٧٦٤) كتاب الفرائض، و«صحيح

مسلم»: (ج٣/١٢٣٣، ح١٦١٤) كتاب الفرائض.

(١٢٨) «فتح الباري»: (ج١٢/٥٠).

(١٢٩) «شرح السنة»: (ج٨/٣٦٤).

وذهب جماعة: إلى أن ميراثه لأقاربه المسلمين وهو قول الحسن والشعبي وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد. وذهب بعضهم: إلى أن ما اكتسبه في الإسلام لورثته المسلمين، وما اكتسبه بعد الردة فيء وهو قول سفيان الثوري وأبي حنيفة (١٣٠).

إن الإسلام دين عزّة وعفّة وقوة يرتفع بالمسلم أن تبقى نفسه معلقة بأطماع قاصرة لا تتفق مع مبدأ هذا الدين وتميزه وسمو تشريع. بل إنه ليقطع كل ما من شأنه أن يثبط المسلم أو يغريه بالتذبذب في دينه أو بالتناق. لذلك قطع النكاح من الكافر لئلا يكون له سلطة على المسلمة؛ فالإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وقطع النكاح من الكافرة لأنها سبب خطير في "جرف" زوجها إلى ملتها وتنشئة الأطفال على مبدأ الكفر والشرك. وقطع التوارث بين المسلم والكافر حتى يبقى المسلم مصوناً من المال الحرام لأن صاحبه الكافر رضي بالحرام وترك شريعة الله الحلال شريعة الإسلام.

وما دام أنه قد انقطع التناصر والولاء الإيماني بين المسلم والكافر فلا ينقطع النكاح والتوارث من باب أولى لتخلص نفس المسلم لله رب العالمين وتصبح حياته ومماته كلها قائمة على منهج الله القويم وشرعه الحكيم.

وبهذا يكون التميز الكامل متحققاً في حياة المسلم فهو لا يعبد إلا الله، ومن ثم فلا يتلقى إلا من الله، ولا يرجو ولا يطلب الرزق إلا من الله. ولا يسير في أمر يسير أو كبير إلا بحسب ما أَرَادَ الله، وهذا هو معنى الاستسلام لله. والطاعة والانقياد له.

(١٣٠) «شرح السنّة»: (ج ٨/٣٦٥).

الفصل السادس

النهي عن التشبه بالكفار والحرص على حماية المجتمع الإسلامي

الدين الإسلامي ليس حريصاً على تميز المسلمين في المضمون فحسب وإنما حتى في المظهر العام للمسلم في نفسه وللمجتمع الإسلامي في عنومه. ولذلك كان النهي عن التشبه بالكفار أحد التكاليف الربانية لهذه العقيدة. وقد حفل الكتاب والسنة بأدلة كثيرة حول هذه القضية. لأن التشبه بالكفار في الظاهر يورث التشبه بهم في العقيدة، أو مودتهم، ومسايرتهم وموافقتهم على هواهم مما يحدث التميع في حياة المسلم ويجعله إمعة يتبع كل ناعق، وآله يريد له العزة والكرامة. وإذا تمعنا في طريقة التربية القرآنية: وجدنا أن الإسلام ربّى المسلمين على العقيدة الصحيحة فترة طويلة قبل نزول التكاليف، فلما رست جذور هذه الشجرة المباركة في النفوس جاءت التكاليف واحداً إثر الآخر مما جعل المسلمين يترقون في هذا السلم التربوي الإيماني إلى الذروة.

من هنا جاء النهي عن التشبه بالكفار في العهد المدني. وذلك بعد الجهاد من أجل صيانة وحماية المجتمع الإسلامي من كل دخيل، وحرصاً على بناء الشخصية الإسلامية الفريدة. فكما أن هذه العقيدة فريدة في مضمونها وجوهرها فهي أيضاً فريدة في شكلها ومظهرها. لذا وجب على صاحبها أن يكون متميزاً بعد أن أخرجه الله من الظلمات إلى النور.

وتجتاح العالم الإسلامي اليوم موجة من التبعية الجارفة في كل شيء، ومن ذلك التشبه بالغرب الكافر من قبل ضعاف الإيمان الذين يرون أن ذلك الفعل هو سبيل التقدم والرقى!

وفي هذا يقول الأستاذ محمد أسد:

(... وإن السطحيين من الناس فقط ليستطيعون أن يعتقدوا أنه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها.

(إن المدنية ليست شكلاً أجوف فقط، ولكنها نشاط حي. وفي اللحظة التي نبدأ فيها. بتقبل شكلها تأخذ مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فيها، ثم تخلع على آتجانها العقلي كله شكلاً معيناً ولكن ببطء ومن غير أن نلاحظ ذلك.

ولقد قدر الرسول ﷺ هذا الاختيار حق قدره حينما قال: «مَنْ تشبه بقوم فهو منهم»^(١٣١). وهذا الحديث المشهور ليس إيماءه أدبية فحسب، بل تعبير إيجابي يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التي يقلدونها.

(ومن هذه الناحية قد يستحيل أن نرى الفرق الأساسي بين "المهم" وبين "غير المهم" في نواحي الحياة الاجتماعية وليس ثمة خطأ أكبر من أن نفترض أن اللباس - مثلاً - شيء خارجي بحت وأن لا خوف منه على "حياة المسلم" العقلية والروحية. إنه على وجه العموم نتيجة تطور طويل الأمد لذوق شعب ما في ناحية معينة. وزى هذا اللباس يتفق مع الإدراك البديعي لذلك الشعب ومع ميوله. لقد تشكل هذا الزى ثم ما فتىء يبدل أشكاله باستمرار حسب التبدل الذي طرأ على خصائص ذلك الشعب وميوله، ولبس الثياب الأوروبية يوفق المسلم من غير شعور ظاهر بين ذوقه والذوق الأوروبي ثم يشوه "حياته" العقلية بشكل يتفق نهائياً مع اللباس الجديد وبعمله هذا يكون "المسلم" قد تخلى عن الإمكانيات الثقافية لقومه، وتخلى

(١٣١) سيرد تخريجه بعد قليل.

عن ذوقهم التقليدي، وتقبل لباس العبودية العقلية الذي خلعت عليه المدنية الأجنبية.

(إذا حاكى المسلم أوروبا في لباسها، وعاداتها وأسلوب حياتها فإنه يكشف عن أنه يؤثر المدنية الأوروبية، مهما كانت دعواه التي يعلنها، وأنه لمن المستحيل عملياً أن تقلد مدنية أجنبية في مقاصدها العقلية والبدئية من غير إعجاب بروحها، وأنه لمن المستحيل أن تعجب بروح مدنية مناهضة للتوجيه الديني، وتبقى مع ذلك مسلماً صحيحاً.

إن الميل إلى تقليد التمدن الأجني نتيجة الشعور بالنقص. هذا ولا شيء سواه، ما يصاب به المسلمون الذين يقلدون المدنية الغربية) (١٣٢).

وأصل المشابهة: إن الله جبل بني آدم - بل سائر المخلوقات - على التفاعل بين الشئين المتشابهين، وكلما كانت المشابهة أكثر: كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم. والمشاركة بين بني الإنسان أشد تفاعلاً فلأجل هذا الأصل وقع التأثير والتأثير في بني آدم فأكسب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة.

والمشابهة في الأمور الظاهرة: توجب مشابهة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي، وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين أقل كفرة من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام (١٣٣).

ثم إن المشاركة في الهدى الظاهر: توجب مناسبة وأتلاًفاً وإن بعد المكان والزمان وهذا أمر محسوس، بل إنها تورث نوع مودة ومحبة وموالة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر.

(١٣٢) «الإسلام على مفترق الطرق»: (ص ٨١ - ٨٣) ترجمة الدكتور عمر فروغ، الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٤م، دار العلم للملايين.

(١٣٣) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢٢٠) بتصرف.

وإذا كانت المشابهة في الأمور الدنيوية تورث المحبة والموالاتة فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ نعم. إنها تفضي إلى نوع من الموالاتة أكثر وأشد. والمحبة لهم تنافي الإيمان كما قال تعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١].

وثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان، لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم (١٣٤)

وهنا لا بد أن نورد بعض النصوص الكثيرة والمستفيضة من الكتاب والسنة التي نهت عن مشابهة الكفار وآتباع أهوائهم.
منها قوله تعالى:

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة الجاثية: ١٨ - ١٩].

يقول في تفسيرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: جعل الله محمداً ﷺ على شريعة من الأمر شرعها له وأمره بآتباعها، ونهاه عن آتباع أهواء الذين لا يعلمون. وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته. وأهواءهم: هي ما يهونونه وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل وتوابع ذلك. فموافقتهم فيه آتباع لما يهونونه ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين لهم في بعض الأمور ويسرون بذلك.

(١٣٤) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢١٩ - ٢٢٢) يتصرف.

ولو فرض أن الفعل ليس من اتباع أهوائهم: فلا ريب أن مخالفتهم في ذلك أحسم لمادة متابعتهم في أهوائهم وأعون على حصول مرضاة الله في تركها (١٣٥).

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى:

وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هَوًّا مَّيْذِينَ وَلَئِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

[سورة البقرة: ١٢٠].

فانظر كيف جاء في الخبر "ملتهم" وفي النهي "أهواءهم" لأن القوم لا يرضون إلا باتباع الملة مطلقاً. والزجر وقع عن اتباع أهوائهم في قليل أو كثير، ومن المعلوم أن متابعتهم في بعض ما هم عليه من الدين: نوع متابعة لهم في بعض ما يهوونه. أو مظنة لمتابعتهم فيما يهوونه (١٣٦).

ومن الأدلة القرآنية: أيضاً ما ورد في سورة البقرة بخصوص تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة قال تعالى:

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِئَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ فِئَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ فِئَتَةِ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٥﴾

[سورة البقرة: ١٤٥].

(١٣٥) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٤).

(١٣٦) المصدر السابق: (ص ١٥).

إلى قوله تعالى:

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ إِنَّهَا لَيَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَإِنَّمَا نَقِمَ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ

[سورة البقرة: ١٥٠].

قال غير واحد من السلف: معناه لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة فيقولوا: قد وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا. فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة. وبين سبحانه أن من حكمة فسخ القبلة وتغييرها: مخالفة الكافرين في قبلتهم ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، وهذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة فإن الكافر إذا أتبع في شيء من أمره كان له من الحجة مثل ما كان - أو قريب مما كان - لليهود من الحجة في القبلة^(١٣٧).

ومن الأدلة القرآنية أيضاً الدالة على النهي عن التشبه بهم في أي حال وأي حال وأي وضع بقوله تعالى:

فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة يونس: ٨٩].

وقوله تعالى:

وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ

[سورة الأعراف: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى:

(١٣٧) نفس المصدر: (ص ١٦).

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ

[سورة النساء: ١١٥].

كل ذلك يدل على أن جنس مخالفتهم وترك مشابهتهم أمر مشروع (١٣٨).

أما السنة النبوية فورد فيها نصوص كثيرة في هذا الموضوع. ومن ذلك قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» (١٣٩). وفي هذا الحديث يقول آبن تيمية: إسناده جيد وأقل أحواله: أنه يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى:

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ

[سورة المائدة: ٥١].

وهو نظير ما قاله عبد الله بن عمرو: «من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة» (١٤٠). فقد يحمل هذا على التشبه المطلق الذي يوجب الكفر.. وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً للكفر أو المعصية: كان حكمه كذلك.

أما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضاً، ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه ففي كون هذا تشبهاً نظراً. لكن قد ينهى عن هذا لئلا يكون ذريعة إلى التشبه ولما فيه من المخالفة (١٤١). ومن الأدلة النبوية أيضاً قوله ﷺ:

(١٣٨) انظر نفس المصدر: (ص ١٦).

(١٣٩) «سنن أبي داود»: (ج ٤/٣١٤، ح ٤٠٣١) كتاب اللباس، و«مسند أحمد»:

(ج ٧/١٤٢، ح ٥١١٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقال

الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع»: (ج ٥/٢٧٠، ح ٦٠٢٥).

(١٤٠) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٨٣)، والأثر سبق تخريجه: (ص ٢٧٦).

(١٤١) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٨٢ — ٨٣).

«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» (١٤٢).

وفي الصحيح أيضاً: عن ابن عمر: أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الجحر - أرض ثمود - فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردّها الناقة (١٤٣).

ولما كان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ويسمونها "ذات أنواط" قال بعض الناس: يا رسول الله: أجعل ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال ﷺ: «الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنها السنن لتركين سنن من كان قبلكم» (١٣٤). فأنكر النبي ﷺ مجرد مشابهتهم الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أظم من ذلك من مشابهتهم المشركين أو هو الشرك بعينه؟ (١٤٥).

أيها أعظم - يا ترى - شجرة يعلق عليها سلاح نبي عنها لأن فيها اقتداء بفعل الكفار أم نظام حياة فيه التشريع والتحليل والتحريم والإلزام والعقوبة على المخالفة؟

ومن الأحاديث الواردة في النهي عن التشبه قوله ﷺ: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالقوهم» (١٤٦).

(١٤٢) سبق تخريجه: (ص ٢٤٧).

(١٤٣) صحيح مسلم: (ج ٤/٢٢٨٥، ح ٢٩٨١).

(١٤٤) مسند أحمد: (ج ٥/٢١٨)، إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح.

(١٤٥) اقتضاء الصراط: (ص ٣١٤).

(١٤٦) صحيح البخاري: (ج ٦/٤٩٦، ح ٣٤٦٢) كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى،

وصحيح مسلم: (ج ٣/١٦٦٣، ح ٢١٠٣).

وقوله ﷺ: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم» (١٤٧).

وقوله ﷺ: «ليس منا من تشبه بقبرنا» (١٤٨).

إن هذه النصوص وغيرها تهدف إلى سدِّ الذرائع لأن المشابهة في الظاهر ذريعة إلى الموافقة في القصد والعمل (١٤٩).

لكن هناك حالات معينة قد تجعل المسلم يشارك الكفار في الهدى الظاهر.

فمتى تكون الموافقة ومتى تكون المخالفة؟

يجب على ذلك شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله بقوله: إن المخالفة لا تكون إلا بعد ظهور الدين وعلوه كالجهاد وإلزامهم بالجزية والصغار، ولما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء فإنه لم يشرع لهم المخالفة، فلما كمل الدين وظهر وعلا شرع ذلك.

ومثل ذلك اليوم - هذا كلام الشيخ في عصره فكيف بالعصور التالية؟! - لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب: لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في الهدى الظاهر لما عليه في ذلك من الضرر. بل يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم إلى الدين، والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك أو دفع ضررهم عن المسلمين ونحو ذلك من المقاصد الصالحة فأما في دار الإسلام والمجرة التي أعزَّ الله فيها دينه، وجعل على الكافرين بها الصغار والجزية: ففيها شرعت المخالفة.

(١٤٧) «سنن أبي داود»: (ج ١/٤٢٧، ح ٦٥٢) كتاب الصلاة، وقال الألباني: صحيح.

انظر «صحيح الجامع»: (ج ٣/١٠٦، ح ٣٢٠٥).

(١٤٨) «سنن الترمذي»: (ج ٧/٣٣٥، ح ٢٦٩٦)، وقال: إسناده ضعيف. ولكن حسنه

الألباني. انظر «صحيح الجامع»: (ج ٥/١٠١، ح ٥٣١٠).

(١٤٩) «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج ٣/١٤٠).

وإذا ظهرت الموافقة والمخالفة لهم باختلاف الزمان: ظهرت حقيقة الأحاديث (١٥٠) في هذا.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله قاعدة جلية عليها مدار الشرع وإليها مرجع الخلق والأمر - كما يقول ابن القيم - وهي: إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فانت المصلحة التي هي دونها، والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها. فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها (١٥١).

ولكن مع هذا يجب أن يحذر المسلم فإن هذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة رسول الله ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليها، وأرضاها له (١٥٢).

وإذا أردنا أن نعرف تفصيل مخالفة أهل الكتاب وجدنا أن ذلك يندرج تحت ثلاثة أقسام (١٥٣):

(١) ما كان مشروعاً في الشريعتين، أو ما كان مشروعاً لنا وهم يفعلونه فهذا كصوم يوم عاشوراء، أو كأصل الصلاة والصيام، فهنا تقع المخالفة في صفة ذلك العمل كما سنلنا صوم تاسوعاء، وعاشوراء، وكما أمرنا بتعجيل الفطر والمغرب مخالفة لأهل الكتاب، وكذلك تأخير السحور مخالفة لهم، والصلاة في النعلين مخالفة لليهود وهذا كثير في العبادات وكذلك في العادات.

(٢) ما كان مشروعاً ثم نسخ بالكلية كالسبت، أو إيجاب صلاة أو صوم. ولا يخفى النهي عن موافقتهم في هذا.

(١٥٠) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٧٦ - ١٧٧).

(١٥١) «الجواب الكافي»: (ص ١٦٧).

(١٥٢) انظر «بدائع الفوائد»: (ج ٢/ ٢٦٢).

(١٥٣) ذكرها شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٧٨ - ١٧٩).

وكذلك الأمر في أعيادهم، لأن الأعياد المشروعة يشرع فيها وجوباً أو استحباباً من العبادات ما لا يشرع في غيرها كالصلاة أو الذكر أو الصدقة أو النسك ويباح فيها أو يستحب أو يجب من العادات التي للنفوس فيها حظ ما لا يكون في غيرها كذلك كالتوسع في الطعام واللباس.

ولهذا وجب علينا فطر العيدين وقرن بالصلاة في أحدهما الصدقة وقرن بها في الآخر الذبح وكلاهما من أسباب الطعام فموافقتهما في هذا القسم المنسوخ من العبادات أو العادات أو كليهما أقبح من موافقتهم فيما هو مشروع الأصل. ولهذا كانت الموافقة في هذا محرمة.. وفي القسم الأول قد لا تكون إلا مكروهة.

(٣) ما أحدثوه من العبادات أو العادات أو كليهما، فهذا أقبح وأقبح، فإنه لو أحدثه المسلمون لقد كان يكون قبيحاً، فكيف إذا كان مما لم يشرعه نبي قط؟ بل قد أحدثه الكافرون؟ فالموافقة فيه ظاهرة القبح. فهذا أصل. وأصل آخر: وهو أن كل ما يتشابهون فيه من عبادة أو عادة أو كليهما هو من المحدثات في هذه الأمة ومن البدع إذ الكلام فيما كان من خصائصهم. وأما ما كان مشروعاً لنا وقد فعله سلفنا السابقون فلا كلام فيه.

ونخلص إلى القول: أن حكم الموافقة في الأول مكروهة وفي الثاني محرمة وفي الثالث أشد حرمة.

ما بين التشبه والولاء من علاقة

من نافلة القول: أن الشارع ما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه، وما ترك شراً إلا حذر الأمة منه. وحين أمر الشارع الحكيم بمخالفة الكفار - في الهدى الظاهر - فإن ذلك لحكم جليلة^(١٥٤) منها:

(١) إن المشاركة في الهدى الظاهر: تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال.

وهذا أمر محسوس، فإن اللابس لثياب الجند المقاتلة - مثلاً - يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضياً لذلك، إلا أن يمنعه من ذلك مانع.

(٢) إن المخالفة في الهدى الظاهر: توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال. والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتم حياة، وأعرف بالإسلام الذي هو الإسلام - لست أعني مجرد التوسم به ظاهراً، أو باطنياً بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة - كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنياً أو ظاهراً أتم. وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

(٣) إن مشاركتهم في الهدى الظاهر: توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التمييز ظاهراً بين المهديين والمرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

(١٥٤) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١١ - ١٢).

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحاً محضاً، لو تجرد عن مشابهتهم. فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالتهم ومعاصيهم. وهذا أصل ينبغي أن يتفطن إليه^(١٥٥).

مثال واحد من مشابهة اليهود والنصارى (العيد)

العيد مظهر مميز للأمة، ومن هنا اخترته مثلاً واحداً من أمثلة التشبه باليهود والنصارى. وقد وردت الأدلة الكثيرة المحرمة للتشبه بهم في هذا الشأن من الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار^(١٥٦).
أما الكتاب: فقد قال تعالى:

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ

[سورة الفرقان: ٧٢].

قال مجاهد في تفسيرها إنها أعياد المشركين وكذلك قال مثله الربيع بن أنس والقاضي أبو يعلى والضحاك^(١٥٧).

وإذا كان الله قد مدح ترك شهودها الذي هو مجرد الحضور برؤية أو

(١٥٥) نفس المصدر: (ص ١٢).

(١٥٦) أفاض شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا الموضوع بما يكفي وبشفي في كتابه القيم «اقتضاء الصراط المستقيم». ولذا فما أذكره هنا مقتبس من كلامه رحمه الله.

(١٥٧) المصدر السابق: (ص ١٨١).

سماع فكيف بالموافقة بما يزيد على ذلك من العمل الذي هو عمل الزور لا مجرد شهادة؟

ومن السنة: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: «ما هذان اليومان؟» قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر» رواه أبو داود^(١٥٨) وأحمد والنسائي على شرط مسلم. ووجه الدلالة: أن اليومين الجاهليين لم يقرهما رسول الله ﷺ ولا تركهم يلعبون فيهما على العادة بل قال: «إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما..» والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه، إذ لا يجمع بين البديل والمبدل منه. وهذه العبارة لا تستعمل إلا فيما ترك اجتماعهما كقوله تعالى:

أَفَسَتَجِدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ
يَتَسَلَّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا

[سورة الكهف: ٥٠].

وقوله ﷺ «خيراً منهما» يقتضي الاعتياض بما شرع لنا عما كان في الجاهلية.

والمختار في أعياد أهل الكتابين التي نقرهم عليها أشد من المختار في أعياد الجاهلية التي لا نقرهم عليها، فإن الأمة قد حذروا مشابة اليهود والنصارى وأخبروا إن سيفعل قوم منهم هذا المختار، بخلاف دين الجاهلية فإنه لا يعود إلا في آخر الدبر عند آخترام أنفس المؤمنين عموماً، ولو لم يكن أشد منه فإنه مثله على ما لا يخفى، إذ الشر الذي له فاعل موجود يخاف على الناس منه أكثر من شر لا مقتضي له قوي^(١٥٩).

(١٥٨) كتاب «الصلاة»: (٦٧٥/، ح ١١٣٤)، وانظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٨٤).

(١٥٩) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٨٤ — ١٨٦).

أما الإجماع: فمما هو معلوم من السير أن اليهود والنصارى والمجوس مازالوا في أمصار المسلمين بالجزية يفعلون أعيادهم التي لهم، ومع ذلك لم يكن على عهد السلف من المسلمين من يشركهم في شيء من ذلك.

وكذلك ما فعله عمر بخصوص أهل الذمة - سيأتي ذكر ذلك قريباً - وما اتفق عليه الصحابة والفقهاء أن أهل الذمة لا يظهرون أعيادهم في دار الإسلام، وإذا كان هذا اتفاقهم فكيف يسوغ للمسلمين فعلها؟ أو ليس فعل المسلم لها أشد من فعل الكافر لها مظهراً لها؟

وقد قال عمر رضي الله عنه: «إياكم ورطانة الأعاجم، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم في كنائسهم فإن السخطة تنزل عليهم» رواه أبو الشيخ الأصبهاني ورواه البيهقي بإسناد حسن (١٦٠).

وأما الاعتبار: فالأعياد من جملة الشرع، والمناهج والمناسك التي قال الله فيها:

لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

[سورة المائدة: ٤٨].

فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج، فإن الموافقة في جميع العيد: موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه: موافقة في بعض شعب الكفر، بل إن الأعياد من أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر وأظهر شعائره.

ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة (١٦١).

(١٦٠) نفس المصدر: (ص ١٨٢، ١٩٩).

(١٦١) نفس المصدر: (ص ٢٠٨).

ثم إن عيدهم من الدين الملعون هو وأهله، فموافقتهم فيه موافقة فيما يميزون به من أسباب سخط الله وعقابه.

ومن أوجه الاعتبار أيضاً: أنه إذا سوغ فعل القليل من ذلك أدى إلى فعل الكثير، ثم إذا أشتهر الشيء دخل فيه عوام الناس وتناسوا أصله حتى يصير عادة للناس بل عيداً لهم، حتى يضاهى بعيد الله، بل قد يزيد عليه حتى يكاد أن يفضي إلى موت الإسلام وحياة الكفر^(١٦٢).

أما ما ينعكس على نفوسهم إذا تشبه بهم المسلمون في العيد خاصة فهو السرور والفرح لأن في ذلك رفعة لباطلهم وتنافياً لمبدأ القهر والجزية والصغار الواقعين تحته.

وخلاصة المشابهة: أنها تفضي إلى كفر أو معصية غالباً، أو تفضي إليهما في الجملة وليس في هذا المفضي مصلحة، وما أفضى إلى ذلك كان محرماً فالمشابهة محرمة، والمقدمة الثانية لا ريب فيها، لأن استقرار الشريعة يدل على أن ما أفضى إلى الكفر غالباً حرام وما أفضى إليه على وجه خفي حرام وما أفضى إليه في الجملة ولا حاجة تدعو إليه حرام^(١٦٣).

وبعد أن يتمعن المسلم كل هذه الأحكام بخصوص العيد عليه أن يقيس بمقياس الكتاب والسنة: الأعياد المحدثه اليوم ومن يحدثونها ومن يهثون بها الكفرة والملاحدة. مثل عيد الثورة! وعيد الجلوس! وعيد الميلا! وعيد الأم! وعيد تحكيم القانون ونبد الشريعة! وعيد الوطن! وعيد الجلاء!... إلى آخر هذه المسميات والأسماء الجاهلية التي ما أنزل بها من سلطان، والتي هي مضاهاة ومنازعة لشريعة الله وحكمه.

فواجب المسلم أن لا يقر بها ولا يهنئ أحداً بها ويكتفي بالعيدين

(١٦٢) المصدر السابق: (ص ٢٠٩).

(١٦٣) المصدر السابق: (ص ٢١٦).

الإسلاميين الفطر والأضحى وفي الأيام الأخرى كالجمعة وغيرها ما يغنيها عن
استيراد شعائر وشارات الكفر وأربابه.

صورة مشرقة من صور التميز في المجتمع الإسلامي الأول

كلما عاد الحديث إلى الرعيل الأول كان له حلاوة خاصة تبعث في
النفس الأمل والرجاء بالافتداء بأولئك العظام، وتحفز الهمم لتشمر عن ساعد
الجد فتلحق بركب قافلة الإيمان، ودعاة الهدى والخير.

ولقد كانت الشروط العمرية التي وضعها الفاروق رضي الله عنه مثلاً
رائعاً في تعامل المسلمين مع غيرهم وتميز أهل الذمة عن المسلمين
مما يحفظ على المجتمع الإسلامي شخصيته المستقلة ويرعى لأولئك الذميين
حقوقهم التي أمر بها هذا الدين الحنيف.

إن الحرص العمرى على تميز المسلمين عن غير المسلمين هو عمق
هذه العقيدة في نفسه والقيام بمسؤوليته كراعٍ للأمة يعلم أنه مسؤول عنها
كما في الحديث الصحيح «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» (١٦٤)
متفق عليه.

والذي جعلني أختار موضوع أهل الذمة في هذه النقطة بالذات هو أن
وضع الذميين في الدولة الإسلامية وضع خاص غير وضع الكفار الحريين
أو المهادنين.

وحيث ينشأ ويعيش الذميون وسط المجتمع الإسلامي فإن هذا الشيء
يجب أن يكون محاطاً بحصانة خاصة للمسلمين لئلا يؤدي احتكاكهم

(١٦٤) «صحيح البخاري»: (ج ١١١/١٣، ح ٧١٣٨) كتاب الأحكام، وصحيح
مسلم: (٣/١٤٥٩، ح ١٨٢٩) كتاب الإمارة.

بالذمين إلى التشبه بهم وذوبان الشخصية الإسلامية التي أراد هذا الدين أن تكون فريدة متميزة في كل شيء.

ثم إن من صفات هذا الدين الحنيف العدل حتى مع الكفار، ولكن ما حدود هذا العدل وما سماته؟ خاصة وإنه قد أقر "الذمين" على العيش وسط المجتمع الإسلامي.

الجواب: هو ما ورد في "الشروط العمرية" التي نصت على حماية المسلمين وكفلت للذمين حقوقهم على أن يكونوا هم أيضاً متميزين بزيهم وديانتهم حتى لا يلتبس المسلم بالذمي: ويتج من ذلك خليط لا يعرف له اتجاه محدد وهوية خاصة. وهذه الشروط - كما يقول عنها شيخ الإسلام ابن تيمية - منها: ما مقصوده التمييز عن المسلمين في الشعور واللباس، والأسماء، والمراكب والكلام ونحوها لتمييز المسلم من الكافر ولا يشبه أحدهما الآخر في الظاهر. ولم يرض عمر رضي الله عنه والمسلمون بأصل التمييز، بل بالتمييز في عامة الهدى... وذلك يقتضي: إجماع المسلمين على التمييز عن الكفار ظاهراً، وترك التشبه بهم، ولقد كان أمراء الهدى مثل العمرين وغيرهما يبالغون في تحقيق ذلك بما يتم به المقصود. ومنها: ما يعود بإخفاء منكرات دينهم وترك إظهارها، كمنعهم من إظهار الخمر، والناقوس والنيران في الأعياد. ومنها: ما يعود بإخفاء شعار دينهم كأصواتهم بكتابهم. ومنها: ما يعود بترك إكرامهم وإلزامهم الصغار الذي شرعه الله^(١٦٥).

وإليك نص هذه الشروط:

روى سفيان الثوري عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى الشام، وشرط عليهم فيه ألا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية^(١٦٦)،

(١٦٥) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٢٢ - ١٢٤).

(١٦٦) القلاية: مبنى بينه النصارى كالمنارة ولا تكون إلا لواحد ينفردها بنفسه =

ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يؤوا جاسوساً، ولا يكتموا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يظهروا شركاً، ولا يمنعوا ذوي قراباتهم من الإسلام إن أرادوه وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، ولا يتكثروا بكتانهم، ولا يركبوا سرجاً، ولا يتقلدوا سيفاً، ولا يبيعوا الخمر، وأن يجزوا مقدم رؤوسهم، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم ولا يظهروا صلياً ولا شيئاً من كتبهم في شيء من طرق المسلمين، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفياً، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من محضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين، ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم، ولا يظهروا النيران معهم، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين.

فإن خالفوا شيئاً مما شرطوه فلا ذمة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق^(١٦٧) انتهى.

ولهذه الشروط طرق أخرى في روايتها، ولكنها كلها تلتقي عند هذا المعنى، ولذلك عقب ابن القيم رحمه الله على اختلاف تلك الروايات بقوله: وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكرها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها من بعده الخلفاء وعملوا بها^(١٦٨).

= ولا يكون لها باب، بل فيها طاقة يتناول منها طعامه وشرابه وما يحتاج إليه.
انظر «أحكام أهل الذمة»: (ج ٢/٦٦٨).
(١٦٧) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم: (ج ٢/٦٦١ - ٦٦٢).
(١٦٨) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم: (ج ٢/٦٦٣)، انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٢).

سبحان الله!!!

ما هذا البون الشاسع بين تلك القمة وبين هذا الغشاء الذي يعيش اليوم على الأرض متميعاً متسكعاً وراء الكفار والملاحدة؟ وبحسب نفسه مسلماً؟ أين تلك العزة والقوة والسلطان الرباني الذي أخذ به ذلك الجيل، وأين الضعف والاستخذاء والتبعية العمياء التي يعيشها "المسلمون" اليوم؟ ترى: هل المنتسبون اليوم للإسلام في درجة الذميين الذين طبقت عليهم هذه الشروط؟

هل "المسلمون" اليوم ذميون للكفار؟

إن الذي يظهر لي أنه حتى على هذا الافتراض الأخير فإن المسلمين اليوم أقل قدراً من ذمي الأمس. ذمي الأمس: في صغار وفي ذلة وفي زى معين ومكان معين. نعم.

أما مسلمو اليوم ففي صغار وذلة وأستكانة عن إسلامهم وتبعية للشرق الملحد والغرب الكافر، وإعجاب وآنبهار بما عليه أعداء الإسلام، وسخرية وأستهزاء بما كان عليه سلف هذه الأمة!

من هنا فهم أخط قدراً عند الله - ما داموا بهذه الصفات - وأحقر من أن يُهابوا وأصغر من أن يُسمع لهم كلمة في المجتمع الدولي المعاصر.

فعلى المسلم الصادق. المسلم الواعي. المسلم المدرك لحقيقة إسلامه أن يعرف أين يضع قدمه ولمن يهب حبه وولاءه، وأن يعلم أن حب أعداء الله وموالاتهم والتشبه بهم لا تلتقي مع صدق إيمانه وإنما يفعل ذلك من يزعم الإسلام زعماً وبئس ذلك الزعم الكاذب.

وقد ذكر علماء الإسلام ما ينتقض به عهد الذمي حرصاً على حماية المسلمين من أي دخيل يستغل سماحة الإسلام فيغدر بالمسلمين. وهذه النواقض هي:

- (١) الإغانة على قتال المسلمين، وقتل المسلم أو المسلمة.
 - (٢) قطع الطريق عليهم.
 - (٣) إيواء جواسيس المشركين أو التجسس للمشركين بأن يكتب لهم أسرار المسلمين.
 - (٤) الزنا بالمسلمة أو إصابتها بأسم النكاح.
 - (٥) فتن المسلم عن دينه.
 - (٦) سب الله أو النبي ﷺ (١٦٩).
- والأدلة على انتقاض عهد الذمي بسب الله أو كتابه أو دينه أو رسوله ووجوب قتله، وقتل المسلم إذا فعل ذلك كثيرة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين والاعتبار (١٧٠).
- أما الكتاب: فقوله تعالى:

وَإِنْ كُفُّوا
أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا
أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ

[سورة التوبة: ١٢].

وقوله تعالى:

فَقَتِلُوا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ

[سورة التوبة: ٢٩].

(١٦٩) انظر «الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية: (ص ٥ - ٢٦).

(١٧٠) المصدر السابق: والمراد بالاعتبار: القياس.

وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَنَنُكِّلَنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا

[سورة الأحزاب: ٥٧ - ٥٨].

ومن السنة: ما رواه الشعبي عن علي رضي الله عنه: «أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت فأبطل رسول الله ﷺ دمها»^(١٧١) رواه أبو داود وآبن بطة في «سننه»، والحديث متصل لأن الشعبي رأى علياً وكان على عهد علي قد ناهز العشرين سنة. ثم إن كان فيه إرسال - لأن الشعبي يبعد سماعه من علي - فهو حجة وفاقاً، لأن الشعبي عندهم صحيح المراسيل لا يعرفون له مراسلاً إلا صحيحاً^(١٧٢).

وأيضاً ما رواه عكرمة عن آبن عباس رضي الله عنهما: أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فيهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، فلما كان ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه فأخذ المغول فوضعه في بطنها وأتكا عليها فقتلها، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس فقال: «أنشد رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام» قال: فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتدللدل، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال يا رسول الله أنا صاحبها، كانت تشتتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها فلا تنزجر، ولي

(١٧١) «سنن أبي داود»: (ج٤/٥٣٠، ح٤٣٦٢) كتاب الحدود، والدارقطني: (ج٣/١١٢، ح١٠٢) في الحدود، قال الحافظ في «بلوغ المرام»: رواه ثقات. انظر التعليق «المغني»: (ج٣/١١٢).
(١٧٢) «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: (ص٦١).

منها آبنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتبك وتقع فيك فأخذت المغول فوضعت في بطنها وآتكت عليه حتى قتلها. فقال النبي ﷺ: «أشهدوا أن دمها هدر» رواه أبو داود والنسائي (١٧٣).

ومن السنة أيضاً: ما احتج به الشافعي على أن الذمي إذا سب قتل وبرئت منه الذمة وهو قصة كعب بن الأشرف اليهودي. والحديث متفق عليه (١٧٤).

وأما إجماع الصحابة: فقد نقل ذلك عنهم في قضايا متعددة مستفيضة ولم ينكرها أحد فصارت إجماعاً ومن ذلك: ما رفع إلى المهاجر بن أبي أمية (١٧٥)، وكان أميراً على البجامة ونواحيها: أن امرأتين مغنيتين غنت إحداهما بشتم النبي ﷺ فقطع يدها ونزع ثنيتها وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع يدها ونزع ثنيتها، فكتب إليه أبو بكر: بلغني الذي سرت به في المرأة التي غنت وزمزمت بشتم النبي ﷺ فلولا ما قد سبقتني لأمرتك بقتلهما، لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر (١٧٦).

وفي عهد عمر رضي الله عنه: جاءه رجل من أهل الكتاب - حين دخل الشام - وهو مشجوج مضروب فغضب لذلك عمر وأمر بإحضار عوف بن مالك (١٧٧) الأشجعي لأنه هو الذي فعل ذلك بالذمي فلما سأله عمر عن

(١٧٣) سنن أبو داود: (ج٤/٥٢٨، ح٤٣٦١) كتاب الحدود، والنسائي:

(ج٧/١٠٨) في باب حكم سب النبي، وإسناده حسن.

(١٧٤) صحيح البخاري: (ج٧/٣٣٦، ح٤٠٣٧) كتاب المغازي، وصحيح

مسلم: (ج٢/١٤٢٥، ح١٨٠١) في الجهاد.

(١٧٥) المهاجر بن أبي أمية بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي أخو أم

سلمة زوج النبي ﷺ. قال الزبير: شهد بدرًا مع المشركين. ولاه رسول الله

على صدقات صنعاء، ثم ولاه أبو بكر. «الإصابة»: (ج٣/٤٦٥).

(١٧٦) انظر «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: (ص٢٠٠).

(١٧٧) عوف بن مالك الأشجعي قال الواقدي: أسلم عام خيبر ونزل حمص، وقال =

فعله هذا قال: يا أمير المؤمنين رأيت هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار فتخس بها لتصرع، فلم تصرع، فدفعها فصرعت فغشيها، وأكب عليها، فقال عمر آتني بالمرأة فلتصدق على ما قلت فأتاها عوف، فذهب معه أبوها وزوجها فأخبر عمر بمثل قول عوف، فأمر عمر باليهودي فصلب وقال: ما على هذا صالحناكم ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله في ذمة محمد ﷺ فمن فعل منهم مثل هذا فلا ذمة له^(١٧٨).

وأما الاعتبار: فمن وجوه^(١٧٩):

أحدها: إن عيب ديننا وشم نبينا مجاهدة لنا ومحاربة، فكان نقضاً للعهد كالمجاهدة والمحاربة بطريقة الأولى.

الثاني: إن مطلق العهد الذي بيننا وبينهم يقتضي أن يكفوا ويمسكوا عن إظهار الطعن في ديننا، وشم رسولنا، كما يقتضي الإمساك عن دماءنا ومحاربتنا.

الثالث: إن الله فرض علينا تعزيز رسوله وتوقيره، وتعزيزه: نصره ومنعه، وتوقيره إجلاله وتعظيمه، وذلك يوجب صون عرضه بكل طريق. فلا يجوز أن نصلح أهل الذمة، وهم يسمعوننا شم نبينا وإظهار ذلك، لأننا إذا تركناها على هذا تركنا الواجب علينا نحو رسول الله ﷺ.

= غيرة: شهد الفتح وكانت معه راية أشجع، قال ابن سعد: أخى النبي ﷺ بينه وبين أبي الدرداء ومات سنة ٧٣هـ في خلافة عبد الملك. «الإصابة»: (ج ٤٣/٣).

(١٧٨) «الأموال» لأبي عبيد: (ص ٢٣٥ - ٢٣٦).

(١٧٩) «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: (ص ٢٠٦ - ٢٠٩).

الأمكنة التي يمنع أعداء الله من دخولها والإقامة فيها

قال الله تعالى:

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
بِجَسٍّ فَلَا يُفْرِئُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا
وَأِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

[سورة التوبة: ٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد خرج علينا
النبي ﷺ فقال: «انطلقوا إلى اليهود» فخرجنا معه حتى إذا جئنا بيت
المدراس قام النبي ﷺ فناداهم فقال: «يا معشر اليهود: أسلموا تسلموا»
فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ ذلك أريد، فقال:
«أسلموا تسلموا» فقالوا قد بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ: ذلك
أريد، ثم قالها الثالثة فقال: «أعلموا إنما الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن
أجلكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليعه، وإلا فاعلموا
إنما الأرض لله ورسوله متفق عليه ولفظه للبخاري (١٨٠).

وقال ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» متفق عليه (١٨١).

وقال أيضاً: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع

(١٨٠) «صحيح البخاري»: (ج ١٢/٣١٧، ح ٦٩٤٤) كتاب الإكراه، و«صحيح

مسلم»: (ج ٣/١٣٨٧، ح ١٧٦٥) في الجهاد.

(١٨١) «صحيح البخاري»: (ج ٦/١٧٠، ح ٣٠٥٣) كتاب الجهاد، و«صحيح مسلم»:

(ج ٣/١٢٥٨، ح ١٦٣٧) في كتاب الوصية.

فيها إلا مسلماً، رواه مسلم (١٨٢).

وهذه النصوص الصريحة الواضحة وغيرها توضح - بجلاء - مدى حرص الإسلام على حماية أئمة من معاشره الكفار، ومعايشتهم لما في ذلك من جلب لمودتهم وموالاتهم التي نهى الله عنها.

قال الشافعي رحمه الله: يمنعون من الحجاز وهو مكة والمدينة واليمامة وقراها. أما غير الحرم منه فيمنع الكتابي وغيره من الاستيطان والإقامة به، وله الدخول بإذن الإمام لمصلحة كأداء رسالة أو حمل متاع يحتاج إليه المسلمون: وإن دخل لتجارة ليس فيها كثير حاجة لم يأذن له إلا بشرط أن يأخذ من تجارته شيئاً، ولا يمكن من الإقامة أكثر من ثلاث (١٨٣). وعقب ابن القيم رحمه الله على كلام الشافعي بقوله: أما حرم مكة فإنهم يمنعون من دخوله بالكلية فلو قدم رسول لم يجز أن يأذن له الإمام في دخوله، ويخرج الوالي أو من يثق به إليه. وأما حرم المدينة فلا يمنع من دخوله لرسالة أو تجارة أو حمل متاع (١٨٤).

اعتراض وجوابه

إن قيل: إن الله سبحانه إنما منع المشركين من قربان المسجد الحرام ولم يمنع أهل الكتاب منه، ولهذا أذن مؤذن النبي ﷺ يوم الحج الأكبر إنه لا يحج بعد العام مشرك. والمشركون الذين كانوا يحجون هم عبدة الأوثان لا أهل الكتاب (١٨٥).

والجواب: للناس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين:

-
- (١٨٢) «صحيح مسلم»: (ج ٣/١٣٨٨، ح ١٧٦٧) كتاب الجهاد.
(١٨٣) «أحكام أهل الذمة»: (ج ١/١٨٤)، وقارن بـ «الأموال» لأبي عبيد: (ص ٩٠).
(١٨٤) «أحكام أهل الذمة»: (ج ١/١٨٥).
(١٨٥) المصدر السابق: (ج ١/١٨٨).

فآبَن عمر رضي الله عنهما وغيره كانوا يقولون: هم من المشركين، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا أعلم شركاً أعظم من أن يقول المسيح آبن الله وعزير آبن الله، وقد قال الله فيهم:

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُؤَسَاءَهُمْ أَزْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

[سورة التوبة: ٣١].

والثاني: لا يدخلون في لفظ «المشركين» لأن الله سبحانه جعلهم غيرهم في قوله:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيحِينَ

[سورة البقرة: ٦٢].

قال آبن تيمية: والتحقيق: أن أصل دينهم دين التوحيد فليسوا من المشركين في الأصل، والشرك طارئ عليهم فهم منهم باعتبار ما عرض لهم لا باعتبار أصل الدين، فلو قدر أنهم لم يدخلوا في لفظ الآية دخلوا في عمومها المعنوي وهو كونهم نجساً والحكم يعم بعموم علته.

(وجميع الصحابة والأئمة فهموا من قوله ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ بعد عامهم هذا أن المراد مكة كلها والحرم ولم يخص ذلك أحد منهم بنفس المسجد الذي يطاف فيه. ولما نزلت هذه الآية كانت اليهود بخير وما حولها ولم يكونوا يمنعون من المدينة) (١٨٦).

(١٨٦) المصدر السابق: (ج ١/١٨٩).

الفصل السابع

تعامل المسلمين مع غير المسلمين

وفيه ثلاثة مباحث

* المبحث الأول: الفرق بين المولاة وحسن المعاملة :

كلمة حول ما يسمى بزمالة الألبان

أجدني مضطراً لذكر هذه المسألة لتوضيح وبيان وجه الحق والصواب حول هذا المفهوم الخاطيء، الذي خلط فيه الحق والباطل. وطالب العلم المبتدئ - مثلي - يعجب لمشايخ كبار من أهل العلم "وقعوا في هذا الفخ الذي تولى كبر الدعوة له أعداء هذا الدين من صليبين ويهود"!

ويراد من وراء هذا التقريب والزمالة المزعومة إضاعة تميز المسلم وأنصار شخصيته في تيار هذه الدعوة المشبوهة.

ونحب أن نقرر - ابتداءً - أن الرسائل السماوية التي أنزل الله بها رسله عليهم السلام كلها تدعو إلى عبادة الله وحده قال تعالى:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

[سورة النحل: ٣٦].

مع اختلاف في الشرائع اقتضتها حكمة ربانية لا نعلمها.

ولكن الرسائل التي سبقت الرسالة المحمدية الخاتمة: أعثورها التحريف والتبديل الذي صنعه أيد بشرية.

يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِمْ مِثْمًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

[سورة البقرة: ٧٩].

لذلك اقتضت مشيئة الله وحكمته أن تكون رسالة محمد بن عبد الله ﷺ هي خاتمة الرسالات وناسخة لما قبلها من الشرائع.

ولابد: أن نورد طرفاً من أقوال دعاة التقارب بين الأديان كما يسمون أنفسهم الذين يزعمون أنهم بصنيعهم هذا يخدمون الإسلام والبشرية كلها.

يقول الشيخ مصطفى المراغي في رسالة بعث بها إلى مؤتمر الأديان العالمي: (آتلق الإسلام من قلوب المسلمين جذور الحقد الديني بالنسبة لأتباع الديانات السماوية الأخرى وأقر بوجود زمالة عالمية بين أفراد النوع البشري. ولم يمانع أن تتعايش الأديان جنباً إلى جنب) (١٨٧).

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: (إذا اختلفت الأديان فإن أهل كل دين لهم أن يدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة!! من غير تعصب يصم عن الحقائق ولا إكراه ولا إغراء بغير الحجة والبرهان) (١٨٨).

أما الدكتور وهبة الزحيلي فيقول: (ليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، إذ أن كل ذلك محاولة فاشلة، ومقاومة لسنة الوجود، ومعاودة للإرادة الإلهية) (١٨٩).

(١٨٧) نقلاً عن «آثار الحرب في الفقه الإسلامي» للدكتور وهبة الزحيلي: (ص ٦٣)، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٥هـ، وهذا الرجل دعا إلى أكثر من ذلك في تفسيره لبعض آيات القرآن. وتكلم بكلام لا يقره العامي الموحد فضلاً عن طالب العلم والعلماء!!

(١٨٨) «العلاقات الدولية في الإسلام»: (ص ٤٢)، الناشر: الدار القومية للطباعة سنة ١٣٨٤هـ.

(١٨٩) «آثار الحرب»: (ص ٦٥).

ناسين ما يقرره القرآن من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، ولن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.

وسداجة أية سداجة، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين!

يقول السذج: إننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعاً أهل دين! ناسين تعليم القرآن كله. وناسين تعليم التاريخ كله.

فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:

هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً

[سورة النساء: ٥١].

وهم الذين ألجأوا المشركين على المسلمين في المدينة وكانوا لهم درعاً ورداً.

وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام. وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا المسلمين في فلسطين وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية!

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان في الحبشة والصومال وارتيريا وغيرها حيث يتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند وفي كل مكان!

إن هؤلاء الذين يظنون - وهم وهمون - إنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولواء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين: لا يقرأون القرآن، وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن. ومن هنا يحاولون تميع المفاصلة

وغير هؤلاء الثلاثة خلق كثير. والذي يظهر لي أن هؤلاء وأمثالهم اعتمدوا ما ذكره شيخهم الأول جمال الدين الأفغاني الذي كان متأثراً بأفكار الماسونية الخبيثة وهو أول من حمل راية الدعوة إلى زالة الأديان فهو يقول في خاطراته بعنوان «نظرية الوحدة» ما نصه: (وجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في واحد منها شيء من أوامر الخير المطلق استكملة الثاني!

... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها وأنه بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة وأخذت أضغ لنظيرتي هذه خطأ وأخط أسطراً وأحبر رسائل للدعوة كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكتب ولا تعمقت في أسباب اختلاف أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقاً شيعاً وطوائف... (١٩٠).

وهذه الأقوال فيها من المغالطات ما هو ظاهر لكل ذي عينين، فمن قال: إن الدين الإسلامي يسمح للنصراني: أن يدعو إلى نصرانيته، وللإهودي أن يدعو إلى يهوديته والبوذي أن يدعو إلى بوذيته، وغير ذلك من أديان البشر الوضعية أو الأديان المحرفة؟

هل هؤلاء الدعاة يجهلون ما ذكره القرآن عن بني إسرائيل وقتلهم الأنبياء ثم تحريف التوراة والإنجيل، ثم اللعب بالكتب المنزلة حسبما تمليه عليهم أهواؤهم؟

هل هؤلاء يجهلون قوله تعالى:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ

[سورة المائدة: ٧٣].

(١٩٠) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» اختبار عبد العزيز سيد الأهل: (ص ١٤)، وانظر (ص ١٥٨)، الناشر: دار حراء بالقاهرة.

وقوله تعالى:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمْ
اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا

[سورة التوبة: ٣٠].

وقوله تعالى:

وَذُؤَالُوا تَكَفَّرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً

[سورة النساء: ٨٩].

وقوله تعالى:

وَذَكَّيْرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا

[سورة البقرة: ١٠٩].

وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي تبين عداوة أهل الكتاب للمسلمين. ورحم الله الأستاذ الجليل، العالم الرباني سيد قطب حين قال: إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، الذي يهدف إلى إنشاء واقع في الأرض وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية.

إن هؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة لأنه ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة أهل الكتاب فيها، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فهم يخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة،

الحاسمة بين المسلمين وأهل الكتاب، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية. فكما أنهم مخطئون في فهم الأديان هم أيضاً مخطئون في فهم معنى التسامح.

إن الدين الذي نزل على رسول الله ﷺ هو الدين عند الله. والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي. أما هؤلاء، فيحاولون تمسيح اليقين الجازم في نفس المسلم الذي يقرر أن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام، وأن على المسلم أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلاً، ولا يقبل فيه تعديلاً - ولو طفيفاً - قال تعالى:

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

[سورة آل عمران: ١٩].

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ

[سورة آل عمران: ٨٥].

والإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء، ودعاهم إلى الإسلام جميعاً لأن هذا هو "الدين" الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعاً.. والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء، وهو غير مأذون في أن يكره أحداً من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام، لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه، فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه، هو كذلك لا ثمرة له (١٩١).

(١٩١) انظر في ظلال القرآن: (ج ٢/ ٩٠٩ - ٩١٥) بتصرف.

الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى

قلنا قبل قليل أن الولاء شيء والمعاملة شيء آخر والأصل في هذا قوله تعالى:

لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ

[سورة الممتحنة: ٨].

وقد اختلف أهل العلم في تفسيرها فقال بعضهم إن المعنى بها: الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا فأذن الله للمؤمنين ببرهم والإحسان إليهم وإلى هذا ذهب مجاهد.

وقال آخرون: عني بها من غير أهل مكة من لم يهاجر.

وقال آخرون: بل عني بها من مشركي مكة من لم يقاتل المؤمنين ولم يخرجوهم من ديارهم ونسخ الله ذلك بعد الأمر بقتالهم. ويروى هذا عن قتادة^(١٩٢).

ورجح ابن جرير: أن أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم. لأن الله عز وجل عم بقوله: ﴿الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخص به بعضاً دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ. لأن بر المؤمن أحداً من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينهما ولا نسب غير محرم، ولا منهي عنه إذا لم

(١٩٢) تفسير الطبري: (ج ٢٨/٦٦).

يمكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح.

ويبين ذلك الخبر المروي عن ابن الزبير في قصة أسماء مع أمها (١٩٣). والإسلام بفعله هذا - حتى في حالة الخصومة - يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك، وعدالة المعاملة آنظراً لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضروا تحت لوائه الرفيع (١٩٤).

وقد سبق الحديث في أول هذا البحث: أن الله أمر بصلة الأقارب الكفار والمشركين وأن ذلك ليس موالة لهم في شيء. ونزيد هذا الأمر إيضاحاً بقصة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها مع أمها.

فقد روى البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: [نعم صلي أمك] (١٩٥).

قال الخطابي: فيه - أي الحديث - أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة ويستتبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلماً (١٩٦).

قال ابن حجر: البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحاب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى:

(١٩٣) تفسير الطبري: (ج ٢٨/٦٦).

(١٩٤) انظر الظلال: (ج ٦/٣٥٤٤).

(١٩٥) صحيح البخاري: (ج ٥/٢٣٣، ح ٢٦٢٠) كتاب الهبة، باب الهدية

للمشركون، وصحيح مسلم: (ج ٢/٦٩٦، ح ١٠٠٣) كتاب الزكاة.

(١٩٦) فتح الباري: (ج ٥/٢٣٤).

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

[سورة المجادلة: ٢٢].

فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل (١٩٧).

وقال أبن القيم: الذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق، وإن اختلف الدينان لقوله تعالى:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْمِلْهُمَا^١ إِلَى الْمَصِيرِ^٢ ۖ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ^٣
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا

[سورة لقمان: ١٤ - ١٥].

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة وهو في غاية الغنى. وقد ذم الله قاطعي الرحم وعظم قطيعتها وأوجب حقها وإن كانت كافرة لقوله تعالى:

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ

[سورة النساء: ١].

وفي الحديث «لا يدخل الجنة قاطع رحم» (١٩٨).

وصلة الرحم واجبة، وإن كانت لكافر، فله دينه وللواصل دينه وقياس

(١٩٧) «فتح الباري»: (ج ٥/٢٣٣).

(١٩٨) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤١٥، ح ٥٩٨٤) كتاب الأدب، باب إثم القاطع،

و«صحيح مسلم»: (ج ٤/١٩٨١، ح ٢٥٥٦) في كتاب البر والصلة، ويلاحظ

هنا: أن النكرة وقعت في سياق النفي فعم.

النفقة على الميراث قياس فاسد. فإن الميراث مبناه على النصرة والموالة بخلاف النفقة فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة.

وقد جعل الله للقرابة حقاً - وإن كانت كافرة - فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا. قال تعالى:

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا

[سورة النساء: ٣٦].

وكل من ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافراً، فما بال ذي القرى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه (١٩٩)؟

من هنا: يتضح لنا: أن الموالة الممثلة في الحب والنصرة شيء. والنفقة والصلة والإحسان للأقارب الكفار شيء آخر. وسماحة الإسلام أيضاً تتضح في معاملة الأسرى والشيوخ والأطفال والنساء في الحرب. كما هو معلوم من صفحاته المشرقة.

(١٩٩) «أحكام أهل الذمة»: (ج ٢/ ٤١٧ هـ - ٤١٨).

* المبحث الثاني: التعامل مع الكفار :

(١) البيع والشراء :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الأصل أنه لا يحرم على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما دل الكتاب والسنة على تحريمه، كما لا يشرع لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلا ما دل الكتاب والسنة على شرعه. إذ الدين ما شرعه الله، والحرام ما حرمه الله، بخلاف الذين ذمهم الله حيث حرموا من دون الله ما لم يحرمه الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله^(٢٠٠).

وأنطلاقاً من هذه القاعدة وبناء على النصوص الشرعية وسيرة رسول الله ﷺ وأصحابه الراشدين وأئمة المسلمين نقول: إن التعامل مع الكفار في البيع والشراء والهبة وخلاف ذلك لا يدخل في مسمى الموالاة، بل يباح للمسلم البيع والشراء مع الكفار فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يُسأل عن معاملة التار فيقول:

(يجوز فيها ما يجوز في معاملة أمثالهم، ويحرم فيها ما يحرم في معاملة أمثالهم، فيجوز أن يتاع الرجل من مواشيهم وخيلهم ونحو ذلك كما يتاع من مواشي الأعراب والتركمان والأكراد ويجوز أن يبيعهم من الطعام والثياب ونحو ذلك ما يبيعه لأمثالهم.

فأما إن باعهم أو باع غيرهم ما يعينهم به على المحرمات، كبيع الخيل والسلاح لمن يقاتل به قتالاً محرماً فهذا لا يجوز قال تعالى:

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا

عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

[سورة المائدة: ٢٠٠].

(٢٠٠) «السياسة الشرعية»: (ص ١٥٥).

وإذا كان الذي معهم أو مع غيرهم، أموال يعرف أنهم غصبوها من معصوم فذلك لا يجوز اشتراؤها لمن يملكها لكن إذا اشتريت على طريق الاستنقاذ لتصرف في مصارفها الشرعية فتعاد إلى أصحابها - إن أمكن - وإلا صرفت في مصالح المسلمين: جاز هذا. وإذا علم أن في أموالهم شيئاً محرماً لا تعرف عينه، فهذا لا تحرم معاملتهم فيه كما إذا علم أن في الأسواق ما هو مغصوب ومسروق ولم يعلم عينه (٢٠١).

وقد روى البخاري في كتاب البيوع باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثم جاء رجل مشرك مشعان (٢٠٢) طويل بغنم يسوقها فقال النبي ﷺ: «يبيعاً أم عطية» أو قال: أم هبة؟ فقال: لا. يبيع فاشترى منه شاة (٢٠٣).

قال ابن بطال: معاملة الكفار جائزة إلا بيع ما يستعين به أهل الحرب على المسلمين (٢٠٤).

وثبت أيضاً عن النبي ﷺ أنه أخذ من يهودي ثلاثين وسقاً من شعير وورنه درعه (٢٠٥). قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وإذا سافر الرجل إلى دار الحرب ليشتري منها جاز عندنا، كما دل عليه حديث تجارة أبي بكر رضي الله عنه في حياة رسول الله ﷺ إلى أرض الشام وهي حينذاك دار حرب وغير ذلك من الأحاديث.

(٢٠١) «المسائل الماردنية»: (ص ١٣٢ - ١٣٣) تحقيق الشاويش، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ.

(٢٠٢) أي طويل مشعث الشعر.

(٢٠٣) «صحيح البخاري»: (ج ٤/٤١٠، ح ٢٢١٦).

(٢٠٤) «فتح الباري»: (ج ٤/٤١٠).

(٢٠٥) «مسند أحمد»: (ج ٥/١٣٧، ح ٣٤٠٩) تحقيق أحمد شاکر وقال: إسناده صحيح.

فأما بيع المسلم لهم في أعيادهم ما يستعينون به على عيدهم من الطعام واللباس والريحان ونحو ذلك، أو إهداء ذلك لهم: فهذا فيه نوع إعانة على إقامة عيدهم المحرم، وهو مبني على أصل وهو: أنه لا يجوز أن يبيع الكفار عبداً أو عسيراً يتخذونه خمراً.

وكذلك لا يجوز بيعهم سلاحاً يقاتلون به مسلماً^(٢٠٦).

(٢) الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين :

قال ابن القيم: أما ما وقفوه. فنظر فيه، فإن وقفوه على معين أو جهة يجوز للمسلم الوقف عليها كالصدقة على المساكين والفقراء وإصلاح الطرق والمصالح العامة، أو على أولادهم وأنسالهم وأعقابهم: فهذا الوقف صحيح. حكمه حكم وقف المسلمين على هذه الجهات لكن إذا شرط في استحقاق الأولاد والأقارب بقاءهم على الكفر "فإن أسلموا لم يستحقوا شيئاً": لم يصح هذا الشرط، ولم يجز للحاكم أن يحكم بموجبه باتفاق الأمة لأنه مناقض لدين الإسلام، مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ.

أما وقف المسلم عليه: فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم، أو على أقاربه، وبني فلان ونحوه.

ولا يكون الكفر موجباً ولا شرطاً في الاستحقاق ولا مانعاً منه - فلو وقف على ولده أو أبيه أو قرابته استحقوا ذلك وإن بقوا على كفرهم، فإن أسلموا فأولى بالاستحقاق.

وأما الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر: فلا يصح من كافر ولا مسلم. فإن في ذلك أعظم الإعانة لهم على الكفر والمساعدة والتقوية عليه، وذلك مناف لدين الله^(٢٠٧).

(٢٠٦) «التضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢٢٩).

(٢٠٧) «أحكام أهل الذمة»: (ج ١/ ٢٩٩ - ٣٠٢)، وانظر «مجموعة الرسائل =

(٣) عيادتهم وتهنئتهم :

روى البخاري في كتاب الجنائز عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» (٢٠٨).

وروى أيضاً: قصة أبي طالب حين حضرته الوفاة فزاره النبي ﷺ وعرض عليه الإسلام (٢٠٩) ..

قال ابن بطال: إنما تشرع عيادته إذا رجي أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك فلا (٢١٠).

قال ابن حجر: والذي يظهر: أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد، فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى (٢١١).

أما تهنئتهم بشعائر الكفر المختصة بهم فحرام بالاتفاق، وذلك مثل أن يهنأهم بأعيادهم فيقول: عيدك مبارك، أو تهناً بهذا العيد، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثماً عند الله، وأشد مقتاً من التهئة بشرب الخمر وقتل النفس وآرتكاب الفرج الحرام ونحوه.

وكثير مما لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل. فمن هنا عبداً بمعصية، أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه،

= والمسائل: (١/٢٢٩).

(٢٠٨) صحيح البخاري: (ج٣/٢١٩، ح١٣٥٦).

(٢٠٩) صحيح البخاري: (ج٣/٢٢٢، ح١٣٦٠) كتاب الجنائز.

(٢١٠) فتح الباري: (ج١٠/١١٩).

(٢١١) فتح الباري: (ج١٠/١١٩).

وقد كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهتة الظلمة بالولايات، وتهتة الجهال بمنصب القضاء والتدريس والإفتاء تجنباً لمقت الله وسقوطهم من عينه، وإن يلي الرجل فتعاطاه دفعاً لشر يتوقعه منهم فمشى إليهم ولم يقل إلا خيراً ودعا لهم بالتوفيق والتسديد فلا بأس بذلك^(٢١٢).

ويدخل في هذا أيضاً: تعظيمهم ومخاطبتهم بالسيد والمولى وذلك حرام قطعاً، ففي الحديث المرفوع «لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل»^(٢١٣).

ولا يجوز أيضاً تلقيبهم - كما يقول آبن القيم - بمعز الدولة أو فلان السديد، أو الرشيد أو الصالح ونحو ذلك. ومن تسمى بشيء من هذه الأسماء لم يجز للمسلم أن يدعوه به، بل إن كان نصرانياً قال: يا نصراني، يا صليبي، ويقال لليهودي، يا يهودي.

ثم قال آبن القيم بالنص:

(.. وأما اليوم فقد وفقنا إلى زمان يصدرون في المجالس، ويقام لهم وتقبل أيديهم ويتحكمون في أرزاق الجند، والأموال السلطانية، ويكون بأيي العلاء وأيي الفضل، وأيي الطيب، ويسمون حسناً وحسيناً وعثماناً وعلياً! وقد كانت أسماؤهم من قبل: يوحنا ومتى وجرجس وبطرس وعزرا وأشعيا، وحزقيل وحيي، ولكل زمان دولة ورجال) ^(٢١٤) ١.هـ.

وإذا كان هذا كلام العلامة آبن القيم وهو المتوفى سنة ٧٥١ هـ رحمه الله. فليتنظر المسلم اليوم إلى هذا الغشاء الذي هو كغشاء السيل، يتسبون

(٢١٢) - أحكام أهل الذمة لابن القيم: (ج ١/ ٢٠٥ - ٢٠٦).

(٢١٣) - سنن أبي داود: (ج ٥/ ٢٥٧، ح ٤٩٧٧) كتاب الأدب. قال الألباني: إسناده صحيح.

انظر «مشكاة المصابيح»: (ج ٣/ ١٣٤٩، ح ٤٧٨٠).

(٢١٤) - أحكام أهل الذمة: (ج ٢/ ٧٧١).

للإسلام وهم يتبعون أعداء الله في كل صغيرة وكبيرة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه، وليست تبعية لهم فحسب بل إنها تبعية بإعجاب وأنهار! فما تمر بأعدائنا مناسبة إلا وتنهال التهاني عليهم من كل حذب وصوب بالتهنئة والتبريك ومعسول الأمانى!!

(٤) حكم السلام عليكم :

اختلف العلماء في معنى قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام حين دعا أباه فأبى قال إبراهيم:

سَلَّمَ عَلَيْكَ

[سورة مريم: ٤٧].

فأما الجمهور فقالوا: المراد بسلامه المسالمة التي هي المشاركة لا التحية. وقال الطبري: معناه: أمنة مني لك. وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام^(٢١٥). وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق. وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها قيل لابن عينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال نعم. قال الله تعالى:

لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ

[سورة الممتحنة: ٨].

وقال:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ

[سورة الممتحنة: ٤].

(٢١٥) تفسير القرطبي: (ج ١١/ ١١٢ - ١١٢).

(٢١٦) تفسير القرطبي: (ج ١١/ ١١٢ - ١١٢).

وقال إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾.

قال القرطبي: قلت: والأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة^(٢١٦). وفي هذا الشأن حديثان: فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فأضطروه إلى أضيقه»^(٢١٧).

وفي «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عباد في بني الحرث بن الخزرج وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي ﷺ^(٢١٨) الحديث. قال القرطبي:

(فالأول: يفيد ترك السلام عليهم ابتداء، لأن ذلك إكرام والكافر ليس أهله. والثاني: يجوز ذلك. قال الطبري: ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس أحدهما خلاف للآخر، وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص. قال النخعي: إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فأبدأ بالسلام.

فبان بهذا أن حديث أبي هريرة «لا تبدؤهم بالسلام» إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤهم بالسلام من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبة أو جوار أو سفر.

(٢١٧) سبق تفريجه: (ص ٢٤٧).

(٢١٨) «صحيح البخاري»: (ج ١١/٣٨، ٦٢٥٤) كتاب الاستئذان، وصحيح مسلم: (ج ٣/١٤٢٢، ح ١٧٩٨) في الجهاد.

قال الطبري: قد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب وفعله آبن مسعود بدهقان صحبه في طريقه قال له علقمة: يا أبا عبد الرحمن اليس يكره أنه يندؤا بالسلام؟ قال: نعم. ولكن حق الصحبة.

وقال الأوزاعي: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك. وروى عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم (٢١٩).

قال آبن القيم: إن صاحب هذا الوجه - أي من أجاز آبتداءهم بالسلام - قال يقال له - السلام. فقط بدون ذكر الرحمة، وبلغظ الأفراد (٢٢٠).

(أما رد السلام عليهم فأختلف في وجوبه: فالجمهور على وجوبه وهو الصواب. وقالت طائفة: لا يجب الرد عليهم كما لا يجب على أهل البدع وأولى والصواب الأول: والفرق: أنا مأمورون بهجر أهل البدع تعزيراً لهم وتحذيراً منهم بخلاف أهل الذمة) (٢٢١).

قلت: ومما يرجح رأي الجمهور في وجوب الرد على أهل الكتاب قوله ﷺ: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليكم. فقل وعليك» (٢٢٢). وقوله ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» (٢٢٣).

(٢١٩) تفسير القرطبي: (ج ١١/١١٢).

(٢٢٠) زاد المعاد: (ج ٢/٤٢٥).

(٢٢١) زاد المعاد: (٢/٤٢٥).

(٢٢٢) صحيح البخاري: (ج ١١/٤٢، ح ٦٢٥٧) كتاب الاستئذان، وصحيح مسلم: (ج ٤/١٧٠٦، ح ٢١٦٤) في السلام.

(٢٢٣) صحيح البخاري: (ج ١١/٤٢، ح ٦٢٥٨) كتاب الاستئذان، وصحيح مسلم: (ج ٤/١٧٠٥، ح ٢١٦٣).

* المبحث الثالث: الانتفاع بالكفار وبما عندهم :

إن الإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم من غير المسلم ما ينفعه في علم الكيمياء والفيزياء والفلك والطب والصناعة والزراعة والأعمال الإدارية وأمثال ذلك. وهذا حين تنعدم الاستفادة من هذه العلوم من مسلم تقي (٢٢٤).

كذلك يبرز الانتفاع بهم في دلالة الطريق وما عندهم من سلاح وملابس وغير ذلك من الحاجات التي يحتاجها الناس، وجرت العادة فيها أن المسلم والكافر يستويان في الانتفاع بها.

ولكن الإسلام لا يسمح بل يرفض أن يتلقى المسلم أي شيء يتعلق بعقيدته أو مقومات تصوره، أو تفسير قرآنه وسنة نبيه ﷺ أو منهج تاريخه أو نظام ومنهج سياسته أو موجبات أدبه وتعبيره ممن لا يؤمن بهذا الإسلام (٢٢٥).

وقد سبق في أول هذا البحث أن قلنا: إن المسلمين وقعوا في غلطة كبرى حين آستوردوا فلسفة اليونان وتصوف الهند والفرس لأنها غناء إذا مزج بالتصور الإسلامي النقي نتج من ذلك خليط من غبش العقيدة وأنحراف التصورات.

وأحسنوا حين ترجموا كتب الطب والكيمياء ودفعهم ذلك إلى اكتشاف علوم جديدة منها علم الجبر. فقد كانت العقلية الإسلامية المتنورة بنور الله قادرة على الابتكار والإبداع في المجال العلمي بكل ميادينه وفي المجال الأدبي والثقافي.

(٢٢٤) انظر «معالم في الطريق»: (ص ١٣١ - ١٣٢)، وانظر «مجموع فتاوى» شيخ

الإسلام ابن تيمية: (ج ٤/١٤).

(٢٢٥) انظر المصدر السابق «معالم في الطريق»: (ص ١٣١).

ذلك أن لديهم من مقومات هذه العقيدة ومقتضياتها ما يدفعهم للعمل بجد وصبر. وهم يعلمون أن ذلك جزء من عبادة الله. لأن نفع ما توصلوا إليه لم ينفعهم هم فحسب بل تعدى ذلك إلى كافة الناس حتى إن أوروبا ظلت قروناً طوياً تعتمد على النظريات الإسلامية والأبحاث التي ابتكرها المسلمون. وانعكس هذا على التقدم العلمي الذي توصل إليه الغرب في القرون الأخيرة، بعد أن نام المسلمون، وتركوا مركز القيادة والريادة في كل شيء حتى جاءت الأجيال التي نشهدها اليوم فإذا بها عالة على تلاميذ أجدادها بالأمس!

من أجل ذلك نقول: ونحن نستبشر بالخير حيث بدأ الزحف الإسلامي اليوم في كل أرض - إنه ينبغي للمسلمين أن يعرفوا ماذا يأخذون من غيرهم فيستفيدون به، وماذا يتركونه لئلا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم.

إن عليهم أن يجعلوا هذه العقيدة الإسلامية هي القاعدة التي يقوم عليها البناء الإسلامي من جديد ثم يستوردون من غير المسلمين ما ينقصهم في المجال "العلمي البحث" ويكون هذا الاستيراد بحذر وذكاء، حيث تصاغ هذه العلوم بصياغة علمية مؤمنة سليمة من صياغة الملاحدة ودعاة "اللادين".

وقد يقول قائل: وما دخل الأسلوب العلمي البحث في الأسلوب الديني؟

والجواب: إنه لا فصل بين دين وعلم، بل الدين الإسلامي هو دين العلم. وصياغة الأسلوب العلمي من منطلق إسلامي صحيح يفرس في النفوس إيماناً عميقاً بقدرة الخالق سبحانه وتعالى وعظيم صنعه وإبداعه في هذا الكون بكل ما فيه.

ثم إن هذا الاعتراض فيه مغالطة ظاهرة: فإنه مهما أدعى المتجردون للأسلوب العلمي أنهم "حياديون" فإنه يستحيل أن تكون صياغة من تلقى نظرية ماركس أو فرويد أو دوركايم لنظرية علمية ما، مثل صياغة من كان

بنفس الكفاءة العلمية ولكنه تلقى عقيدة "لا إله إلا الله" من مشكاة محمد بن عبد الله ﷺ.

وهذا أمر ظاهر لا يستطيع أن ينكره إلا مكابر أو جاهل يجهل أنه يغالط نفسه.

وأدلة الانتفاع بالكفار نجدها في سنة رسول الله ﷺ فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره في كتاب الإجارة باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام عن عائشة رضي الله عنها واستأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدئل ثم من بني عبد بن عدي هادياً خريئاً - الخريت: الماهر بالهداية - قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فاتاهما براحتيهما صبيحة ليال ثلاث فارتحلا^(٢٢٦) الحديث. قال ابن القيم: أسمه عبد الله بن أريقط الدؤلي وفي استئجاره وهو كافر: دليل على جواز الرجوع إلى الكافر في الطب والأدوية والحساب والعيوب ونحوها، ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة ولا يلزم من مجرد كونه كافراً أن لا يوثق به في شيء أصلاً، فإنه لا شيء أخطر من الدلالة في الطريق ولا سيما في مثل طريق الهجرة^(٢٢٧).

قال ابن بطال: عامة الفقهاء، يجيزون استئجارهم - أي المشركين - عند الضرورة وغيرها لما في ذلك من المذلة لهم، وإنما الممتنع أن يؤجر المسلم نفسه من المشرك لما فيه من إذلال المسلم^(٢٢٨). ولكن ما هو الحكم لو آجر المسلم نفسه من كافر؟

والجواب على ذلك ما رواه البخاري أيضاً عن خباب رضي الله عنه

(٢٢٦) «صحيح البخاري»: (ج ٤/٤٤٢، ح ٢٢٦٣).

(٢٢٧) «بدائع الفوائد»: (ج ٣/٢٠٨).

(٢٢٨) «فتح الباري»: (٤/٤٤٢).

قال: كنت رجلاً قيناً فعملت للعاص بن وائل فاجتمع لي عنده، فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث فلا. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم. قال: فإنه سيكون لي ثم مال وولد، فأقضيك، فأنزل الله تعالى:

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِنَنَا وَقَالَ لَا يُفِيكَ مَا لَا وُلْدًا

[سورة مريم: ٧٧].

قال المهلب: كره أهل العلم ذلك - أي مؤاجرة نفسه من مشرك في أرض الحرب - إلا لضرورة بشرطين أحدهما أن يكون عمله فيما يحل للمسلم فعله. والآخر: أن لا يعينه على ما يعود ضرره على المسلمين^(٢٣٠). أما استتجار المشرك في الغزو: فقد رود النهي بذلك: ففي الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة^(٢٣١) أدركه رجل، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه. فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: لا. قال: «فارجع فلن أستمع بمشرك» قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة. فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة قال: «فارجع فلن أستمع بمشرك» قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: نعم. فقال له رسول الله ﷺ: «فأنطلق»^(٢٣٢).

(٢٢٩) «صحيح البخاري»: (ج٤/٤٥٢، ح٢٢٧٥) كتاب الإجارة باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب.

(٢٣٠) «فتح الباري»: (ج٤/٤٥٢).

(٢٣١) موضع على بعد أربعة أميال من المدينة.

(٢٣٢) «صحيح مسلم»: (ج٣/١٤٩٩، ح١٨١٧).

ولكن الحازمي^(٢٣٣) قال: اختلف أهل العلم في هذا الباب:

فذهبت جماعة إلى منع الاستعانة بالمشركون مطلقاً، وتمسكوا بظاهر هذا الحديث. وقالوا: هذا حديث ثابت عن النبي ﷺ وما يعارضه لا يوازيه في الصحة والثبوت فتعذر أدعاء النسخ لهذا.

وذهبت طائفة إلى أن للإمام أن يأذن للمشركون أن يغزوا معه ويستعين بهم ولكن بشرطين:

(١) أن يكون في المسلمين قلة وتدعو الحاجة إلى ذلك.

(٢) أن يكونوا ممن يوثق بهم فلا تخش ثائرتهم.

فمتى فقد هذان الشرطان لم يجوز للإمام أن يستعين بهم، قالوا: ومع وجود الشرطين يجوز الاستعانة بهم. وتمسكوا في ذلك بما رواه ابن عباس أن رسول الله ﷺ استعان بيهود بني قينقاع، واستعان بصفوان بن أمية في قتال هوزان يوم حنين، قالوا: وتعين المصير إلى هذا لأن حديث عائشة رضي الله عنها كان يوم بدر وهو متقدم فيكون منسوخاً^(٢٣٤). ثم قال: ولا بأس أن يستعان بالمشركون على قتال المشركين إذا خرجوا طوعاً ولا يسهم لهم^(٢٣٥).

ويدعم ابن القيم هذا الرأي وهو يتحدث عن فوائد صلح الحديبية فيقول: الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عينه ﷺ الخزاعي كان كافراً إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم^(٢٣٦)

(٢٣٣) هو الإمام أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم المعروف بالحازمي من رجال الحديث أصله من همدان، ولد سنة ٥٤٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٥٨٤هـ.

«الإعلام» للزركلي: (ج٧/١١٧) الطبعة الرابعة.

(٢٣٤) «الاعتبار في النسخ والمنسوخ من الآثار» للحازمي: (ص٢١٩) تحقيق راتب حاكمي.

(٢٣٥) المصدر السابق: (ص٢٢٠).

(٢٣٦) «زاد المعاد»: (ج٣/٣٠١)، وقصة الخزاعي في «تاريخ الطبري»: (ج٢/٦٢٥).

وقال في فوائد غزوة حنين. للإمام أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أردع صفوان بن أمية وهو يومئذ مشرك (٢٣٧).

وتبعه الإمام محمد بن عبد الوهاب فقال: الانتفاع بالكفار في بعض أمور الدين ليس مذموماً لقصة الخزاعي (٢٣٨).

ونخلص إلى القول:

إن الانتفاع بالكفار وبما عندهم من العلوم التي هي من اجتهاد الإنسان أمر جائز في الإسلام وأدلتة كثيرة سبق ذكر بعضها، ومنها أيضاً: مزارعة رسول الله ﷺ لليهود في خيبر على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها (٢٣٩).

أما إجارة المسلم نفسه لهم فجائزة إذا لم يكن في ذلك تعظيم لدينهم أو شعائرهم أو ما فيه ذلة ومهانة له. وأما الاستعانة بهم في الغزو فجائز ولكن ذلك منوط بإمام المسلمين إذا رأى أن المصلحة تقتضي استخدامهم وإلا فلا.

ومع هذا فإنه يجب الاحتراز ومنع استعمال الكفار في شيء من ولايات المسلمين التي يكون فيها سلطة لهم على المسلمين كالدواوين فإن في ذلك جناية على الإسلام والمسلمين، فضلاً عن أن ذلك مخالفة صريحة لحكم الشرع الإسلامي. وهيئته على الأرض فإنه أيضاً إذلال صريح للمسلمين حتى الذين توهبوا أن ذلك أمر جائز. وإليك بعضاً من النصوص والحوادث التاريخية الهامة التي يبدو فيها كيد أعداء الله للإسلام والمسلمين حين تولوا هذه المناصب الهامة.

(٢٣٧) (ازاد المعاد: (ج ٤٧٩/٣)، والقصة في السيرة لابن هشام: (ج ٨٣/٤)، وتاريخ الطبري: (ج ٧٣/٣).

(٢٣٨) (ملحق مصنفات الإمام محمد بن عبد الوهاب: (ص ٧).

(٢٣٩) الحديث في صحيح البخاري: (ج ١٥/٥، ح ٢٣٣١) كتاب المزارعة، باب المزارعة مع اليهود.

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «قلت لعمر رضي الله عنه إن لي كاتباً نصرانياً. قال: مالك؟ قاتلك الله؟ أما سمعت الله يقول:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

[سورة المائدة: ٥١].

ألا اتخذت حنيفاً؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين لي كتابته، وله دينه، قال: لا أكرمهم إذا أهانهم الله ولا أعزهم إذا أذلهم الله، ولا أدنيهم إذا أقصاهم الله» (٢٤٠).

وكتب عمر رضي الله عنه أيضاً إلى أبي هريرة كتاباً جاء فيه: «...ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك. وساعد على مصالح المسلمين بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله تعالى جعلك حاملاً لأتقاهم» (٢٤١).

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى بعض عماله: «أما بعد: فإنه بلغني أن في عملك كاتباً نصرانياً يتصرف في مصالح الإسلام، والله تعالى يقول:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ

﴿آمَنُوا لَاتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا ذِينَكُمْ هُرُوفًا وَلِبَاسًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[سورة المائدة: ٥٧].

فإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان بن زيد - يعني ذلك الكاتب - إلى الإسلام فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعن به ولا تتخذ أحداً

(٢٤٠) هكذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٥٠)

أن هذا الحديث رواه أحمد ولم أجده في «مسند أبي موسى»، وقد أورده البيهقي

في «السنن الكبرى»: (١٢٧/١٠) كتاب آداب القاضي.

(٢٤١) «أحكام أهل الذمة»: (ج ١/٢١٢ ٧).

على غير دين الإسلام في شيء من مصالح المسلمين فأسلم حسّان وحسن إسلامه» (٢٤٢).

ولما فشا استخدام أهل الكتاب في مصالح المسلمين أيام الخلافة العباسية نهض أحد العلماء بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الشأن وهو شبيب بن شيبة (٢٤٣) فقد استأذن على أبي جعفر المنصور فأذن له فقال: (.. يا أمير المؤمنين أتق الله فإنها وصية الله، إليكم جاءت وعنكم قبلت، وإليكم تؤدي، وما دعاني إلى قولي إلا محض النصيحة لك والإشفاق عليك، وعلى نعم الله عندك. أخفض جناحك إذا علا كعبك وأبسط معروفك إذا أغنى الله يدك. يا أمير المؤمنين إن دون بابك نيراناً تأجج من الظلم والجور لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه محمد ﷺ).

يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين، ظلّمهم وعسفهم، وأخذوا ضياعهم وغصبوهم أموالهم، وجاروا عليهم، وأتخذوك سلماً لشهواتهم، وإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً يوم القيامة. فقال المنصور خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين وقال: يا ربيع: اكتب إلى الأعمال وأصرف من بها من الذمة. ومن أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع باستخدامه، فقال شبيب: يا أمير المؤمنين: إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك، إن أطاعوهم أغضبوا الله، وإن أغضبوهم أغروك بهم، ولكن تولي في اليوم الواحد عدة، فكلما وليت رجلاً عزلت الآخر (٢٤٤).

(٢٤٢) «المصدر السابق»: (٢١٤/١).

(٢٤٣) شبيب بن شيبة بن هبّد الله التميمي المنقري الأثمي. أديب الملوك وجليس الفقهاء، وأخو المساكين كان يقال له (الخطيب) لفصاحته وكان شريفاً من الدهاء، يفرع إليه أهل بلده في حوائجهم. انظر ترجمته في «شذرات الذهب»: (ج ١/٢٥٦)، و«تهذيب التهذيب»: (ج ٣٠٧/٤)، و«الأعلام»: (ج ٣/١٥٦).

(٢٤٤) «المصدر السابق»: (ج ١/٢١٥). هذا وقد وردت ملاحظات قيمة من إخوة فضلاء بخصوص هذا الموضوع حيث مالوا فيها إلى ترجيح عدم الاستعانة =

وخلاصة القول: إنه ينبغي التفريق بين استخدام الكافر كشخص بمفرده في أمر من الأمور وبين استخدامه كصاحب سلطة ونفوذ في أمر من أمور الدولة الإسلامية.

فالأول جائز وبه وردت أدلة سبق ذكرها كما علمت.

والثاني لا يجوز لمنافاته مضمون وروح الشريعة الإسلامية وهدفها الأساسي وهو أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والخير كل الخير في أن يعتمد المسلمون على أنفسهم من أجل أن تبقى الأمة الإسلامية أمة متميزة ذات طابع خاص، مصبوعة بصبغتها الربانية التي أرادها الله لها.

سائلين المولى سبحانه أن يأتي باليوم الذي يعود فيه المسلمون لدينهم الصحيح وقد آستغنوا في كل أمورهم وشؤونهم عن الكفار وسائر الأعداء، وما ذلك على الله بعزيز.

التقية والإكراه

وهما أمران ورد حكمهما في الشريعة الإسلامية لبيان حالات معينة من حالات الضرورة التي قد تعرض للمسلم.

تعريف التقية:

عرفها حَبْرُ الأمة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فيما رُوي عنه أنه قال: **التقاة: التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان** (٢٤٥).

= بالمشرك. وأنا قد ذكرت الرأيين في هذا ولعل في طبعة قادمة إن شاء الله أتوسع في هذا الموضوع وأعيد صياغته، والله الموفق.

٢٤٥٠ (تفسير الطبري): (ج ٣/ ٢٢٨، ٢٢٩).

وقال أبو العالية: التقية باللسان وليس بالعمل^(٢٤٦).

وقال ابن حجر العسقلاني: التقية الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير^(٢٤٧).

وقال الأستاذ سيد قطب: التقية: تقية اللسان لا ولاء القلب، ولا ولاء العمل وليس من التقية المرخص بها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر، كما أنه ليس من التقية أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية فما يجوز هذا الخداع على الله^(٢٤٨).

متى تكون التقية؟

قال تعالى:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ
تَقِيَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

[سورة آل عمران: ٢٨].

قال البغوي: نهى الله المؤمنين عن موالاته الكفار ومداهنتهم ومبايعتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيدارهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالاً حراماً، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين. والتقية لا تكون إلا من خوف القتل وسلامة النية قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلْبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

(٢٤٦) «تفسير الطبري»: (٣/٢٢٨، ٢٢٩).

(٢٤٧) «فتح الباري»: (ج ١٢/٣١٤).

(٢٤٨) انظر «الظلال»: (ج ١/٣٨٦).

ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم (٢٤٩).

وقال ابن القيم: معلوم أن الثقة ليست بموالة، ولكن لما نهاهم عن موالة الكفار اقتضى ذلك معادتهم والبراءة منهم، ومجاورتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم الثقة وليست الثقة موالة لهم (٢٥٠). (ولأن باب الثقة باب يمكن أن ينفذ منه الشيطان بسهولة يزين للضعفاء ومرضى القلوب أن يركنوا إلى أعداء الله قال بعدها مباشرة: ﴿ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ يحذركم في الدنيا أن تتخذوا هذا الباب تكأة، وتستسهلوا هذه الكبيرة - وهي موالة أعداء الله - وينذركم أن إليه المصير فيجازيكم على ما فعلتم في الدنيا، فلا تحسبوا أن تتركبوا هذه الكبيرة في الأرض - مخادعين أنفسهم أو مخادعين الناس - ثم تنجوا من عذاب الله في الآخرة (٢٥١).

وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى:

إِلَّا أَنْ تَكْفُرُوا مِنْهُمْ تَقَنُّهُ

[سورة آل عمران: ٢٨].

أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بالستكم وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل (٢٥٢).

(٢٤٩) «تفسير البغوي»: (ج ١/٣٣٦)، وانظر «أحكام القرآن» للجصاص: (ج ٢/٢٨٩).

(٢٥٠) «بدائع الفوائد»: (ج ٣/٦٩).

(٢٥١) «دراسات قرآنية»: (ص ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢٥٢) «تفسير الطبري»: (ج ٣/٢٢٨).

الإكراه:

قال تعالى:

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ مَا لَمْ يَأْكُفِرْ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

[سورة النحل: ١٠٦ - ١٠٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية - الأولى - في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه وأمه سمية وصهيياً وبلالاً وخباباً وسالمًا. فأما سمية فإنها رُبِطت بين بعيرين ووجيء قبلها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أو قتيلين قتلا في الإسلام وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فأخبر النبي ﷺ بأن عماراً كفر، فقال: «كلا: إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه» (٢٥٣) فألقى عمار رسول الله ﷺ وهو يكي فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» (٢٥٤) فأنزل الله هذه الآية (٢٥٥).

(٢٥٣) هذا اللفظ ضعيف، وإنما اللفظ الصحيح هو ما رواه الحاكم في «مستدرکه»: (ج ٣/٣٩٢ - ٣٩٣)، وكذلك النسائي: (ج ٨/١١١) في كتاب الإيمان، هكذا: «ملئ عماراً إيماناً إلى مشاشه» وهو حديث صحيح كما قال الألباني. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٥/٢١١، ح ٥٧٦٤)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (ج ٢/٤٦٦، ح ٨٠٧).

(٢٥٤) حديث مرسل ورجاله ثقات. انظر «فتح الباري»: (ج ١٢/٣١٢).
(٢٥٥) «أسباب النزول» للواحدي: (ص ١٦٢)، وانظر «تفسير الطبري»: (ج ١٤/١٨٢)، و«تفسير ابن كثير»: (ج ٤/٥٢٥).

قال الطبري في معنى الآية: من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره على الكفر فنطق بكلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدراً فاختره وآثره على الإيمان، وباح به طائعاً: فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم^(٢٥٦).

وسبب ذلك: أنهم آسحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا^(٢٥٧).

شروط الإكراه:

قال ابن حجر: شروط الإكراه أربعة:

- (١) أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزاً عن الدفع ولو بالفرار.
- (٢) أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.
- (٣) أن يكون ما هدد به فورياً، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غداً، لا يعد مكرهاً، ويستثنى ما إذا ذكر زمناً قريباً جداً، أو جرت العادة بأنه لا يخلف.
- (٤) أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأييد كقتل النفس بغير حق^(٢٥٨).

قال الخازن: قال العلماء: يجب أن يكون الإكراه الذي يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل

(٢٥٦) تفسير الطبري: (ج ١٤/ ١٨٢).

(٢٥٧) تفسير ابن كثير: (ج ٤/ ٥٢٥).

(٢٥٨) فتح الباري: (ج ١٢/ ٣١١ - ٣١٢).

والضرب الشديد، والإيلامات القوية مثل التحريق بالنار ونحوه^(٢٥٩). وأجمعوا أيضاً: على أن من أكره على الكفر لا يجوز له أن يتلفظ بكلمة الكفر تصريحاً، بل يأتي بالمعاريض وبما يوهم أنه كفر، فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الإيمان، غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر، ولو صبر حتى قتل كان أفضل لفعل ياسر وسمية وصبر بلال على العذاب^(٢٦٠).

لقد كان بلال رضي الله عنه تُفعل به الأفاعيل حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم ويقول: أحد. أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة أغبط لكم منها لقلتها^(٢٦١).

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري^(٢٦٢) لما قال مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

قال نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك^(٢٦٣).

وكما فعل الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي^(٢٦٤): فإنه لما أسرته الروم جاءوا به إلى ملكهم فقال له: تَنْصَرُ وأنا أشركك في ملكي

(٢٥٩) «تفسير الخازن»: (ج ٤/١١٧).

(٢٦٠) «تفسير الخازن»: (ج ٤/١١٧).

(٢٦١) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج ٤/٥٢٥).

(٢٦٢) حبيب بن زيد بن عاصم بن عمرو الأنصاري أخو عبد الله بن زيد، ذكره

ابن إسحاق فيمن شهد العقبة من الأنصار وقال هو الذي أخذه مسيلمة قتلته.

قال ابن سعد شهد حبيب أحداً والخندق والمشاهد «الإصابة»: (ج ١/٣٠٧).

(٢٦٣) «تفسير ابن كثير»: (ج ٤/٥٢٥).

(٢٦٤) هو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي

وأمه آمنة بنت حارثان من بني حارث، وهو من السابقين الأولين، يقال إنه

شهد بدرًا، ولم يذكره موسى بن عقبة ولا ابن إسحاق ولا غيرهما من أصحاب

المغازي. وقصته مع ملك الروم ذكرت سابقاً، انظر ترجمته في «الإصابة»:

(ج ٢/٢٩٦)، و«تهذيب التهذيب»: (ج ٥/١٨٥).

وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت. فقال: إذا أقتلك قال: أنت وذاك، فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر. وفي رواية ببقرة من نحاس فأحيت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقي فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحيت أن يكون لي بعدد كل شعرة من جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله!

وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: بما منعك أن تأكل؟ قال: أما أنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك في، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين، قال: نعم فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه (٢٦٥).

أنواع الإكراه:

(١) الإلجاء: حيث ينعدم الرضا والاختيار، وتنتفي الإرادة والقصد، وذلك بالوقوع تحت التعذيب الشديد أو نحو ذلك، وهذه الحالة هي التي نزلت فيها آية النحل:

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ

(٢٦٥) تفسير ابن كثير: (ج ٤/٥٢٦).

(٢٦٦) كتاب وحد الإسلام وحقيقة الإيمان للأستاذ عبد المجيد الشاذلي: (ص ٥٢٣) مكتوب بالآلة الكاتبة.

وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ

[سورة النحل: ١٠٦].

(٢) التهديد: حيث يعلم الرضا، ولا يعلم الاختيار تماماً وهذه في مثل الحالة التي يختار فيها الإنسان أخف الضررين مثل حال شعيب عليه السلام مع قومه إذ خيروه بين العودة إلى الكفر أو الخروج من قريتهم:

❖ قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَاهِنِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ

[سورة الأعراف: ٨٨ - ٨٩].

فلا تجوز الاستجابة لمثل هذا الإكراه لهذا النص ولقوله تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ

[سورة العنكبوت: ١٠].

(٣) الاستضعاف: وهنا لا تعذيب ولا تهديد ولكن المستضعف داخل تحت وضع مفروض عليه من غيره كالمقيم في مكة بعد هجرة المسلمين عنها، فإذا كان دخوله تحت هذا الوضع لعجزه عن دفعه وعن الخروج منه،

(٢٦٧) كتاب وحد الإسلام وحقيقة الإيمان، للأستاذ عبد المجيد الشاذلي: (ص ٥٢٣) مكتوب بالآلة الكتابة.

ولو أمكنه ذلك لفعل مهما كانت توضحياته وتكاليفه فهذا قد عفا الله عنه^(٢٦٨). أما إذا كان قادراً على الدفع أو الخروج ولم يفعل ذلك إثارةً للعاقبة فقد سبق كلام الشيخ ابن عتيق وغيره في ذلك.

قال ابن تيمية: تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره عليه فليس الإكراه المعتبر في كلمة الكفر كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها، فإن أحمد قد نصّ في غير موضع، أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب وقيد، ولا يكون الكلام إكراهاً^(٢٦٩).

كلمة أخيرة حول الإكراه

إنه من المهم والواجب التفريق بين الإكراه وبين مشاعر الخوف التي تتزاول مع مشاعر الرجاء والتعظيم فإن هذه مشاعر عبادة.

كما أنه يجب أن نفرق بين الاستضعاف وبين الهزيمة الداخلية، والاستكانة للعدو والركون إليه وفقدان الثقة في الله وترك التوكل عليه.

ذلك أن الإنسان يملك في أحلك الظروف قوة عظيمة - هي قوة الرفض بقلبه - وهذه القوة سماها رسول الله ﷺ جهاداً في قوله: «... ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(٢٧٠).

فالانهزام أمام الباطل والموالاتة التي يحتاجها الباطل حتى وهو قوي لا بد من الامتناع عنها وهذا هو جهاد القلب، والله سبحانه يقول للمؤمنين بعد وقعة أحد:

وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلْتَلَا مَعَهُ

رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا

(٢٦٨) المصدر السابق: (ص ٥٢٦).

(٢٦٩) نقلاً عن «الدفاع» لابن عتيق: (ص ٣٠).

(٢٧٠) صحيح مسلم: (ج ١/٧٠، ح ٥٠) كتاب الإيمان.

وَمَا اسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ
 إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
 أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَقَالَهُمْ اللَّهُ
 ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾
 يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
 يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ آغْفٍ كُفٍّ فَتَنْقَلِبُوا وَخَسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
 بَلِ اللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

[سورة آل عمران: ١٤٦ - ١٥٠].

وقال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود: «بحسب أمرىء يرى منكراً لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كارهه ودلالة الكره: الاعتزال وعدم المشايعة بالعمل.

إن استعلاء القلب على الهزيمة الداخلية، وبقاء قوة رفضه للباطل مهما استطال وانتفش وقوة ضبطه للسلوك لتأكيد الاعتزال وعدم المشايعة بالعمل هو جهاد القلب وإنه لجهاد له أثره الواقع في حياة الناس» (٢٧١).

(٢٧١) «حد الإسلام» للشاذلي: (ص ٥٢٧ - ٥٢٨) بتصرف.

الباب الثالث
الصورة التطبيقية للولاء والبراء
في الماضي والحاضر

الفصل الأول

كيف طبق السلف الولاء والبراء

تحدثت فيما سبق عن أمثلة من الأمم الماضية التي سبقت الأمة المحمدية ومر معنا بعض الأمثلة والنماذج في عهد النبوة. ولكن ذلك الجيل مليء بالصور المشرقة. لذلك رأيت أن أزيد هذا الأمر وضوحاً وتحليلاً بذكر نماذج أخرى لما لها من أهمية كبرى.

وكل قول لا يدعمه التطبيق العملي يعد زعماً باطلاً لا يمت للحقيقة بصلة ولا للواقع ببرهان.

لذلك فإن التطبيق الواقعي للولاء والبراء هو المقتضى الصحيح والوجه المشرق لمبدأ كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وإن من المعلوم بالضرورة أن سلف الأمة رضوان الله عليهم هم خير من طبق هذه العقيدة بكل مقتضياتها وتكاليفها.

والحديث عن السلف ممتع وجميل، بل هو من الحوافز العملية التي سجلها تاريخ الأمة المسلمة ليكون ذلك معلماً من معالم الهداية والرشاد لمن جاء بعدهم، ليستن بسنتهم وينهج نهجهم.

وقد كانوا رضوان الله عليهم يقدرون النعمة التي أنعم الله بها عليهم وهي نعمة الإيمان.

ويقدرون أيضاً فضل نور الله وشرعته الغراء التي بعث بها نبيه محمداً ﷺ

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا

[سورة الأنعام: ١٢٢]

وقدروا رحمهم الله تربية المصطفى ﷺ وأهمية سنته الشريفة قولاً وفعلًا،
وأدركوا أنهم (لم يكونوا خدمة جنس، ورسل شعب أو وطن، يسعون لرفاهيته
ومصلحته وحده، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، ولم
يخرجوا ليؤسسوا أمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويشمخون
ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم
العرب وإلى حكمهم أنفسهم. إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً
إلى عبادة الله وحده، كما قال ربي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد:
الله آتبعنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ومن ضيق الدنيا
إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. فالأثم عندهم سواء والناس
عندهم سواء. الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب.. لم ييخلوا بما عندهم
من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً
ولوناً ووطناً، بل كانوا سحابة خير أنتظمت البلاد وعمت العباد، وغواذي
مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها
وصلاحها)^(١).

ويصعب عليّ هنا أن أذكر معظم الوقائع والمواقف التي برز فيها تطبيق
الولاء والبراء عند سلف الأمة رحمهم الله. ولكنني أقصر على القليل من ذلك
لإعطاء فكرة صادقة وصورة حيّة، وأمثلة مشرقة لتلك التماذج الإيمانية التي
أراد الله أن يحقق بها مثالية هذا الدين، ليعلم الناس أن هذا الدين مثالي
واقعي^(٢) في آن واحد إذا وجد الأكفاء الجديرون بحمله وتبليغه للناس بصدق

(١) «ماذا خسر العالم بالخطايا المسلمين»: (ص ١٢٦ - ١٢٧) بتصرف بسيط.

(٢) للوقوف على فكرة صحيحة فيما يتعلق بمثالية الإسلام وواقعيته حبذا مراجعة =

وأمانة، وطهر ونقاء، وإخلاص ونجود، وابتغاء ما عند الله..

ومن هذه الأمثلة: موقف صحابة رسول الله ﷺ من كعب بن مالك رضي الله عنه ومن معه من الخلفين الثلاثة، حيث قاطعوهم وهجروهم لتخلفهم عن غزوة تبوك.

وأنظر إلى هذه المقاطعة لثلاثة من صحابة رسول الله ﷺ يصلون خلف رسول الله في مسجد أسس على التقوى، لقد هجروهم ولم يكلموهم حتى في التحية الإسلامية!!

فمن يا ترى من المسلمين اليوم يتبرأ من الذين يحادون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً؟!

أما الموقف العظيم الذي يبرز فيه ولاء المسلم لدينه وإخوانه المؤمنين، حتى وهذا المؤمن مهجور من إخوانه وأحبابه، مقاطع عنهم حتى في رد السلام. مبتلى بإغراء مادي عظيم، ومحسن له المنصب ورفعته المكان في الدنيا: فهو موقف الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه، فإنه - كما جاء في حديثه الطويل - لما أمر الرسول ﷺ صحابته بهجره ومن معه، حتى زوجته ذهبت إلى أهلها فاجأه أمر عجيب وخطر في آن واحد.

يقول كعب رضي الله عنه: (.. فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار

= كتاب «خصائص التصور الإسلامي» للأستاذ سيد قطب، فصل الواقعية. وكتاب «منهج التربية الإسلامية» للأستاذ محمد قطب، المجلد الأول، الفصل الأخير. وكتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» فصل نظرة الإسلام.

هوان ولا مضبغة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتممت بها التنور فسجرت به^(٣).

لقد صدق كعب رضي الله عنه في قوله: (وهذا أيضاً من البلاء) أجل إنه بلاء عظيم، ولقد كان ولاء كعب رضي الله عنه رغم ما هو فيه من شدة وهجر ومع دواعي الإغراء والإغواء لله ولدينه ورسوله والمؤمنين، وكان براؤه من ملك غسان واضحاً في حرقه لكتاب ذلك الملك.

فانظر إلى هذه العظمة وهذا الصدق في الولاء والحب للإسلام والمسلمين والبعد عن كل ما يصرف عن ذلك من متاع الدنيا ووجاهتها التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

قال ابن حجر وهو يشرح قصة كعب: دل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبة الله ورسوله وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان بحسب المادة، وأحرق الكتاب ومنع الجواب.. ورجع ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دُعي إليه من الراحة والنعيم حباً في الله ورسوله كما قال ﷺ: «وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»^(٤).

ومثال آخر: قصة الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي وموقفه مع ملك الروم، حيث أغراه حتى بمشاطرته ملكه فرفض، وهدده بالقتل

(٣) القصة بطولها في «صحيح البخاري»: (ج ٨/١١٣، ح ٤٤١٨) كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، وانظر القصة أيضاً في «تفسير الطبري»: (ج ١١/٦٠)، و«تفسير ابن كثير»: (ج ٤/١٦٦ - ١٦٨).

(٤) «فتح الباري»: (ج ٨/١٢١)، والحديث سبق تخريجه (ص ٤٠)، وانظر تعليق ابن القيم على القصة في «زاد المعاد»: (ج ٣/٥٨١).

والحرق فأبى أن يتنصر. كل ذلك دلالة واضحة، وبرهان صادق لعمق ذلك الولاء ورسوخ هذه العقيدة في تلك النفوس العظيمة. ولكن كان موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي - الذي تحدثنا عنه سابقاً - عظيماً في منعه أباه من دخوله المدينة إلا بإذن رسول الله ﷺ. فإن موقف أبي عبيدة رضي الله عنه أعجب من ذلك وأعظم فلقد قتل أباه في معركة بدر لأنه كان كافراً محارباً لله ورسوله، ولم تكن صلة الأبوة تمنعه دون تنفيذ الولاء والنصرة لله ورسوله ودينه والمؤمنين. والبراءة والجهاد لعدو الله الذي رضي بالبقاء في حزب الشيطان ليكون حرباً على المؤمنين.

ومثال آخر: فقد روت كتب السير أن زيد بن الدثنة^(٥) رضي الله عنه، اشتراه صفوان بن أمية - بعد يوم الرجيع - ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وخرجوا بزيد إلى التنعيم حيث اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟

قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي فقال: أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتلوا زيدا رضي الله عنه^(٦).

فانظر إلى هذا الحب وهذا التفاني وذلك الولاء، وقوة النصرة! إنه رضي الله عنه وهو في مكانه البعيد من رسول الله ﷺ - لا يرضى أن تمس رسول الله ﷺ شوكة، فضلاً عن أن يصيبه أكبر من ذلك!!

هذا هو الولاء الصادق الذي بنته هذه العقيدة في النفوس فأخرجت للناس هذه النماذج العظيمة التي تقصر دون عظمتها كل عظمة أرضية.

(٥) زيد بن الدثنة: بفتح الدال وكسر المثلثة ابن معاوية بن عبيد بن عامر بن بياضة الأنصاري شهد بدرًا وأحداً وكان في غزوة بدر معونة فأسره المشركون وقتلته قريش به «التنعيم». انظر «الإصابة»: (ج ١/٥٦٥).

(٦) انظر القصة في «السيرة» لابن هشام: (ج ٣/١٨١).

ومثال آخر: روى الإمام أحمد وغيره أن أنس بن النضر رضي الله عنه غاب عن قتال بدر فقال: غيبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين! لئن آله أشهدني قتالاً للمشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد أنكشف المسلمون فقال: اللهم إني أعذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ دون أحد فقال: أنا معك، قال سعد: فلم أستطع أن أصنع ما صنع، قال فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم فكانوا يقولون فيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى:

فَإِنَّهُمْ مِّن قَضَىٰ نَجْبَةٍ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ

[سورة الأحزاب: ٢٣].

إن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم كانوا شديدي الاعتزاز بدينهم فلم تحذعهم المظاهر الجوفاء، ولا القوى والاعتبارات التي تتعبد الناس في الجاهلية، وأصدق مثال على ذلك قصة ربعي بن عامر رضي الله عنه حين قابل رسم، فقد كان الفرس مدججين بالسلاح وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، ووضعوا البسط والتمارق في مجلس رسم وله سرير من الذهب، فأقبل ربعي يسير على فرس له زباء^(٨) قصيرة، معه سيف غمده لفافة ثوب خلق، ورمح وجحفة^(٩) وقوس فلما انتهى إلى أدنى البسط قبل له انزل فحملها على البساط فلما آستوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه ثم قالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم أنتم دعوتوني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رسم فأذن له وقال: هل هو إلا رجل واحد! فأقبل ربعي يتوكأ على رمحه

(٧) مسند أحمد: (ج ٣/٣٠١)، وتفسير ابن كثير: (ج ٦/٣٩٤).

(٨) الزباء: أي طويلة الشعر كثيرة.

(٩) الجحفة: الترس.

وزجه نصل يقارب الخطو، ويزج التمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منهكاً مخرقاً، فلما دنا من رسم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض وركز رمحاً بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زيتكم هذه! فكلمه فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا يدينه إلى خلقه لدعواهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رسم: قد سمعت مقاتلكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم. كم أحب إليكم؟ أيوماً أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعتة فقال: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا تؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر في أمرك وأمرهم، وأختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك. وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك أو المنازعة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، وأنا كفيلاً لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من تربى، قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم^(١٠).

ومما يوضح أيضاً صورة الولاء في نفوس أولئك الأخيار قوله ﷺ في غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيرة، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم قالوا: وهم بالمدينة؟» قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر» متفق عليه^(١١).

(١٠) «تاريخ الطبري»: (ج ٣/٥١٩ - ٥٢٠).

(١١) «صحيح البخاري»: (ج ٨/١٢٦، ح ٤٤٢٣) كتاب المغازي، وصحيح

مسلم: (ج ٣/١٥١٨، ح ١٩١١) كتاب الإمامة.

فانظر إلى هذا الولاء والتناصر حتى ممن حبسهم العذر، لأن هذا أمر لا عذر لهم في تركه، فهم مع إخوانهم بالدعاء والمتابعة.

أما اليوم فمرى المغرورون والمبهورون والمنهزمون أن الكفار - كما قال أحدهم - خصوم شرفاء، بل يرونهم أصدقاء أوفياء.

ولكن الذي يجب على المسلمين اليوم أن يفهموه: هو أن الاقتداء بسيرة رسول الله ﷺ وسلفنا الصالح في كل شيء، وفي قضية الولاء والبراء من باب أخص هو الأمر المطلوب منهم وليس عليهم بعد ذلك أن تقوم أصوات أرباب التبعية والولاء للغرب الكافر والشرق الملحد لتنادي بما قاله وردده من قبلهم. إن هذا الفعل رجعية وتقهر. بل إن عزم المسلمين المخلصين على تحقيق مقتضيات هذه العقيدة والإصرار على تحكيم الشريعة الربانية هو سبيل النجاح وطريق الفلاح، في الدنيا والآخرة وجدير بهم أن يرتفعوا إلى المستوى المطلوب منهم

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

[سورة آل عمران: ١٣٩].

الفصل الثاني

صورة الولاء والبراء في عصرنا الحاضر

بعد أن سبق بيان قضية الولاء والبراء في التصور الإسلامي، ووقفنا على مدى أهمية الموضوع، وبعد سوق تلك الأمثلة المشرقة من تاريخ الصدر الأول من هذه الأمة: لا بد أن نقف عند وضع المسلمين في العصر الحاضر، لنرى أين يقف المسلمون اليوم من هذه القضية وما مدى التزامهم بها أو تخليهم عنها؟ وما الذي حل بهم؟ وهل هناك مبشرات لتغيير هذا الواقع المؤلم؟

وإنه لمن البدهي هنا أن نقول: إن العالم الإسلامي في العصور المتأخرة قد بلغ دركات الانحطاط والتخلف في كل شيء.

انحطاط في عقيدته حيث ترك ما عليه السلف الصالح وذهب إلى خزعبلات وحواشي علم الكلام الدخيل والخوض في نقاشات ييزنطية لا تمت للواقع ولا تصلحه بأي حال بل تزيده فساداً وأنهياراً.

وانحطاط في التزامه بمقتضيات هذه العقيدة من الجهاد والتميز والعزة حيث استبدل بذلك كله التصوف والخرافات والتواكل، مما أطمع العدو فيهم على هذه الحال.

وتخلف في جميع المجالات العلمية وترك مكان القيادة إلى ذلة التبعية فبعد أن كان المسلمون هم الرواد في كل علم نافع جاء الخلف ليترك ذلك الميراث العظيم الذي أخذه أعداء هذا الدين وأستفادوا به ودفعهم إلى ما وصلوا إليه الآن.

وأخيراً فقد أعطى هؤلاء الخلف للناس: صورة هزيلة رديئة عن الإسلام،

جعلت أعداء هذا الدين يتكالبون عليه من كل حذب وصوب طامعين في إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ولقد غزت العالم الإسلامي جيوش كثيرة وعديدة، وهي على كثرتها وضراوتها العسكرية لم تكتف بهذا بل نوعت أساليب الهجوم، فأستخدمت بعد الهجوم العسكري - الغزو الفكري الخبيث الذي فعل في "المسلم" ما لم تفعله الجيوش الجرارة!

وأول ما حرص عليه الأعداء هو بث سموم التشكيك وقلب المفاهيم حيث أخذ ينشر أمثال هذه الأفكار: "ما للدين ونظام المجتمع؟ ما للدين والاقتصاد؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة؟ ما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة، ما للدين والملبس وخاصة ملابس المرأة؟ ما للدين والفن؟ ما للدين والصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون؟ وباختصار: ما للدين والحياة؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض؟" (١٢).

وكان هدف الاستعمار - كما يقول الشيخ محمد الغزالي -:

(تكوين جيل يستحي من الانتساب للإسلام، ويكره أن يرى وهو يقوم بشيء من شعائره، خصوصاً بين المثقفين الكبار! والطبقات التي تهيأ للحكم والنفوذ.

الواحد من هؤلاء يحب أن يراه الناس خارجاً من حانة، ولا يحب أن يروه خارجاً من مسجد ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشرة نسوة، لكن وجهه يسود لو قيل: متزوج من اثنتين أما أن يفكر في تلاوة آيات من القرآن أو يرجع إلى شيء من سنة رسول الله فذلك ما لا يخطر له ببال (١٣).

وأفلح الاستعمار أيضاً في تكوين جيل يرفض العمل تحت لواء الإسلام،

(١٢) «هل نحن مسلمون؟» (ص ١١٠).

(١٣) «كفاح ديني» (ص ١٤٧)، الطبعة الثالثة.

وهذا الجيل هو "الطابور الخامس" الذي ألحق بنا الهزائم في كل ميدان^(١٤).

وحتى لا يكون الحديث مجرد عاطفة أو هجوم - كما يقال ذلك - أرى أن أثبت هنا نصوصاً صريحة واضحة نطق بها أعداؤنا الكفار ونفذوها تدل على مدى عمق عداوتهم للإسلام والمسلمين وإنهم لا يريدون إلا الشر والكيد بهذا الدين وطمس معالمه، وفي هذه النصوص أيضاً عظة وعبرة للمتغافلين والمنهزمين والمبهورين بهم من أبناء جلدتنا ومن الذين ينطقون بلغتنا ويتسمون بأسمائنا. ثم يحكم المنصف بعد قراءتها هل تحقق شيء منها أم لا؟

يقول القس زويمر في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م وهو يخاطب المبشرين بالنصرانية في العالم الإسلامي ما نصه: (.. إن مهمة التبشير التي ندهتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية - ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية - فإن في هذا هداية لهم وتكريماً!! وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهتكم عليه وتهتكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً من أجله كل التهئة)^(١٥). وسترد بقية هذه الكلمة. ومع وضوح هذا النص الصليبي الحاقد وجد من "المستسلمين" - وهو محسوب من العلماء - من يقول إن قضية زمالة الأديان والتسامح بينها والتقارب والالتقاء بينها أمر محبب كما قد سبق ذكر ذلك في الباب الثاني. مما يدل على مدى الغفلة وعمق الجهل بحقيقة الإسلام وبحقيقة عداوة أعدائه له.

(١٤) انظر «حصاد الغرور»: (ص ٣٩).

(١٥) «جنود البلاء» للأستاذ عبد الله التل: (ص ٢٧٥)، الطبعة الثانية.

ويقول لويس التاسع: إن الغزو العسكري لا يكفي لهزيمة المسلمين ولكن لابد من غزو عقيدتهم.

ثم نجد عدواً آخر يقول - وهو يتابع عودة المسلمين إلى إسلامهم -:
(إلا إن ثمة قوة جديدة بدأت تظهر ألا وهي الدعوة إلى إسلام "مُترَمَّت" والسعي عن طريق الإسلام إلى نظام حياة لا يكون نسخة عن نظام آخر ولا تقليداً له، بل يكون خاصاً بهويته وتقاليدِه ومصالحه المعنوية والمادية) (١٦).

ويقول وليم جيفورد بالكراف: (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حيثنأ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه) (١٧).

وبالرغم من مئات النصوص التي تشبه ما ذكرنا، والتي مؤداها جميعاً: طمس الإسلام وإخراج المسلمين من إسلامهم فقد وجد للأسف في بلاد المسلمين من كان عوناً لهؤلاء الأعداء على خططهم، أو من ميع قضايا الإسلام في سبيل ملاينة أعداء الله.

يقول الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله: إن بعض الأقطار التي تسمى نفسها إسلامية، تبيح للمبشرين من الانجليز والفرنسيين والإيطاليين والأمريكيين أن ينشعوا مدارس للتبشير بالدين المسيحي في بلادهم حتى تفتن أطفال المسلمين عن دينهم، بل إن بعض الأقطار منع تعليم الدين الإسلامي في المدارس الحكومية وأهمل دراسة التاريخ الإسلامي في الوقت الذي يركز فيه الاهتمام بتدريس تاريخ أوروبا وتمجيد حضارتها وأنها هي قبلة الرقي والمدنية (١٨).

(١٦) الجنرال بيار غالوا. عن مجلة «المجتمع الكويتية»، العدد ٤٥٠، (ص٤)، سنة ١٣٩٩هـ.

(١٧) «الغارة على العالم الإسلامي»: (ص٩٤)، الطبعة الثانية.

(١٨) انظر «الإسلام وأوضاعنا القانونية»: (ص٧٥)، الطبعة الثانية.

وإذا كان هذا على مستوى الحكومات، فإن الأفراد أشد إغفالاً في ذلك وهم صنفان:

(١) صنف من العلماء الذين لهم مكانة في التاريخ الحديث، وكتب عنهم مجلدات فيها من المدح وألقاب الإصلاح ما آله به عليهم، ولكن التاريخ كشف عن هويّاتهم ومواقفتهم.

ومنهم عبد الرحمن الكواكبي: هذا الرجل الذي يعتبر من أسبق الناس ظهوراً في الدعوة إلى التفريق بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. وقد أصدر كتاب "أم القرى" سنة ١٨٩٩م. وورد في هذا الكتاب آراء لم تخل من إشارات مريّة إلى موالاة الدول الأوروبية المستعمرة حيث قال فيما قال: (وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب) (١٩).

أما الشيخ محمد عبده: فكما يقول عنه الأستاذ غازي التوبة: قد تجاوز تعاونه مع الانجليز المحتلين لمصر إلى التعاون مع الجواسيس المستشرقين في انكسار نفسها، حيث تتضح ثقتهم المطلقة به، وتعاونه البعيد معهم في الرسائل المبعوثين إلى "المستر بلنت" جواباً على سؤال الأخير عن رأي المفتي في الحالة السياسية الجديدة في مصر، وعن رأيه في الدستور المناسب لمصر. وقد أورد محمد رشيد رضا نصّ الرسائل في الجزء الأول من تاريخه ص ٨٩٩ - ٩٠٢، وورد في الرسالة الثانية الفقرة الثالثة قوله: (إذا فرض إن كان بعض الوزراء من الانكليز وكان لهم مرؤوسون من المصريين فإنه ينبغي أن يعطى هؤلاء المرؤوسون المصريون أو الوزراء الثانويون سلطة تسمح لهم بأن يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدين وما أشبه ذلك تحت مراقبة الوزراء الأصليين

(١٩) انظر كتاب «أزمة العصر» للدكتور محمد محمد حسين: (ص ١٨ - ٢٠) حول هذا الموضوع.

بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد العوبة في أيديهم كما هو الحال الآن (٢٠). هذا هو رأي الشيخ الذي نعت بمصلح العصر.

أما عباس محمود العقاد فيقول في كتابه «التفكير فريضة إسلامية»: ما الذي يمنع المسلم أن يعمل للديموقراطية، أو يعمل للاشتراكية، أو يعمل للوحدة العالمية؟

وما الذي يمنع المسلم من أحكام دينه أن يقبل مذهب التطور أو يقبل الوجودية في صورتها المثل؟

إلى أن قال: إن عقيدة المسلم لا تمنعه من أن يكون أشراكياً (٢١). وأنا أعلم مثل ما علم غيري أن هذا الكلام قد يقابل بالاستنكار والاستغراب لأنه خلاف المعهود ولكن أقول ما قاله الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله في كتابه القيم «الإسلام والحضارة الغربية» حيث قال:

(نحن حين ندعوا إلى إعادة النظر في تقويم الرجال لا نريد أن تنقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ، وأن أعمالهم كلها حسنات لا تقبل القدح والنقد، حتى إن المخلوع بهم والمتعصب لهم والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إماماً من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه، في الوقت الذي لا يهيجون فيه ولا يمججون حين يوصف أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعمائهم المعصومون فيقبلون أن يوصم سيف الإسلام خالد بن الوليد بأنه قتل مالك بن نويرة في حرب الردة طمعاً في زوجته، ويرددون ما شاع حول ذلك من أكاذيب. ويقبلون

(٢٠) «الفكر الإسلامي المعاصر. دراسة وتقويم»: (ص ٣٥ - ٣٧).

(٢١) «موسوعة العقاد»: (ج ٤/ ٩٥٨)، وانظر «الفكر الإسلامي» لغازي التوبة: (ص ١٧١).

أن يُلطخ تاريخ ذي النورين عثمان بن عفّان بما ألصقه به ابن سبأ اليهودي من تهم.. يقبلون ذلك كله ثم يرفضون أن يمس أحد أصنامهم بما هو أيسر منه، ويحتمون بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبون على مخالفتهم في الرأي هذه الحرية. يخطفون كبار المجتهدين من أئمة المسلمين ويجرحونهم بالظنون والأوهام ويشورون لتخطئة ساداتهم أو تجريحهم بالحقائق الدامغة (٢٢).

إننا لا بد أن نقول للمخطيء أنت مخطيء وللمصيب نقول: أحسنت وبارك الله فيك. لذا فإن آنزلاق هؤلاء العلماء. أو غيرهم في قضية موالة الكفار أو التساهل معهم في بعض الأمور بغير دليل شرعي أمر يرفضه الإسلام ويأباه لأن موضع القدوة لنا هو رسول الله ﷺ وصحابته الأجلاء وسلفنا الصالح وكفى. وليس من حق فرد - كائناً من كان - أن يجعل من آرائه وعلمه سلماً يرتقي عليه الموالون للكفار، ثم يزعم بعد هذا أنه داعية إسلامي، أو مصلح عظيم!!

(٢) أما الصنف الثاني: فهم الذين صنعهم الاستعمار على عينه، وربّاهم تربيةً أوروبية خالصة في التفكير والسلوك من أجل أن يكونوا أداةً للتقريب بين المسلمين وبين المستعمر الأوروبي.

ومن هذا الصنف طه حسين: الذي يقول في كتابه مستقبل الثقافة في مصر: لكن السبيل إلى ذلك - أي الرقي - ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بيّنة ومستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة

(٢٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ٥٠).

خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يُكره وما يُحمد منها وما يُعاب^(٢٣).

ومادام أننا عرفنا هدف أعدائنا بصورة عامة، ووقفنا على حقيقة بعض مواقف المخدوعين بهم: فإنه لحرِّي بنا أن نعرف بعض تفاصيل خططهم ووسائلهم التي منها:

(١) التربية والتعليم :

العلم كما يقال - صلاح ذو حدّين، ومن هذا المنطلق أدرك أعداء الله من جميع الكفار أن صخرة العقيدة الإسلامية لا يمكن النيل منها عن طريق القوة والسلاح فهي قد أدمتهم كثيراً، ولا يستطيعون الصمود أمام هتاف المجاهدين الصادقين في سبيل الله، ولذلك لجأوا إلى وسيلة أخرى هي أنخبث في التأثير وأشد في الدهاء. وهذه الوسيلة هي غزو مناهج التربية والتعليم في العالم الإسلامي بأفكار ونظريات وشبهات وشكوك يضيفي عليها - كذباً وبهتاناً - ثوب التجرد العلمي، والبحث العلمي!! وسلك أعداء الإسلام في هذا سبيلين:

الأول: السيطرة على التعليم في الداخل.

والثاني: عن طريق الابتعاث إلى الدول الكافرة.

فأما الأمر الأول فيقول عنه القس زويمر - الذي أوردنا صدر كلمته سابقاً - : (.. لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة أو التي تخضع للنفوذ المسيحي أو التي يحكمها المسيحيون حكماً مباشراً، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي

(٢٣) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»: (ج٢/٢٢٩)، طبعة بيروت، والفكر الإسلامي، لغازي التوبة: (ص١٠٤).

والكنائس والجمعيات وفي المدارس الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية وفي مراكز كثيرة ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولاً وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج، وهي من أخطر ما عرف البشر في حياته الإنسانية كلها. إنكم أعددتكم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد "إخراج المسلم من الإسلام" إنكم أعددتكم نشأاً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي: جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أرادته له الاستعمار، لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع جمعاً للشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات وجود بكل شيء (٢٤).

أجل صدق هذا القس وهو كافر أن هناك جيلاً تربي على ثقافة الغرب فخرج لا يعرف الصلة بالله أبداً.

وأنطلاقاً من مبدأ هذا الصليبي الحاقد قام "اللورد كرومر" - المعتمد البريطاني في مصر أيام الاحتلال - بإنشاء كلية فكتوريا حيث قصد بها تربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط انجليزي ليكونوا من بعدهم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شؤون المسلمين (٢٥).

وجاء "دنلوب" المتخرج من كلية اللاهوت البريطانية ليرسم سياسة التعليم في مصر، حيث وضع مناهج كفيفة بإخراج النماذج التي عناها القس زويمر "لا تعرف الصلة بالله".

ومصادق ذلك أن درس الدين لا يدرس منه إلا تنف يسيرة مثل: إن الإسلام جاء ليبطل عبادة الأوثان ويعبد الله الواحد، ويحرم واد البنات. وأستاذ

(٢٤) - جذور البلاء: (ص ٢٧٦).

(٢٥) - الإسلام والحضارة الغربية: للدكتور محمد محمد حسين: (ص ٤٦).

هذه المادة يختار من أسن الأساتذة وبمظهر رث، ثم تلغى مادة الدين في نهاية العام الدراسي^(٢٦).

أما مادة التاريخ فكان يخفى على الطالب فيها: أن الإسلام جاء ليحارب الشرك بكل مظاهره ويعطي نبذاً عن دراسة صدر الإسلام، وأن مهمة الإسلام تغيير ما كان عليه العرب في جاهليتهم ويركز فيه أيضاً على الجانب السياسي والصراع بين الطبقات الحاكمة. أما حياة المجتمع الإسلامي فلا شيء يذكر من ذلك.

وكذلك البطولات الإسلامية والحركة العلمية الإسلامية. كل ذلك يخفى عن الطلاب في الوقت الذي يدرس فيه بتوسع تاريخ أوروبا ونهضتها ورجالها وأبطالها وأنها بلد التقدم والرفي ومهبط المدنية لأن فيها فحماً وحديداً!!^(٢٧).

وخلاصة القول أنه كان يلحق الطلاب أن أوروبا هي العملاق الضخم الذي لا يقهر. والإسلام هو القزم الضئيل الذي عليه أن يتعبد هذا العملاق ليعيش^(٢٨).

وأما السيل الثاني: وهو الابتعاث إلى الخارج أي إلى الدول الكافرة فقد حقق هذا نتائج ترضي من خطط لها. ذلك أن هذا الابتعاث - في الغالبية العظمى منه - يكسر صفة التميز بين المسلم والكافر، ويجعل ولأء المسلم متذبذباً وهو يرى ما بُهر به، ثم إنه يزيد الطالب جهالة بدينه وقيمه ومثله، ويزيده تعلقاً بالغرب أو الشرق ويبدأ بتطبيع بطابع غير إسلامي، ثم يصير هذا التطبيع

(٢٦) انظر «هل نحن مسلمون؟» (ص ١٣٦ - ١٣٨)، ومذكرات المذاهب الفكرية المعاصرة، للأستاذ محمد قطب لطلاب، السنة المنهجية بالدراسات العليا في كلية الشريعة.

(٢٧) انظر المصدرين السابقين.

(٢٨) «هل نحن مسلمون؟» (ص ١٤١).

- مع الزمن - طبعاً، ثم أنسلاخاً من حيث يشعر الطالب أو لا يشعر فتجده في لبسه ومأكله ومشربه وكلامه وطريقة تعامله، غريباً، أو شرقياً بل ربما أكثر من ذلك^(٢٩).

وكان من أوائل المبتعثين وأولهم سبقاً في خدمة ما أريد له: رفاعة الطهطاوي حيث مكث في فرنسا خمس سنوات من ١٨٢٦ - ١٨٣١م ولما رجع بدأ ينشر كلاماً يسمع للمرة الأولى في البيئة الإسلامية مثل: الوطن والوطنية والاهتمام بالتاريخ القديم ليدعم به المفهوم الوطني الجديد، ثم يتحدث عن الحرية وأنها سبيل التقدم وكذلك طالب بتقنين الشريعة على نمط المدونات القانونية الأوروبية، ثم يتحدث بكلام كثير وطويل عن المرأة. كتعليمها ومنع تعدد الزوجات وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين^(٣٠).

وخلاصة ما يزيده أعداء الإسلام في قضية التربية والتعليم هو ما قاله المستشرق "جب" في كتابه "وجهة الإسلام" حيث قال:

(.. والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب "أو الفرنجة" هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادئ الغربية، وعلى التفكير الغربي.. هذا هو السبيل الوحيد، ولا سبيل غيره، وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين، وقليل من الزعماء الدينيين)^(٣١).

إن العالم الإسلامي كله اليوم يسير في تعليمه وتربيته العلمية على النهج الغربي والشرقي بدليل أن كل الجامعات - مثلاً - تدرس نظرية فرويد في

(٢٩) انظر «أساليب الغزو الفكري» للدكتور علي جريشة وزميله: (ص ٦٤ - ٦٥).

(٣٠) يراجع في هذا بتوسع كتاب «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين: (ص ١٧ - ٣٠).

(٣١) عن «الاتجاهات الوطنية»: (ج ٢/٢١٧)، الطبعة الثالثة.

البحوث النفسية، ونظرية دوركايم في علم الاجتماع، ونظرية ماركس الاشتراكية والشيوعية، ونظرية فريزر في علم مقارنة الأديان.

وينادى بإحياء الجاهليات التي سمّاها الله في كتابه وسنة رسوله جاهلية: تدرس على أنها حضارة راقية ضاربة في أعماق التاريخ أكثر من سبعة آلاف سنة!!

وكذلك التغني بأمجاد أوروبا ومعرفة "أبطال" حضارتها، وفصل الدين عن الدولة، وأن الدين علاقة بين العبد وربّه ولا دخل له في شؤون الحياة.. كل ذلك كان ثماراً طبيعية للغزو الثقافي^(٣٢).

وأخيراً: فإن هذه المناهج التعليمية قد جردت المسلم من ولائه لله ورسوله ودينه وإخوانه المؤمنين ومحت عداوته لأعداء الله، فنشأ جيل لا يعرف الصلة بالله، ولا يقيم ولائه وانتماءه على أساس عقيدته بل على ما تعلمه وانتسب إليه من المذاهب والانتماءات الجاهلية.

صورة من صور الولاء الفكري المعاصر

وتستوقفني هنا صورة واحدة أجد أن ذكرها هنا ذو أهمية بالغة ذلك أن هذه الصورة يظهر فيها بوضوح حب التبعية للغرب، مع الاعتزاز والفخر بالتعليم العلماني والمطالبة - وبالبحاح شديد - بعودته - إن كان قد فقد - وإلا ففتح الأبواب له على مصارعها إذا كان مضيقاً عليه.

كتب رئيس تحرير جريدة يومية مقالاً طويلاً بعنوان "الإنسان العربي ومعضلة التعليم"، وجاء هذا المقال في صفحتين كاملتين من الجريدة هما الصفحة الثانية والثالثة.

(٣٢) حبذا الاطلاع بتوسع على رسالة العلمانية وأثرها في العالم الإسلامي، للأستاذ سفر بن عبد الرحمن الحوالي.

واليك مقتطفات من هذا المقال لترى فيه الصورة الصادقة للولاء والتبعية
لأعداء الله.

قال الكاتب:

(إن التعليم في البلاد العربية ارتبط بأسلوبين مختلفين: الأول: المنهج الذي وضعه دنلوب باشا البريطاني ناظر المعارف في مصر، والذي انعكست آثاره على بقية الرقعة العربية من خلال الاتفاقيات الثقافية الثنائية أو الجماعية ويقوم هذا المنهج التعليمي على إبطال القدرة على التفكير "وتفريخ" العديد من الكتبة الذين يؤدون وظائف روتينية لا تحتاج إلى أكثر من معرفة متقنة لقواعد القراءة والكتابة.. وبمنظرة مجردة نجد أن غالبية المتعلمين في بلادنا ينتمون إلى هذه المدرسة) .

وصدق الكاتب في أكثر ما قاله هنا وإن كان أعترضنا على منهج دنلوب لا يقتصر على هذه النقطة إنما ينصب ابتداء على نقطة أخطر منها بكثير هي تخريج أجيال من المسلمين لا تعرف حقيقة الإسلام بل تتجه إلى الانسلاخ من الإسلام والارتقاء في تبعية ذليلة للغرب. ثم تابع معي ما يقول:

والأسلوب الثاني في التعليم داخل الوطن العربي. بريطاني أيضاً، ويهدف هذا الأسلوب - على خلاف الأول - إلى خلق مجموعات بشرية تمتلك القدرة على التفكير السليم بالأنماط الغربية!!

وتجسد هذا الأسلوب في مدرستي كلية فكتوريا في الإسكندرية والقاهرة.. وعلى خلاف ما قيل عن هذه المدارس التي أثهمت بالتربية الاستعمارية أو الأدوار التبشيرية فإن الأدلة الدامغة تثبت أن معظم مفكري أبناء الأمة العربية الذين تلقوا تعليمهم الأولي والثانوي داخل منطقة الشرق الأوسط ينتمون إلى إحدى هاتين المدرستين ذلك لأن النظام التعليمي بهما يعتمد على أسلوب البحث العلمي! الذي ينمي في الطفل والشاب طوال

مدارج التعليم: القدرة على التفكير السليم وإيجاد العلاقات بين الظواهر المختلفة.

وتتضح جدية هذا الدور التعليمي من واقع المناهج الدراسية المقررة التي كانت هي ذات المناهج المقررة على الطلبة البريطانيين بأسلوب اكسفورد وكامبردج في مراحل التعليم العام، المبدئي والإعدادي والثانوي.. فالباعث الحقيقي لوضع هذا الأسلوب التربوي والتعليمي من خلال فكتوريا الأسكندرية والقاهرة كان يهدف إلى إيجاد مجموعات من أبناء البلاد العربية، بمستوى ثقافي قادر على التفاهم، والتعامل مع الغرب في مواطن المعرفة العلمية، التي تربط بينهم بأسلوب المخاطبة المتعارف عليها!

وأستطاع بالفعل أبناء الأمة العربية المتخرجون من هاتين المدرستين حتى بعد تلقيهم التعليم الجامعي سواء في بريطانيا أو أمريكا أو حتى داخل الوطن العربي أن يقوموا بأدوار واضحة في خدمة مصالح بلادهم من المواقع المختلفة نتيجة توافر القدرة لديهم في مخاطبة الغرب بالأسلوب العلمي المقبول والمفهوم نتيجة انسجام منطق التفكير عندهم مع المعطيات الحضارية المعاصرة!.

ثم تحدث الكاتب - وهو يؤدي دوره - عن الصراع بين مدرسة فكتوريا ومدرسة دنلوب وعن الرابطة التي جمعت بين خريجي كلية فكتوريا ثم قال إن هذه الرابطة ألغيت ولكن مع هذا الإلغاء "ظل الترابط والود" قائماً بين هؤلاء الخريجين، حتى قامت رابطتهم الجديدة المنظمة بشكل دقيق في العاصمة البريطانية لندن. ولقد أقيم هذا الاحتفال الجديد في يوم الجمعة ٤ مايو سنة ١٩٧٩م.

وبعد هذا تساءل الكاتب: لماذا ألغيت هذه الكلية مع أن مدرسة دنلوب لا تزال قائمة؟ ثم تحدث عن البديل للمناهج الهزيلة التي تدرس الآن فقال: (وبفض النظر عن تعاطفي الشخصي مع كلية فكتوريا كمدرسة أجنبية وجدت على التراب العربي، تشرفت بالانتماء إليها: فإنني أجد أن الإسراع

في فتحها الآن بالأنماط التعليمية التي كانت تمارسها من المنابع الفكرية السائدة في اكسفورد وكامبردج كقيلة بأن تمثل أولى الخطوات السليمة على الخط العلمي الذي نهدف إليه... ومن الممكن التوسع في فتح المدارس الأجنبية المختلفة البعيدة عن السمات التبشيرية وهي كثيرة وكقيلة بإخراج أنماط متعددة من التفكير العلمي السليم الذي يلتقي مع غيره من أنماط علمية سليمة أخرى، ليؤدي التفاعل بينها إلى خلق القدرة العريية في الوصول إلى أسلوب المخاطبة مع الغرب، والتعبير عن مصالحنا وأهدافنا القومية (٣٣).

إنني أعتقد أن هذه الفقرات التي أوردتها كافية في الدلالة على صدق صورة هذه الموالاة للغرب، وهي صادقة أيضاً في براء هذا الفكر من الفكر الإسلامي السليم.

فالكاتب لا يرى في الإسلام بديلاً صالحاً للمناهج الهزيلة التي تدرس الآن في العالم الإسلامي، لأنه غير مقتنع بصلاحية الإسلام، الذي يربي المؤمنين على العقيدة الإسلامية الصحيحة وعلى الولاء الخالص الصادق لهذه العقيدة. مع البراء من كل دخیل عليها، والشعور بالاعتزاز بهذه المكرمة الربانية التي لا يستحق هذا الكتاب وأمثاله أن يتحلوا بها. لأنها لا تكون إلا لمؤمنين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وليست لمجموعة من "أفراخ" التعليم الغربي الكافر.

فهل وعى ذو الحجى منا خطورة هؤلاء التلاميذ الذين ينشرون هذا الكلام في صحفنا ويضعون مناهج التعليم في بلادنا؟
اللهم بلغت اللهم فأشهد.

(٢) وسائل الإعلام :

لوسائل الإعلام - الكتاب، القصة، الإذاعة، التلفزيون، المجلة، الجريدة

(٣٣) جريدة عكاظ، العدد الأسبوعي، رقم ٤٧٢٨، بتاريخ: ١٣٩٩/٦/١٦هـ.

السينما وأخيراً الفيديو - أثر كبير وخطير على جميع طبقات المجتمع وقد أدرك أعداء الإسلام خطورة الوسائل وما لها من تأثير عميق فأحكموا قبضتهم عليها، وبثوا من خلالها ما رسموه لإفساد المسلمين وإخراجهم من إسلامهم.

وجميع هذه الوسائل تحرص - وبكل ما أوتيت - على فسخ وخلق ولاء المسلم لدينه وإخوانه المؤمنين وتركز بكل قوة على تذويب تميز المسلم عن غيره، وعلى زعزعة برائه وعداوته للكفار، حيث تحسن للناس: أن البلاد الصناعية هي بلاد الحرية وبلاد التقدم وبلاد العلم والرفي والمدنية وأن الذي يشعر أو يدين بالعداوة الدينية لهذه الشعوب العظيمة هو إنسان لم يعرف روح العصر وروح العلم الذي مزق الحواجز بين الأجناس ووصل القارات وجعل الناس إخوة في الشرق والغرب!! وهي البلاد التي يستطيع الإنسان فيها أن يمارس ما يشاء وكيف شاء!!

ولقد قامت وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية - ولا تزال تقوم - بحرب شعواء على الدين الإسلامي وعلى المسلمين فضلاً عن أنها تحسن وتدعو إلى موالاة الكفار: هي أيضاً حريصة على نشر الفاحشة في الدين آمنوا.

والمتتبع للصحف الصادرة في أوائل هذا القرن الميلادي يجد فيها صورة صادقة لما نقول فصحيفة المقطم - مثلاً - تجدها موالية للإنجليز، تعمل لحسابهم، وتصور أفعالهم بأنها أفعال إنسانية، حيث أنهم - أي الإنجليز - لم يقيموا في مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل، وإليهم وحدهم يرجع الفضل في إنقاذ مصر من كل ما أصابها!! وكذلك كانت مجلة المقتطف تلور كتابتها وآراؤها حول هذا الموضوع^(٣٤).

وقد عملت هذه الصحف والمجلات المأجورة على إماتة الجهاد

(٣٤) انظر بتوسع والاتجاهات الوطنية: (ج ١/٩٠ - ١١٣).

بمفهومه الإسلامي الصحيح، وتردد ما يقوله أسياها من أن المسلمين أناس همج يحبون الحروب وسفك الدماء، ولا تتسع صدورهم للتسامح "لأنهم متعصبون"!!

فإذا أرادوا الخروج من هذه الرصمة فعليهم بالتسامح والتعجب للآخرين وتغيير النظرة إليهم، ويجب عليهم أن يראوا من ذلك "التراث" الذي يعمق تلك الروح المتعصبة في نفوسهم^(٣٥)!

وكذلك كانت مجلة الهلال والمقتطف تعملان على (تطوير الفكر الإسلامي وإشرا به الروح العلمانية التحررية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر)^(٣٦).

ومن المهام التي عنت بها وسائل الإعلام: إشاعة الفاحشة، والإغراء بالجريمة، والسعي بالفساد في الأرض لخلخلة العقيدة وتحطيم الأخلاق وإذا انهدم الركنان الأساسيان - وهما العقيدة والأخلاق - فكيف يرجى بعد ذلك قيام بناء سليم^(٣٧)؟

وإذا كان هذا هو تأثير وسائل الإعلام بوجه عام، فكيف إذا علمنا أن معظم القائمين على هذه الصحف والمجلات، أناس كفار، قد ملكت صدورهم حقداً وكراهية لهذا الدين، وأمتلأت نفوسهم غيظاً من شدة ما يرون من تأثير هذا الدين، وما تصنعه هذه العقيدة.

وهؤلاء كثير. منهم على سبيل المثال لا الحصر: جورجى زيدان مزيف التاريخ وهو صاحب دار الهلال وسليم تقلا مؤسس جريدة الأهرام، ويعقوب وفؤاد صروف صاحبها المقتطف.

(٣٥) انظر المصدر السابق: (ج١/١١٢).

(٣٦) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص٦٠).

(٣٧) انظر «أساليب الغزو الفكري»: (ص٧١)، الطبعة الثانية.

وهذه الوسائل قد قامت بمحاربة الله في الأرض، تريد أن تحلل ما حرم الله، وتحرم ما أحل الله، فنصبت نفسها طاغوتاً يعبد من دون الله.

ومصدق ذلك: أن الصحافة المأجورة أيام تأسيسها في مصر ظلت تكتب عن مشكلة البغاء ثلاثين سنة، وكذلك عن مشكلة المرأة واختلاطها بالرجال، وتحطيم هبة الدين ووصمه بالرجعية والجمود والتقاليد البالية، وأنه لم يعد صالحاً لمواكبة العصر، كما قال ذلك الصحافي المأجور "هيكل" حين قال: (إن التقدم التكنولوجي قد أحال أقدم الكتب الدينية - أي القرآن - إلى أوراق صفراء تحفظ في المتاحف)^(٣٨). بل تعدت وسائل الإعلام المأجورة من قبل أعداء الإسلام على الألوهية. فقال نجيب محفوظ في إحدى قصصه إن الله قد مات^(٣٩) ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾.

أما عن قضية حجاب المرأة المسلمة فهذا شيء هاجت له جميع وسائل الإعلام ولا تزال وأول من قاد هذه الدعوة المحمومة قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» ونادى بالمرأة المصرية أن تجاري أختها الأوروبية في كل شيء، ومن ثمار هذه الدعوة من سميت أمينة وهي ليست أمينة، إنها أمينة السعيد التي قالت وهي تهاجم الحجاب: (عجبت لفتيات مثقفات كيف يلبسن أكفان الموتى وهن على قيد الحياة)، وقبلها كانت «الزعيمة» هدى شعراوي وصفية زغلول، وغيرهما من اللاتي أحرقن الحجاب في ميدان الإسماعيلية الذي سمي بعد ذلك «ميدان التحرير»^(٤٠)!

وخلاصة ما يمكن أن نقوله عن وسائل الإعلام ومن يخطط لها: إنها قلبت المنكر معروفاً وأمرت به، وقلبت المعروف منكراً ونهت عنه.

(٣٨) نقلاً عن «مذكرة المذاهب الفكرية» للأستاذ محمد قطب.

(٣٩) انظر المصدر السابق.

(٤٠) راجع كتب الدكتور الأستاذ محمد محمد حسين «الاتجاهات الوطنية»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، و«حصوننا مهددة من داخلها».

ومن يراجع بروتوكولات حكماء صهيون يجد مصداق ما ذكرنا كله حرفاً بحرف بل وأكثر من ذلك، وإليك هذا النص الصريح من نفس البروتوكولات.

جاء في البروتوكول الثالث عشر ما نصه: (ولكي نبعد الجماهير من الأمم غير اليهودية عن أن تكشف بنفسها أي خط عمل جديد لنا سنلهمها بأنواع شتى من الملاهي والألعاب وهلم جرّاً.

وسرعان ما سنبداً الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتى من كل أنواع المشروعات كالقن والرياضة وما إليها.

إن هذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتماً عن المسائل التي سنختلف فيها معه وحالما يفقد الشعب تدريجياً نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعاً معنا لسبب واحد هو: إننا سنكون أعضاء المجتمع الوحيد بين الذين يكونون أهلاً لتقديم خطوط تفكير جديدة.

وهذه الخطوط سنقدمها متوسلين بتسخير آلاتنا وحدها، من أمثال الأشخاص الذين لا يستطيع الشك في تحالفهم معنا.

إن دور المثاليين المتحررين سينتهي حالما يعترف بحكومتنا وسيؤدون لنا خدمة طيبة حتى يحين ذلك الوقت، ولهذا السبب سنحاول أن نوجه العقل العام نحو كل نوع من النظريات المبهجة التي يمكن أن تبدو تقدمية أو تحررية.

لقد كان نجاحنا نجاحاً كاملاً بنظرياتنا على التقدم في تحويل رؤوس الأميين الفارغة من العقل نحو الاشتراكية. ولا يوجد عقل واحد بين الأميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة «التقدم» يختفي ضلال وزيف عن الحق»^(٤١).

(٤١) «بروتوكولات حكماء صهيون»: (ص ١٦٨)، ترجمة محمد خليفة التونسي، الطبعة الرابعة، وانظر «مكائد يهودية» للميداني: (ص ٣٤٦).

وأحسب أن كل عاقل سيفقد بروية عند قولهم (وحالما يفقد الشعب تدريجياً نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعاً معنا.. إلخ).

ولكن مع هذا أيضاً نقول: إن هذا الغزو الفكري مهما كان من الشراسة والحنكة والتخطيط مع الدقة وضبط التوقيت المناسب للمادة المناسبة مع هذا كله فإن المسلمين أو أكثر المحسوسين على الإسلام قد أسهموا في عمل هذه الوسائل الخبيثة لأنهم ابتعدوا عن دينهم وتخلوا عن مفاهيم عقيدتهم والله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

٣ - نشر كتب المستشرقين

لئن كانت حركة الترجمة الأولى قد صاحبها من الانحرافات ما سبقت الإشارة إليه، فإن حركة الترجمة المعاصرة أشد خبثاً من سابقتها وأكثر إفساداً منها.

ذلك أن الترجمة الحديثة لم تكن في غالب الأحوال عن طريق غير المسلمين فحسب، بل اتجهت إلى ترجمة كتب المستشرقين الحاقدين الذين قاموا بأعمال فكرية كثيرة هدفها الأساسي تشويه مصادر التلقي عند المسلمين وتكديرها بالأفكار المغرضة والدسائس الحاقدة. لينشأ جيل إسلامي مفصول العرى عن دينه وأمنته، يتخذ من الطرائق الغريبة في التفكير والبحث قبلته الوحيدة، ولا يشعر بالانتماء للإسلام ديناً ومنهجاً وحضارة.

وكتابة المستشرقين تتفق في معظمها على أسلوب واحد. هو: إنها دراسات موجهة من قبل المستشرقين أنفسهم ومن قبل من يمولهم في عملهم فهي ليست دراسات علمية يقصد بها وجه العلم، يدل على ذلك قول «سمث» في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» في الفصل الثالث الذي تكلم فيه عن العرب: (إن الإسلام كان عاملاً أساسياً وسبباً مهماً من أسباب وجود الهوة التي تفصل بين الغرب والعرب) ثم يقول: (لقد أصبح من

الحقائق الجديدة في مدينتنا العصرية أن من الواجب سدّ هذه الثغرات ببناء قنطرة فوق مثل هذه الهوة، وخلق الأسباب الموصلة للتفاهم والتواصل.. وخلق مثل هذا التفاهم بين المدينيات المختلفة والأديان المتباينة يتطلب جهوداً مبتكرة لا يتوصل إليها إلا بصعوبة^(٤٢).

(ولقد قام المستشرقون بجهود كبيرة تمثلت في إحياء بعض النصوص والمخطوطات الإسلامية وكان لهم في ذلك طرق منظمة إلى حدّ ما، ولهم أيضاً في ذلك أخطاء كثيرة في فهم النصوص وتفسير الأحداث، ولكن مع كل ذلك فليست العبرة بالجهد الذي بذل وإنما العبرة بالهدف الذي بذل هذا الجهد من أجله هل كان هذا الهدف هو «خدمة» الإسلام أم تشويه الإسلام وتلوّث صورته في النفوس؟^(٤٣)).

ويدّعي المستشرقون في كل ما يكتبون الروح العلمية أو الروح المتجردة! وغير ذلك من الشعارات التي تكذبها كتابة المستشرقين أنفسهم، ودليل ذلك أن مرجليوث — وهو من أئمتهم — يقول في فصل له منشور في موسوعة «تاريخ العالم» أن محمداً ﷺ رجل مجهول النسب لأنه محمد «بن عبد الله» وقد كان العرب يطلقون على من لا يعرفون نسبه اسم عبد الله!!!

أوليس منبع هذا: هو الحقد الصليبي لا الروح العلمية المتجردة؟

أوليس دافع هذا: التشكيك في الحقائق المسلمة البديهية؟

كيف يقال هذا الكلام ورسول الله ﷺ من قوم لا تعرف شيئاً كما تعرف الأنساب ولا تعتز بشيء كاعتزازها بالأنساب؟

أي سخف وأي تفاهة في هذا التفكير الاستشراقي الخبيث؟^(٤٤).

(٤٢) (ص ١٠٢ — ١٠٣) نقلاً عن «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ١٠٩).

(٤٣) «هل نحن مسلمون»: (ص ١٧٤) بتصرف بسيط.

(٤٤) انظر المصدر السابق: (ص ١٧٢).

وماذا ينتظر من هؤلاء وواحد من زعمائهم «جولد تسيهر» يقول في كتابه «العقيدة والشرعة» إن النظام الفقهي الإسلامي الدقيق مستمد من «القانون الروماني» ونظامه السياسي متأثر بالنظريات السياسية الفارسية، وتصوفه يمثل الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة!!!^(٤٥).

ولو أردنا تتبع الأمثلة لطال الحديث في ذلك.

ولكننا نقول: مادام هؤلاء الناس بهذه الروح الحاقدة والنية السيئة والفعل الخبيث. سلاحهم التشكيك، وديدنهم الكذب والتزوير وطابعهم الحقد الصليبي القديم، ماداموا كذلك فما هو — يا ترى — قيمة كل ما كتبوه؟ وماذا يرتجى من تلاميذهم الذين ينظرون إليهم بروح الإجلال والإكبار وأنهم هم أساطين البحث العلمي المتجرد؟

إن كثيراً من تلاميذهم يستطيع أن يغالط نفسه وغيره ممن هو على شاكلته كثيراً ولكنه لا يستطيع أن ينكر واقعاً مشهوداً في حياة المستشرقين أنفسهم غير ما ذكرنا من الأمثلة السابقة.

ذلك أن الطلاب المبتعثين للدراسة على أيدي المستشرقين لابد أن يختاروا بحوثهم العلمية على ما يريده لهم أساتذتهم. فإن لم يكن كذلك وأعطى الطالب حرية الاختيار فلا بد أن تكون الكتابة في أي موضوع خاضعة لما يملكه هذا المستشرق وما يصبو إليه من الطعن في الإسلام شريعة وعقيدة ونظام حياة. خاصة إذا كان البحث في «قضايا الإسلام».

وخير مثال على ذلك ما ذكره الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله حيث قال: (حدثني البروفسور «اندرسون» نفسه أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا نوال شهادة الدكتوراة في التشريع الإسلامي

(٤٥) المصدر السابق: (ص ١٧٦).

من جامعة لندن، لسبب واحد هو أنه قدم أطروحته عن حقوق المرأة في الإسلام، وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة، فعجبت من ذلك، وسألت هذا المستشرق: وكيف أسقطته ومنعته من نوال الدكتوراة لهذا السبب، وأنتم تدعون حرية الفكر في جامعاتكم؟

قال: لأنه يقول: الإسلام يمنع المرأة كذا والإسلام قرر للمرأة كذا، فهل هو ناطق رسمي باسم الإسلام؟! (٤٦)

لقد أحدثت كتب المستشرقين زعزعة كبيرة في نفوس ضعاف الإيمان، فخرج من هذه المدرسة التشكيكية أجيال تولت القيادات الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي وأخذت تردد كالبيغاء ما أملاه عليها أساتذتها «العلماء».

ولقد كان من أهم أهداف المستشرقين وتلاميذهم الطعن في سنة رسول الله ﷺ ومحاولة النيل منها. ومصدق ذلك أن أحد هؤلاء التلاميذ وهو الدكتور علي حسن عبد القادر قال لتلاميذه بعد أن رجع «دكتوراً» إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي ولكن على طريقة علمية لا عهد للأزهر بها، وإني أعتزف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً فلم أفهم الإسلام ولكنني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا (٤٧)!! قال الأستاذ السباعي رحمه الله: ثم تبين لنا فيما بعد أنه يميل علينا ترجمة حرفية لكتاب «جولد تسير» دراسات إسلامية!! (٤٨).

أما أكثر ما يعتمدون عليه في الطعن في السنة من غير الشبه والشكوك فهو حكاية عرض الحديث على «العقل» وهي حكاية قديمة نادى بها المعتزلة،

(٤٦) «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»: (ص ١٣)، الطبعة الثانية، وذكر أيضاً — رحمه الله — أمثلة كثيرة حول هذا الموضوع فليراجعها من شاء في ذلك الكتاب القيم.

(٤٧) «السنة» للسباعي: (ص ١٩).

(٤٨) نفس المصدر: (ص ١٩).

وتبعهم عليها المستشرقون وتلاميذهم أمثال أحمد أمين وأبي رية وغيرهم كثير. وللمستشرقين أيضاً كتابات أخرى دس فيها السم بالعسل وذلك أنهم يصدرون كتاباتهم بقليل من المدح للإسلام وأنه فعل كذا وكذا.. إلخ، وهم يهدفون من وراء ذلك إلى كسب ثقة القارئ، ثم يبدأون بنفث الحقد الدفين في نفسه بأن يشككوا في العقيدة والشريعة ويوردوا سيلاً من الشبه التافهة من أجل زعزعة ثقة المسلم بدينه^(٤٩) تحقيقاً لقوله تعالى:

وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا
بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ۖ ءَاخِرُهُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة آل عمران: ٧٢].

وبما لا شك فيه أن هناك أموالاً وحكومات وراء نشر كتب المستشرقين في العالم الإسلامي لأن هذا الغزو يحقق لأعداء الإسلام ما لم يحققه لهم الغزو العسكري.

على أنه من المهم أن نقول هنا: إن تخلي المسلمين عن منهجهم العلمي بعد تخليهم عن مفاهيم العقيدة الصحيحة وترك منهج المحدثين الذي هو أعظم منهج علمي وضع في تاريخ البشرية سبب مباشر يقف إلى جانب كيد المستشرقين في ازدياد هوة هذا الانحراف الذي وقع في حياة المسلمين.

وخلاصة القول: إن كل من تأثر بالمستشرقين - فكرياً ومنهجاً - لا يمكن أن يكون ولاؤه لدينه وأمته صافياً صادقاً كما أن براءه لن يكون وفق التصور الإسلامي الصحيح.

(٤٩) الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين جزاه الله خيراً تتبع مزيداً من هذه البحوث في كتابه الإسلام والحضارة الغربية، خاصة في الفصول الرابع والخامس والسادس، فراجع.

(٤) المذاهب اللادينية :

إن من أخطر ما واجه المسلمين في عصرهم الحاضر انتشار المذاهب اللادينية بينهم، حيث أريد لهذه المذاهب الهدامة أن تمحو شريعة الله من الأرض وتقضيها من واقع حياة المسلمين. وتشتت ولاء المسلمين الواحد إلى ولاءات جاهلية متعددة، فإذا أنتزع ولاء المسلم لدينه سهل حينئذ تقبله لأي فكر، ورضي بأي وضع يعيش فيه مهما كان في ذلك من التبعة والانهمام.

من هنا عمل أعداء الإسلام على بث هذه المذاهب مستخدمين لذلك وسيلتين:

(١) الهجوم الشرس على العقيدة الإسلامية والشريعة ورميها بأحط ما وضعوا من عبارات مسفة كقولهم إن الشريعة الإسلامية شريعة بربرية تشوه يد السارق، وترتكب جريمة فظيعة برجم الزاني المحصن ولا تسائر روح العصر الذي سيطرت عليه المعارف "التكنولوجية" بل ليس في الإسلام مواد قانونية تنظم حياة الناس.. إلى آخر ذلك الهراء.

(٢) إضفاء صبغة البهجة الكاذبة، والدعاية لتلك المذاهب الهدامة ووصفها بأنها هي علامة التقدم ومسيرة الركب الحضاري العالمي، وهي التي تعطي الناس الحرية في كل شيء. وهي مذاهب لا تقيد الإنسان بدين معين، بل يأخذ ما يريد ويدع ما لا يريد مذاهب تخلو من التزمت وضيق الأفق.. إلى آخر ما هنالك مما يقال.

ولقد وقع كثير من المنتسبين للإسلام فريسة لهذا الغزو الفكري الماكر ولا أريد هنا أن أدخل في قضية الردود على كل جزئية فإن ذلك ليس من منهج هذا البحث، كما قد أشرت إلى ذلك سابقاً وصدق القائل:

لو كل كلب عوى ألقننه حجراً
لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

ثم إننا لم نعد بحاجة كبيرة لتتبع الرد على شبهات الأعداء وقولهم إن هذا العصر لم يعد بحاجة إلى الدين، لأن هذا كلام يكذبه واقعهم هم، بدليل ما نشاهده اليوم في البلاد الكافرة كأمریکا وأوروبا من حالة الضياع والانتحار والقتل وفضائح الجريمة والخواء الروحي. وبحثنهم عما يشبع جوعهم الروحي الذي لا يملأه إلا الإسلام.

وأما ما يتعلق بيهجرة مذاهبهم الإلحادية فأكبر مثال يكذبها عندهم هم هو فشلها في بلادهم.

ثم ما كتبه مفكروهم عن تدهور الحضارة الغربية، حيث ذكروا أنها في طريقها إلى الزوال وهذا أمر ثابت لا يحتاج إلى جدال. فإن كل بناء قام على غير ما شرع الله، مصيره الزوال والدمار كما قال تعالى:

فَلَمَّا

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

[سورة الأنعام: ٤٤].

وأوروبا اليوم قد فُتح عليها كل شيء في العلم المادي والتقدم الصناعي والسياسة والمال والاقتصاد وغير ذلك، ولكنها مع هذا كله في طريقها للزوال وفق سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول.

هذا وبالرغم من أنني سأعطي فكرة موجزة عن هدف كل مذهب يتعلق بيحثني إلا أنني أبادر إلى القول بأن الهدف الأول والأخير من كل هذه المذاهب الكافرة هو: إخراج المسلم من إسلامه وقطع ولاء المسلم بربه

ودينه وإخوانه المؤمنين، ثم العودة إلى روح الجاهلية التي تتمثل في الطاعة والانقياد والخضوع لهذه المذاهب الكافرة ولطواغيتها الذين يخططون لها. والعودة أيضاً بالمسلمين إلى جاهلية العرق والنسب والتراب وسائر أنواع التن التي أمر الله المسلمين بتركها لأنها تنقض عرى الإسلام عروة عروة. وهذا الهدف تنفق عليه كل المذاهب الكافرة بأتجاهاتها المختلفة وأتسماءاتها المتنوعة ولكنني - وأنا أكتب عن عقيدة الولاء والبراء - سأقتصر على تلك المذاهب التي تبدو فيها صورة منافاتها لهذه العقيدة واضحة جلية، وتناقضها معها أمراً ظاهراً.

ومن ذلك القومية والوطنية، اللتان تحصران الولاء في دائرة الجنس أو التراب فيلتقي فيها مثلاً اليهودي العربي والنصراني العربي والمشرک العربي، والبعث العربي مع المسلم العربي لأن رابطة القومية تجمعهم!! وهذا أمر يرفضه الدين الحنيف لأن الرابطة فيه هي رابطة العقيدة، فضلاً عن أن الوطنية والقومية ضيقنا دائرة الولاء.

إن العالم الإسلامي كان أمة واحدة تظللها راية "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ورغم خط الانحراف الذي يرتفع ويهبط في تاريخ المسلمين إلا أنهم إلى ما يقرب من ثلاثة قرون كانوا يشعرون أنهم أمة واحدة يدينون بدين واحد ويؤمنون بكتاب واحد وستة واحدة ويتحاكمون إلى شريعة واحدة.

ولقد كان المسلم يخرج من طنجة حتى ينتهي به المقام في بغداد لا يحمل معه جنسية قومية أو هوية وطنية وإنما يحمل شعاراً إسلامياً هو كلمة التوحيد، فكلما حل أرضاً وجد فيها له إخوة في الإيمان وإن كانت الألسن مختلفة والألوان متباينة لأن الإسلام أذاب كل تلك الفوارق واعتبرها من شعارات الجاهلية.

ولكنه نتيجة لضعف المسلمين وتمكينهم عدوهم من أنفسهم سهل استعمارهم من قبل أرذل خلق الله. وهم اليهود والنصارى ومن جاء بعدهم كالملاحدة الشيوعيين.

وبعد أن تمكن العدو من السيطرة على أرض الإسلام أخذ يبت سبومه ويغرس في نفوس الضعاف والسذج والعملاء حبه ونصرته وموالاته، وأستحسن ما هو عليه من باطل وكفر، وهنا نُزِعَ الولاء الإسلامي ليحل محله الولاء الجاهلي الكافر.

ومصادق هذا الكلام قول أحد المستشرقين في كتاب «الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته» وهو يتحدث عن أسلوب نزع ولاء المسلمين فيقول: (إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنحصل على تراث الحضارات القديمة قبل الإسلام، ولسنا نعتقد بهذا أن المسلم سترك دينه ولكنه يكفينا منه تذبذب ولائه بين الإسلام وتلك الحضارات) (٥٠).

وهذا الكلام صادق في ذاته، لأن نشوء فكرة إحياء الحضارات والنترات الجاهلية أمر خطير على قضية الولاء، حيث ينشأ من ذلك فساد نكد، ويتبدى الميل والحب - بفعل شياطين الجن والإنس - يكبر تجاه هذه الحضارات ويقل ثم يضمحل الولاء الإسلامي الخالص لله رب العالمين.

وبعد أن كان البراء أمراً ملازماً للولاء تجاه هذه النترات الجاهلية أصبح أمراً لا وجود له - إلا عند من رحم الله - لأن هذه الأفكار كفيلة بغسل فكرة البراء من النفس عند ضعاف الإيمان، أو المغالطة عند البعض بأن هذه الأفكار والمذاهب لا تتعارض مع الإسلام! ويقال: ما الذي يمنع المسلم أن يكون مسلماً وقومياً أو مسلماً علمانياً أو مسلماً اشتراكياً.. إلخ.

ولما أدرك أعداء الإسلام مدى جدوى وقاعدية هذه الفكرة التي تمسخ المسلم حتى يصبح مخلوقاً لا صلة له بالله - كما قالوا - بدأوا يبت فكرة القومية والوطنية، مبتدئين بتركيا مقر آخر خلافة إسلامية، حيث نشأت هناك: القومية الطورانية وتزعم هذه الدعوة حزب «الاتحاد والترقي» فبدأ «بتريك» تركيا،

(٥٠) نقلاً عن «مذكرة المذاهب الفكرية».

وعودة القومية الطورانية متّخذين لذلك شعار: الذئب الأغبر الذي هو معبود الأتراك قبل أن يعرفوا الإسلام.

وبهذا "التريك" أخذت الدولة العثمانية تضغط على العرب، حيث تعطي الأتراك امتيازات خاصة بهم لأنهم ترك! وهذا الفعل فضلاً عن كونه يعارض مبدأ العدل الإسلامي هو أيضاً مؤشر للعرب أن يتحدوا في قومية جديدة! وهذا هو الذي حصل فعلاً.

فلقد قام الجاسوس لورنس - الذي سماه المفلولون - "لورنس العرب" بالتخطيط لقيام ما يسمى بالثورة العربية الكبرى ضد الخلافة العثمانية وانضم العرب إلى جيوش الحلفاء الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ولا يراعون في مسلم عهداً ولا حرمة^(٥١). ومن المضحك المخزي أن يحرك هذه الجيوش العربية هو لورنس العرب!!

فانظر أيها القارئ إلى جيوش عربية تزعم أنها مسلمة وولاؤها لجاسوس غربي كافر اسمه لورنس!!

وبعد انتهاء مهمة هذه الجيوش قال أحد القادة الانجليز - "الليبي" - قولته المشهورة: (الآن) انتهت الحروب الصليبية!! يقصد بذلك أن الحقد الصليبي ظل كامناً في نفوس الصليبيين إلى أن استردوا بيت المقدس^(٥٢).

وأنفصل العرب عن إخوانهم المسلمين في أنحاء المعمورة واعتنقوا القومية العلمانية من أجل تقليد الغرب الذي آمن بها بالأُمس وكفر بها اليوم. وأصبح (كل تجمع أو حتى تضامن أو تقارب على أساس العقيدة والدين مظهراً من مظاهر التخلف والرجعية يجب أن تبرا منه الجماهير لتكون عصرية تقدمية)^(٥٣).

(٥١) «العرب والإسلام» للندي: (ص ٩).

(٥٢) انظر المحاضرة القيّمة: «المخططات الصهيونية» للأستاذ محمد قطب، الطبعة الأولى

سنة ١٣٩٨ هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.

(٥٣) «درس النكبة الثانية» للأستاذ يوسف القرضاوي: (ص ٤٥)، الطبعة الأولى.

ولما آتت كست العرب وعادت إلى نعمة الجاهلية، فقدت روح التضحية والجهاد، وولت وجهها تجاه اليمين واليسار، حيث اليمين له ألوان وضروب من واشتطن إلى باريس إلى لندن واليسار له ألوان أحمر وأصفر وبينهما بعد ما بين موسكو وبكين^(٥٤).

ولما وقعت هذه النعرة الجاهلية، وقع معها كل باطل وكل شر. فأما شريعة الله وحكمها وقيامها بما يحتاج إليه البشر لأنها من عند الله وهو العليم سبحانه بما يصلح أحوال البشر. فقد أقصيت وحل محلها قانون البعث العربي الاشتراكي الذي أخذ يردد هذا الشعار:

لا تسلم عن ملتني أو مذهبي
أنا بعثي اشتراكي عربي

ومن المضحك أن صاحب هذا الشعار حين تلقى صفحه موجهة من اليهود بالرغم من ولائه لهم - مسح ذلك الشعار وكتب مكانه ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله﴾!!!^(٥٥).

أما ثمار هذا "الفتح الجديد" بعد الرضى بالقومية فشيء يصعب حصره، حيث انطلقت الفرائز البهيمية وطغت الشهوات، وانتشر المجون والفسق، وتحللت الأخلاق وغربت الفضائل، فأصبح العفاف والاحتشام والحياء: رجعية متزمتة لم تر نور القرن العشرين، وأصبح اللهو والخلاعة والصور العارية والقصص الخليعة والأدب الرخيص، والأزياء المثيرة والغناء والرقص والاختلاط سمات الحضارة وعنوان التقدم وشارة التحرر من ربقة التقاليد البالية!!^(٥٦).

(٥٤) «درس النكبة الثانية»: (ص ٣٦).

(٥٥) «نظرية التربية الإسلامية» للشيخ محمد الفزالي. وهو بحث قدم لندوة أسس التربية الإسلامية بمكة في ١١/٦/١٤٠٠هـ.

(٥٦) انظر «درس النكبة الثانية»: (ص ٣٩).

وأعجب من ذلك كله أن اليهود الذين هم وراء هذه الردة الجديدة يعلنون وبصراحة وجدية واضحة أنهم لم ولن يتخلوا عن دينهم فهذا موسى ديان حين سئل هل كنتم تشعرون أن الله معكم في معركة هـ حزيران؟ قال: (كنا نشعر أننا في جانب الله) (٥٧).

ويقول زعيم الصهيونية الأول "هرتزل": إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية (٥٨).

ونشطت الدعوات الهدامة، فهذه النعرة الفرعونية تطل برأسها وتسفر عن وجهها بعد أن كانت لا تظهر إلا مقنعة أو من خلف ستار.

نشط دعائها في الصحف والندوات ورسموا رأس "أبو الهول" على طوابع البريد وعلى أوراق النقد، واجتاحت مصر موجة من الفرعونية، تحاول غزو سائر النواحي الثقافية، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية، وتزعمت صحيفة "السياسة الأسبوعية" هذا الاتجاه الجديد، فأفسحت صدرها لهؤلاء الدعاة ولم يخل عدد من أعدادها من حديث عن حضارة الفراعنة وثقافتهم ومجدهم (٥٩).

وكثر التغني بهذه الأجداد من أجل ذبذبة ولاء المسلم، فهذا حافظ إبراهيم يقول:

أنا مصري بناني من بنى
هرم الدهر الذي أعبى الفن

ورجعت العراق لعنصرية الآشوريين، وكل بقعة أخذت تنادي، بهذه الردة الجديدة.

(٥٧) المصدر السابق: (ص ٨٢).

(٥٨) نفس المصدر: (ص ٨٢).

(٥٩) انظر «أزمة العصر» للدكتور محمد محمد حسين: (ص ٤٣ - ٥٣).

أما الشعار الوطني الجديد: فهو ما أعلنه سعد زغلول بقوله: الدين لله والوطن للجميع! أي الوطن ليس لله، ثم قال: لا تتادوا بشعارات إسلامية خشية أن يغضب إخواننا الأقباط^(٦٠).

ونادى دعاة القومية الناس بأسلوب مكرر فقالوا: ما المانع أن يكون المسلم العربي - عربياً مسلماً، ثم قالوا: يكون عربياً فقط. أليس الإسلام عربياً؟ إذن ما هو عيب القومية العربية؟ إن العرب إذا ذلوا ذل الإسلام فلنناد بالقومية العربية!!

وهذا كلام غير صحيح لأنه يوم ذل العرب جاء صلاح الدين الكردي، وجاء قطز المملوكي فأنقذوا المسلمين من ذلك الهوان، وانتصر القائدان بقولهما وإسلاماه.

ولم يكن في حسم ولا في عقيدتهم هذه التفرقة ولا هذه النعرة الجاهلية^(٦١).

إن الإسلام يكذب ذلك الزعم الذي يزعمه القوميون لأنه جاء لانتزاع هذه النعرات فجمع في دعوته بل في أول دعوته: أبا بكر العربي القرشي وبلال الحبشي وصهيباً الرومي وسلمان الفارسي. وكما قال عمر رضي الله عنه: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا آتَمَسْنَا العِزَّةَ بغيره أَذَلَّنَا الله.

إن تقليد الغرب في استيراد مبدأ القومية أو العلمانية أو أي مذهب أو فكر: بعيد للأذهان تلك القصة الرمزية القديمة التي تتحدث عن حمارين كان أحدهما يحمل ملحاً وكان الآخر يحمل إسفنجاً. فرأى حامل الإسفنج صاحبه ينزل إلى الماء فيذيب بعض الملح ويخرج منه أخف حملاً، فخطر له أن يحصل على المزينة نفسها بالأسلوب نفسه، فكانت النتيجة على عكس ما توقعه، وخرج من تجربته أثقل حملاً^(٦٢).

(٦٠) «مذكرة المذاهب الفكرية».

(٦١) «مذكرة المذاهب الفكرية».

(٦٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ٢٣٧).

وخلاصة القول في القومية: إنها شرك بالله لأنها بإيجابها العمل لها وحدها. والتضحية والجهاد في سبيلها، وصرف الكره والبراء وما يتبعهما ضد كل خارج عن القومية، وصرف الحب والولاء وما يتبعهما للقوميين ومن والاهم: هي بهذا تكون ندًا يعبد من دون الله؛ لأن ذلك يقوم مقام النفي والبراء والإثبات والولاء وهما ركنا الألوهية، أو العبادة في قول "لا إله إلا الله"، فـ "لا إله" نفي وبراء، و "إلا الله" إثبات وولاء لله لا شريك له. والدليل على ذلك قوله تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥].

وليس بعد الحق إلا الضلال. فليحذر كل مسلم على نفسه من الوقوع في هذا الشرك المقتنع.

وأما العالمية: أو "الإنسانية" فهي تتفق أيضاً مع القومية والوطنية في مناقضة عقيدة الولاء والبراء، ولكن هذا التناقض يتخذ شكلاً آخر: هو توسيع دائرة الولاء بحيث يدخل فيها كل الأقوام والأديان والأوطان. وهذا في حقيقة الأمر ضياع للولاء ومسح للبراء حتى لا يعود المسلم يشعر بالفارق بينه وبين أي كافر في بقاء الأرض.

ويقوم هذا المبدأ على ألقاظ خادعة وموهمة مثل: الحرية والإخوة والعدل والمساواة.

(٦٣) انظر «فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام» للشيخ صالح العبود: (ص ٢٥٤)، الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ، الناشر: دار طيبة بالرياض، وهي أوسع كتاب فيما أعلم في قضية القومية العربية.

ويراجع أيضاً كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» للندوي: (ص ١٢٤ — ١٦٢)، الطبعة الثالثة، وكتاب «الاتجاهات الوطنية»: (ج ١/٦٧، ١٠٥)، (و ٢/٢٩٢)، وكتاب «الشعرية الجديدة» لمحمد مصطفى رمضان.

وفي ذلك يقول "كالفرلي": (وحيثما يصبح في مقدور الجميع الوقوف على كل المعلومات المجردة عن الهوى، وحيثما يصبح الجميع أحراراً في تفكيرهم، لهم من الشجاعة ما يجعلهم يتقبلون ما هو خير وعدل وجميل، وعندئذ يكون من المحتمل أن يسود العالم دين واحد. وإني سأكون سعيداً باتباع دين عالمي موحد، تنبع مصادره من حقائق التاريخ، وتشمل مبادئه العدالة الاجتماعية، وتقوم بفضلها مظاهر الحب والإخاء على أنقاض الكراهية والخصومة)^(٦٤).

وهذا الكلام هدم صريح للإسلام، ومعوّل هدم لطمس الجهاد الإسلامي الذي يقوم على تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض، ومن أنقسامهم إلى "ملاّ" وهم السادة الأقوياء و "عبيد" وهم التابعون الأذلاء: إلى جعلهم كلهم عباداً لله.

وكما نعلم جميعاً أن الجهاد يرهّب أعداء الله، ويخافونه كثيراً، ولذلك ما فتؤوا يبحثون عن وسائل متنوعة لإبطاله ومحوه من أفكار المسلمين، إنهم تارة يقولون: الإسلام آتشر بالسيف، وتارة يقولون: إنه دين وحشي لا يرحم الناس، وقد لا تكون هذه مجدية لما يريدون، فقالوا: العالمية والإنسانية هي المذهب الجديد الذي يعيش فيه الناس بأمن وسلام وعدالة وإخوة، بصرف النظر عن الأديان والأوطان!

ويزيد هذا الأمر إيضاحاً ما قاله معروف الدواليبي: (...إننا نشاهد منذ المنتصف الثاني لعصرنا الحاضر من القرن العشرين تطلعاً كبيراً نحو إقامة الحياة البشرية على مفاهيم وقواعد إنسانية، ورغبة أكيدة من قبل رجال الفكر والعلم وقادة السياسة للانتقال بالمجتمع الإنساني المتميز المتناحر إلى مجتمع إنساني واحد متعاون وذلك في إطار "وحدة الأسرة البشرية" من غير تفاضل بين الأقسام إلا بالتقوى، وفي إطار "حق الجميع في الحياة الكريمة" من غير تمايز في الأعراق أو في الأجناس أو في الأديان وفي إطار "وحدة المصالح الاقتصادية للجميع"

(٦٤) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ١٣٢).

من غير استئثار من قبل الكبار والأقوياء على حساب الصغار والضعفاء. وفي إطار "العدالة المطلقة بين الجميع حماية لسلام الإنسان"، ثم ذكر أن هيئة الأمم المتحدة أخذت تدعو لهذه المفاهيم العالمية الجديدة التي تدعو إلى محو التمايز فيما بين الأسرة البشرية وأجناسها، قومياً وعرقياً واقتصادياً وفقاً لمبادئ حقوق الإنسان^(٦٥).

(٦٥) مجلة «رابطة العالم الإسلامي» الشهرية، العدد الخامس، السنة التاسعة عشرة، جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ. هذا ومن الجدير بالذكر أنه قد ورد في مجلة «العربي» الكويتية، في العدد ٢٦٧، ربيع الأول، سنة ١٤٠١هـ مقالان حول هذه الدعوة.

المقال الأول منها:

(ص ١٨) للدكتور محمد فتحي عثمان تحدث فيه عن (المسلمون والآخرون) وطالب المسلمين المعاصرين في إعادة النظر حول قضية دار الحرب ودار الإسلام، وأن هذا تقسيم غير صحيح، ولا يدل عليه الكتاب ولا السنة، بل هو من صنيع الفقهاء مبيناً أن الخلافة الإسلامية كانت صورة تاريخية وهي لم تعيش طويلاً فعلى المسلمين ألا يفكروا فيها مرة أخرى، وعليهم إعادة النظر في قضية العلاقات الدولية مع العالم المعاصر، لكي يتقنوا فن التعاون الدولي مستفيدين من إعادة نظر الولايات المتحدة العملاقة في سياستها إزاء الكساد الاقتصادي في الثلاثينات من القرن العشرين. وكذلك ما حدث في الكتلة الشرقية حين عدل خروشوف عن سياسة سلفه ستالين.. إلخ.

والكاتب يرى التعديل في المفاهيم الإسلامية مثلما يرى أرباب القانون الوضعي تعديل قوانينهم القاصرة وكأنه يجهل أو يتجاهل أنه لا مقارنة بين الدين الرباني الذي نزل من الحكيم الخبير وبين أفكار البشر القاصرة الهزيلة، وهذه الدعوة فيها خدمة لمبدأ العالمية ودعوة غير مباشرة لإبطال شرعية الجهاد في الإسلام.

أما المقال الثاني:

وهو أحببت من سابقه فهو لفهمي هويدى بعنوان (المسلمون والآخرون أشواك وعقد على الطريق): (ص ٤٩)، وهذا المقال يدعو لما دعا إليه الكاتب السابق مع زيادة هي: تجهيل علماء المسلمين ووصفهم بعدم معرفة دلالات النصوص وملاصقتها، قائلًا: إن تلك المرحلة — يريد مرحلة التاريخ الإسلامي المشرقة — كانت لها حساباتها وموازينها الخاصة التي لا يمكن تعميمها على بقية مسيرة التاريخ البشري ومؤكدًا (أنه ليس صحيحاً أن المسلمين صنف متميز ومتفوق =

ونتساءل بعد هذا الكلام. أي قانون بشري يريد دعاة العالمية أن يعيش الناس تحت لوائه؟

هل هو ميثاق هيئة الأمم؟ فهي. منظمة السيطرة فيها لليهود والنصارى والشيوعيين وأكبر دليل على ذلك ما يسمى بـ "حق الفيتو" الذي يرفض كل ما يتعارض مع مبدأ أولئك المسيطرين أم أنها الغفلة والانخداع بما خطط له دعاة هذا المذهب الفاسد؟

أم أنه الخبث والدهاء في تخدير الأمة الإسلامية بأن الجهاد أمر لم يعد يصلح لمسايرة العصر الحديث لأن العالمية لا تقره ولا ترضاه؟

وأقرب الإجابات إلى نفسي هو جواب السؤال الأخير ذلك الجواب الذي يعرفه كل مخلص لدينه وربه وكل مؤمن يعرف كيد الجاهلية المعاصرة فريباً بنفسه أن ينخدع بأي دعوة لا تنبثق من مشكاة النبوة المحمدية والرسالة الربانية الخالدة.

ونحن إذ نقرر هذا الجواب المؤكد، فليس ذلك تحجياً أو مجرد ثورة عاطفة ضد هذا المذهب الإلحادي الكافر، بل هو عين ما يهدف إليه دعاة الماسونية العالمية التي تولت كبر الدعوة إلى هذه النحلة الجديدة بجميع أهدافها وشعاراتها.

ولذلك يقول أحد الماسون: (إن ما تبغيه الماسونية هو، وصول الإنسانية شيئاً فشيئاً إلى النظام الأمثل الذي تتحقق فيه الحرية بأكمل معانيها وتزول منه الفوارق بين الأفراد والشعوب ويسود فيه العلم والجمال والفضيلة)^(٦٦).

= لمجرد كرههم مسلمين، وليس صحيحاً أن الإسلام يعطي أفضلية لهم، ويخص غيرهم بالدونية لأنهم كفار) ويكفي أن هذا الكلام فضلاً عن كونه دعوة لمبدأ الإنسانية الماسوني هو أيضاً صورة واضحة من صور الولاء للكفار لأن هذا الكلام الذي ساقه هويدى أمنية للكفار أن يتحدث به أبناء المسلمين لكسر التميز الذي ينمي على الولاء والبراء والحب والبغض حسب المقياس الإسلامي الصحيح فكل المسلمين أن يتبينوا مواقع الزلل والانحرافات في مثل هذه الدعاوات الإلحادية.

(٦٦) الإسلام والحضارة الغربية: (ص ١٩٧).

وخامساً نقول: إن كل المذاهب البشرية القائمة اليوم في الأرض التي لا تستجد وجودها من الكتاب والسنة محادة لله ولدينه وكتابه وسنة رسوله ﷺ، وأي تقبل لها أو عمل بمبادئها فإن ذلك موالة صريحة للكفار، وبراءة صريحة من الإسلام والله قد بين لنا في كتابه العزيز أن من تولى الكفار فهو منهم:

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُمْ مِنْهُمْ

[سورة المائدة: ٥١].

والإسلام هو الدين الذي يجمع ولا يفرق، وهو الذي يجعل الناس في ميزانه الإيماني سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى.

وهو الذي فيه الطمأنينة والسعادة:

أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ

[سورة الرعد: ٢٨].

وهو الذي تتحقق فيه الحياة الكريمة:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ اُنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
اَجْرَهُمْ بِاَحْسَنِ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ

[سورة النحل: ٩٧].

وهو الذي يحصل به التمكين الرباني:

وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُخَوِّدَنَّ لَهُمْ فِتْنَتَهُمْ أَمْ تُبْدِيهِمْ لَعْنَتِي لَوْلَا يُعَذِّبُهُمْ
شَيْئًا أَوْ مِنْ كَفَرٍ يَعَذِّدُكَ فَالْوَلِيُّ لَهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

[سورة النور: ٥٥].

الخاتمة

الإسلام طريق الخلاص وسبيل النجاة

ما الخلاص من هذا الهوان والتبعية اللذين أصيبت بهما الأمة الإسلامية اليوم؟ ما سبيل النجاة مما يراد بالمسلمين اليوم في جميع أنحاء الأرض؟ هل من سمات معينة لذلك المخلص؟ ولمن المستقبل في نهاية الأمر؟

الجواب: إنه الإسلام ولا شيء غيره فهو الذي ينقذ الناس مما هم فيه من حالة الضياع والهبوط والعبودية لغير الله، فيخرجهم كما أخرج سلف هذه الأمة من الظلمات إلى النور، ومن الجور إلى العدل، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ونعيم الآخرة.

ولكن هذا الطريق المستقيم يحتاج إلى سالك جاد، وسائر يسير فيه دون الالتفات إلى اليمين أو اليسار

وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ لِئَلَّا تَكُونُوا
تَنفَرُونَ

[سورة الأنعام: ١٥٣].

(والحق أنه لا يمكن أن ينهض صرح الحياة الإسلامية الكاملة الخالصة إلا على دعائم الإقرار بالتوحيد الذي يحيط بجميع نواحي الحياة الإنسانية الفردية والجماعية، والذي يحسب^(١) الإنسان بموجه إنه هو وكيل ما بيده

(١) هكذا بالنص ولعل المراد: يحس.

من شيء ملك الله، ويرى أن الله هو المالك الشرعي الحقيقي له وللعالم كله، المعبود المطاع الذي له الأمر والنهي.

وأن لا ينبوع للهداية إلا هو، وتطمئن نفسه بكل شعور إلى أن الانحرافات عن طاعة الله أو الاستغناء عن هدايته وإشراك غيره به في ذاته وصفاته وحقوقه وتصرفاته إن هو إلا إيمان في الضلالة من أي ناحية جاء أو في أي لون كان.

ثم إن هذا البناء - بناء الإيمان بالله - لا يمكن توطيد دعائمه إلا إذا رأى المرء في باطن أمره رأياً جازماً، وقطع على نفسه بشعور كامل وإرادة قوية أنه هو وكل ما بيده ملك الله وراجع إلى مرضاته، وقضى على ما في نفسه من مقياس للرضا والسخط وجعله مذعناً لرضاء الرب تعالى وسخطه، ونفى عن نفسه الأثرة والكبرياء، وصاغ نظرياته وأفكاره وآراءه ونزعاته ومناهج تفكيره في قالب ذلك العلم الذي قد أنزله الله تعالى في كتابه العزيز.

وخلع عن عنقه ربة جميع أنواع الولاء الذي لا يدعن لطاعة الله.. ومكن محبة الله تعالى ومودته من سويداء قلبه، ونفى عن أعماق فؤاده كل صنم يطلبه بإجلاله وإكباره أكثر من الله تعالى وأدغم حبه وبغضه وصداقته وعداوته ورغبته ونفوره وصلحه وحربه.. إلخ في مرضاة الله تعالى حيث لا ترضى نفسه إلا بما يرضى به الله، ولا تكره إلا ما يكرهه الله.. وهذه مرتبة الإيمان الحقيقية وغايته المرموقة^(٢).

إن الوضع الذي تعيشه البشرية اليوم في جميع بقاع الأرض والذي يتوجه الضياع والخواء الروحي، وهذه الهتافات التي ترتفع من كل مكان تنادي بمنقذ ومخلص يخلصها من ذلك الهوان لأمر شيء بأنه هو الإسلام لأنه دين الله العليم بما يصلح النفوس والخير بجميع مكونات الضمائر.

(٢) «الأسس الأخلاقية للمودودي: (ص ٤٩ - ٥٠)، الطبعة الأولى سنة ١٩٧١م، بيروت. بتصرف بسيط.

إن الإسلام (هو المنهج الوحيد الذي يعطي الفطرة ما يلائمها وهو الذي ينسق خطاها في الإبداع المادي وخطاها في الاستشراف الروحي وهو وحده الذي يملك أن يقيم لها نظاماً واقعياً للحياة يتم فيه هذا التناسق الذي لم تعرفه البشرية قط إلا في ظل النظام الإسلامي - وحده - على مدى التاريخ)^(٣).

وأعداء الإسلام يعرفون جيداً أن عدوهم الوحيد هو الإسلام، ومن أجل ذلك يسعون جادين إلى تحطيم هذا الجبل الشاخ لأنه يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية كما يعوقهم عن الطغيان والتآله في الأرض كما يريدون، لذلك يضعون التصورات والمناهج التي لا تمت إلى هذا الدين بصلة من أجل أن تكون هي البديلة عن هذا الدين القيم^(٤).

وليكن من المعلوم لكل مسلم جاد: أن هذا الدين لا يقوم بألف كتاب تكتب عن الإسلام ولا بالخطب والمواعظ ولا بأفلام الدعاية للإسلام، وإنما يقوم على واقع حي متحرك - يتمثل هذا في المسلمين الصادقين - واقع تراه العين وتلمسه اليد وتلاحظ آثاره العقول^(٥). ومن سمات أصحاب هذا الواقع الذي يغير مجرى حياة البشرية المعاصرة أن يستعلوا بأنفسهم من موالة أعداء الله - سواء من الكافرين أو المنافقين أو الملحدين - فلا يخذعهم هيلمان الباطل المعاصر، وأن الشرق والغرب يملك القبلة الذرية، والصواريخ العابرة للقارات بل يعلمون أن الله هو الأكبر، وهو الولي الناصر، وأن الغلبة للحق مهما أستطال الباطل:

غَلَبَتْ فَتَنَةٌ كَثِيرَةٌ يَأْذِنُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ فَتَنٍ قَلِيلَةٍ

[سورة البقرة: ٢٤٩].

(٣) «المستقبل لهذا الدين»: (ص ١٠٩) بقليل من التصرف.

(٤) انظر الفصل الأخير من كتاب «المستقبل لهذا الدين».

(٥) انظر فصل طريق الخلاص: (ص ١٨٢) من كتاب «الإسلام ومشكلات

الحضارة» للأستاذ سيد قطب - رحمه الله -.

وَلَنْ جُنْدًا لَهُمُ الْقَلِيلُونَ

[سورة الصافات: ١٧٣].

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ

[سورة غافر: ٥١].

ويقول سبحانه في شأن الأعداء:

وَلَنْ يُغْنِيَنَّكُمْ يَتْلُوكُمُ الْأَعْدَاءُ بَارِئِينَ لَمْ يَنْصُرُوا

[سورة آل عمران: ١١١].

ولن يصل المسلمون الصادقون إلى هذه الدرجة الرفيعة إلا بالبراء من كل منهج وتشريع يخالف شريعة الله، والبراء أيضاً من كل فكر يناقض هذه العقيدة التي كانت سبب نصرة وعزة السلف الصالح. وأستمداد حكم كل صغيرة وكبيرة من هذه الشريعة الربانية التي هي صراط الله المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية التي لا ضيق فيها ولا حرج.. لم تأمر بشيء فيقول العقل لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجبى، لو أباحته لكان أرفق، بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث، وأمرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة من كل داء، ظاهرها زينة لباطنها، وباطنها أجمل من ظاهرها. شعارها الصدق وقوامها الحق، وميزانها العدل وحكمها الفصل، لا حاجة بها البتة إلى أن تكمل سياسة ملك أو رأي ذي رأي. أكملها الله بقوله:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ
لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا

[سورة المائدة: ٣].

وقال ﷺ: «ترككم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(٦).

وحرّني بدعاة الخير الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر أن يعودوا
بالأمة إلى صفاء العقيدة المثل في:

(١) تصحيح مفهوم لا إله إلا الله محمد رسول الله. ودعوة الناس إلى فهم
هذه الكلمة العظيمة كما فهمها رسول الله ﷺ وأصحابه الأخيار، ومحو
ذلك المفهوم الخاطيء الذي يردده المتأخرون وهي أنها مجرد لفظ عار
من كل تكليف.

مع بيان أن من تكاليفها موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين، وتحكيم
شريعة الله واتباع ما أنزله الله والكفر بالآلهة المزيفة والأرباب المتعددة
من العرف والهوى والعادات والمتألهين الذين يشرعون للناس بغير ما أنزل
الله.

(٢) تصحيح مفهوم العبادة وأنه مفهوم شامل كامل وليس مجرد شعائر تؤدي
بينما نظام الحياة والممارات قائم على مناهج وضعها البشر تفصل بين الدّين
والدولة، وبين الدّين والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية
والثقافية.

فالعبادة هي عقيدة وشريعة ونظام حياة. قال تعالى:

(٦) انظر «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج ٢/٣٧٠)، والحديث سبق تخريجه
(ص ٩٦).

قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ

[سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

(٣) تربية الجيل على منهاج الكتاب والسنة: لأن هذا هو الطريق الصحيح الذي به ترجع الأمة إلى ربها ودينها.

(٤) طرد آثار الغزو الفكري وذلك بتعرية الجاهلية الحديثة، وتمزيق زيفها وبهرجتها فتبين انحرافاتهما مع إيجاد البديل الإسلامي الصحيح.

(٥) تعميق قضية ولاء المسلم للمسلم وائتمائه لإخوانه المؤمنين فقط، وخلع الولاءات الجاهلية من قومية وعرقية ووطنية وعالمية وغيرها فالمسلم أخو المسلم في أي بقعة كانت، دار الإسلام هي دار كل مسلم في جميع أنحاء الأرض.

ومن تاريخنا ما يشهد بكل جلاء على أهمية هذه القضية. فإن امرأة مسلمة أهينت بعمورية فاستغاثت: "وا معتصماه". فقال المعتصم: لبيك أيتها المرأة المسلمة وجهز الجيوش وفتح عمورية ونصر المرأة المؤمنة، ولم يقل إنها في وطن وأنا في وطن بل انطلق من واقع مسؤوليته كخليفة مسلم. كل الأمة المسلمة أمانة في عنقه وهو مسؤول عنها يوم يلقي الله.

ومن هنا فإن نصرة المسلمين المضطهدين في كل بقعة من بقاع الأرض أمر واجب تفرضه هذه العقيدة. ويكون واجب المؤمن - حينئذ - محبة هؤلاء المسلمين ومناصرتهم باليد واللسان والمال والنصرة في كل موطن ومناسبة.

(٦) تعميق قضية المعادة والبراءة من أعداء الله الكفار منهم والمشركين. والمنافقين والمرتدين. وإنه لا يجتمع إيمان في قلب مع حب الكفر وأهله كما قال تعالى:

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

والحرص على تمييز المسلم عن كل وضع وفكر يخالف كتاب الله وسنة
رسوله ﷺ.

(٧) التأكيد على قضية عداوة أولياء الشيطان لأولياء الرحمن، فإن هذه العداوة
قائمة منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فالحزبان لا يلتقيان أبداً لأن
حزب الله يريد دعوة الناس إلى عبادة الله، وحزب الشيطان يدعو الناس
إلى عبادة الطاغوت وطاعته، وقال المؤمنون لصدهم عن دينهم.

وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ
إِنْ أَسْتَطَاعُوا

[سورة البقرة: ٢١٧].

(٨) بعث الأمل وتقويته في النفوس بقرب نصر الله كما قال ﷺ: «لنقاتلن
اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي فتعال
فاقتله» (٧).

هذه رؤوس أقلام تبين ملامح طريق الخلاص، وإذا صدق المسلمون مع
الله وجدوا معية الله وعونه لهم، لأنهم الأعلون، وهم القائمون بأمر الله في
أرض الله، ومن ثم فهم المستحقون لولاية الله وتكريمه لهم.

(٧) . (صحيح مسلم: (ج/٤/٢٢٣٨، ح ٢٩٢١) كتاب أشراف الساعة.

الْآيَاتِ أُولَٰئِكَ اللَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

[سورة يونس: ٦٢].

إنهم حزب الله وأكرم بذلك الحزب الذين يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا تأخذهم في الله لومة لائم:

أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

[سورة المجادلة: ٢٢].

ونحن مستبشرون بخير إن شاء الله، لأن طلائع وبشارات الجيل الإسلامي الجديد الذي يخلص الأمة من هذا الهوان والضياع والتبعية بادية ظاهرة في كل صقع من أصقاع الأرض، ويومض يفرح المؤمنون بنصر الله. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأحاديث والآثار (حسب الترتيب الهجائي)

الصفحة	أول الحديث أو الأثر
١٨٦	أبايكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم
٣١٣	اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم (أثر)
١٨٦	اجعلوا على رجله شيئاً من الأذخر (هامش)
٣٤٣	أخرجوا المشركين من جزيرة العرب
٣٠٨	إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً
٣٦٣	إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليكم
٣٦٣	إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم
٥٨	إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما
٦٣	الشرك في هذه الأمة أخفى من
٣٣	أسعد الناس بشفاعتي من قال
٣٠	أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله
٣٠٣	اطلبوه واقتلوه
٣٨٥	اغزوا باسم الله في سبيل الله
١٥٦	أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر
١٧٢	افعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن قد
٣٠٢	اقتلواهم فإن في قتلهم أجراً عند الله
٩٠	الحقوا الفرائض بأهلها

أول الحديث أو الأثر

الصفحة

- الله أكبر قلم كما قال قوم موسى لموسى ٣٢٦
- اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ١٧٣
- أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ٢٨
- أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا ٦٦
- إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت (أثر) ١٧٢
- إن الله حرم على الثار من قال لا إله إلا الله ٣٥
- إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ١٠٧
- إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي ١٨
- إن آل فلان ليسوا لي بأولياء ١١٨
- إن أولى الناس بي المتقون ١١٨
- أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ٢٢١
- إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسرحاً ٣٩١
- أن تعمل بطاعة الله على نور من الله (أثر) ٢٥
- أنت مع من أحببت ٢٦٣
- إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ٢٩٣
- أنشد رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق ٣٤٠
- إن صحابكم تغسله الملائكة ٢٩٧
- الأنصار لا يحجم إلا مؤمن ١٩٤
- انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ٢٦٨
- انطلقوا إلى يهود ٣٤٣
- انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ٣٠٠
- إن عادوا لك فعد لهم بما قلت ٣٧٥
- إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين ٢٩٣

- ٢٤٠ (أثر) إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام
- ٢٢٠ أن لا يحج بعد العام مشرك
- ٣٧٠ (أثر) إن لي كاتباً نصرانياً
- ٢٨٨ إنما الأعمال بالنيات
- ١٨ إن من عباد الله لأناس ما هم بأنبياء
- ٢٧٦ أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين
- ٣٢٦ أن الناس نزلوا مع رسول الله
- ١٨٠ إنها - أي سورة الكافرون - براءة من الشرك
- ١٦٨ إني لم أؤمر بهذا
- ٣٤٠ أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ
- ٣٢٦ أن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالقوهم
- ٨٩ إن يوسف قد سأل العمل
- ٤١ أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله
- ٤٢ أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله
- ١٠٣ (أثر) أولاً ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم
- ٢٨١ أوخرجي هم
- ١٢٢ إياكم ومحقرات الذنوب
- ٣٣٣ (أثر) إياكم ورطانة الأعاجم
- ٥٠ أينما لقيتموهم فاقتلوهم
- ١٩٤ آية الإيمان حب الأنصار
- ٦٣ آية المنافق ثلاث
- ٣٨١ (أثر) بحسب امرئ يرى منكراً لا يستطيع أن يغيره أن
- ١٨٧ بل الدم الدم والهدم الهدم

- ١٨٠ حديث قراءة المصطفى ﷺ ب (الكافرون) و (الإخلاص)
- ٣٨٨ حديث كعب بن مالك
- ٣٦٩ حديث مزارعته لليهود
- ٩٩ حديث معاذ حين بعثه رسول الله إلى اليمن
- ١٩٧ حديث الوثيقة التي كتبها رسول الله بين
- ٣٧٨ حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة (أثر)
- ٣٥٩ الحمد لله الذي أنقذه من النار
- ٣٢٧ خالفوا اليهود
- ١٥٨ دعوها فإنها منتنة
- ٢٩٣ رأس الأمر الإسلام وعنوده
- ٢٤٠ الرجل على دين خليله
- ١٨٧ رويداً يا أهل يثرب (أثر)
- ٥٩ سباب المسلم فسوق و
- ٣١٢ ستجدون قوماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه (أثر)
- ٦٣ الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب الحمل
- ٣٣ شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً
- ٣٩٠ غيبت عن أول قتال قاتله رسول الله (أثر)
- ١٠٧ فهلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري
- ٢٩٦ قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض
- ١٠٢ كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات (أثر)
- ١٤٤ كل بدعة ضلالة
- ٣٣٥ كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته
- ٣٦٧ كنت رجلاً قيناً فعملت للعاص بن وائل

لا أجده .. هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن	٢٩٣
لا أعلم من الإشرار شيئاً أكبر من	٣١٦ (أثر)
لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام	٢٤٥
لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا	٢٤٢
لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب	٥٨
لا تساكنتوا المشركين ولا تجامعهم	٢٤٦
لا تقولوا للمنافق سيد	٣٦٠
لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله	١٣٥
لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة	٢٧١
لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق	١٧٥
لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي	١١٨
لا هجرة بعد فتح مكة	٢٨٦
لا هجرة ولكن جهاد ونية	٢٨٤
لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى	١٩٥
لا يدخل الجنة قاطع رحم	٣٥٤
لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم	٣١٧
لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	٦٤
لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن	٦٤
لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه	٢٦٧
لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما	٣١
لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب	٣٤٣
لتبعن سنن من كان قبلكم	٢٣٩
لتقاتلن اليهود	٤٣٧

أول الحديث أو الأثر الصفحة

لن <small>عَلَيْهِ</small> الخمر وشاربها و	١٣٥
لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من	٢٩٣
لو أعطيتني جميع ما تملك	٣٧٨ (أثر)
ليس في القرآن أشد غيظاً لأبليس	١٨٤ (أثر)
ليس منا من تشبه بغيرنا	٣٢٧
ليس منا من دعا إلى عصبية	١٥٨
ما أغبرتنا قدما عبد في سبيل الله فتمسه	٢٩٣
ما بال دعوى الجاهلية	٢٠٩
ما على هذا صالحناكم	٣٤٢ (أثر)
ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله	٣٤
ما من أمريء يخذل امرءاً مسلماً في موضع	٢٦٧
ما هذان اليومان؟	٣٣٢
المرء مع من أحب	٢٦٢
المسلم أخو المسلم	٢٦٨
ملئ عمار إيماناً إلى مشاشة	٣٧٥
من أتى كاهناً فصدقه بما يقول	٥٨
من أحب في الله وأبغض في الله	٤٢
من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً	٣٠٨
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه	١٤١
من بنى بأرض المشركين فصنع نبروزهم	٣٢٥
من تشبه بقوم فهو منهم	٣٢٠
من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله	٢٤٦
من حلف بغير الله فقد أشرك	٦٣

أول الحديث أو الأثر

الصفحة

- من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم ١١٤
- من رأى منكم منكراً فليغيره ٣٠٩
- من عادى لي ولياً فقد ٩١
- من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ٣٥
- من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ٤٨
- من كان مستتاً فليستن بمن قد مات (أثر) ١٤٣
- من كنت مولاه فعلي مولاه ٨٧
- من لقيت من وراء هذا الحائط ٣٠
- من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله ٢٩
- المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ٣١٠
- مهم؟ قال: تزوجت ١٩٥
- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ١٨٨
- المؤمن مرآة أخيه ٢٦٩
- نعم صلي أملك ٣٥٣
- هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين ١٩٧
- واستأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً من ٣٦٦
- والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ٢٠٩
- والله لقد بعث النبي ﷺ على أشد حال (أثر) ١٧
- والله لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها (أثر) ٣٧٧
- والله ما أحب أن (أثر) ٣٨٩
- واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ١٠٨
- ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك (أثر) ٣٧٠
- ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ٣٨٠

أول الحديث أو الأثر الصفحة

ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل	٣٠٢
يا أماء لو كانت لك مائة نفس	١٧٤ (أثر)
يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية	٢٠٢
يا معشر اليهود أسلموا تسلموا	٣٤٣
يوشك الأمم أن تداعى عليكم	٨٠

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة

١٧٠	ابن الدغنة
١٨٦	أبو الهيثم بن التيهان
١٠٢	أبو عبد الرحمن السلمي
١٨٧	أسعد بن زرارة
٦٤	إسماعيل الشالنجي
١٨٦	البراء بن معرور
٢٧٧	ثمالة بن أثال
٣٦٨	الحازمي
٢٩٩	حاطب بن أبي بلتعة
٣٨	حافظ الحكمي
٣٧٧	حبيب بن زيد
٢٧٣	حمد بن عتيق
٩٧	حنين بن إسحاق
٢٨٣	الخطابي
٣٠٢	ذو الخويصرة
٣٨٩	زيد بن الدثنة
٢٦ ، ٢٥	سفيان بن عيينة
٣٧١	شبيب بن شيبه

الموضوع	الصفحة
عبد الله بن حذافة السهمي	٣٧٧
عبد الله بن حمار	١٣٥
عتبان بن مالك	٣٥
العز بن عبد السلام	١٤٢
عمير بن الحمام	٢٩٦
عوف بن مالك الأشجعي	٣٤١
مجاشع بن مسعود	٢٨٦
مجااعة بن مرارة الحنفي	٢٧٧
محمد بن إبراهيم آل الشيخ	٨٢
مصعب بن عمر	١٨٥
المقداد بن الأسود	١٧
المهاجر بن أبي أمية	٣٤١
وهب من منبه	٢٨

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع (حسب الحروف الهجائية)

، أ ،

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - «الابتعاث ومخاطره»، محمد لطفي الصباغ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.
- ٣ - «أبو بصير قمة في العزة الإسلامية»، محمد حسن بريغش، الثانية سنة ١٣٩٧هـ، مكتبة الحرمين بالرياض.
- ٤ - «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، د. محمد حسين، الثالثة سنة ١٣٩٢هـ، دار النهضة العربية، بيروت.
- ٥ - «الإتقان في علوم القرآن»، جلال الدين السيوطي (ت^(١)) سنة ٩١١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٧٤م، الهيئة المصرية للكتاب.
- ٦ - «آثار الحرب في الفقه الإسلامي»، د. وهبة الزحيلي، الثانية ١٤٨٥هـ.
- ٧ - «الاحتجاج بالقدر»، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت سنة ٧٢٨هـ، ط سنة ١٣٩٣هـ، المكتب الإسلامي.
- ٨ - «أحكام أهل الذمة»، للعلامة محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ت سنة ٧٥١هـ، تحقيق: صبحي الصالح، الأولى سنة ١٣٨١هـ جامعة دمشق.

(١) هذه الإشارة « ت » تعني أن المؤلف توفي سنة كذا

- ٩ - «أحكام القرآن»، لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ت سنة ٥٤٣هـ، تحقيق: علي البجاوي، ط سنة ١٣٩٢هـ عيسى الحلبي.
- ١٠ - «أحكام القرآن»، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ت سنة ٣٧٠هـ، تحقيق محمد قمحاوي، الثانية، دار المصحف بالقاهرة.
- ١١ - «الأدب المفرد»، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ت سنة ٢٥٦هـ، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، السلفية بمصر.
- ١٢ - «الأربعون النووية»، للإمام يحيى بن شرف الدين النووي ت سنة ٦٧٦هـ، الثانية سنة ١٩٧٣م، مطابع قطر الوطنية.
- ١٣ - «إرشاد الطالب»، للشيخ سليمان بن سحمان ت سنة ١٣٤٩هـ، الأولى سنة ١٣٤٠هـ، مطبعة المنار، مصر.
- ١٤ - «أزمة العصر»، د. محمد محمد حسين، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، دار عكاظ، جدة.
- ١٥ - «أساليب الغزو الفكري»، د. علي جريشة وزميله، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، دار الاعتصام، القاهرة.
- ١٦ - «أسباب النزول»، لأبي الحسين علي بن أحمد الواحدي ت سنة ٤٦٨هـ، الثانية سنة ١٣٨٧هـ، مصطفى الحلبي، مصر.
- ١٧ - «الاستيعاب في أسماء الأصحاب»، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، ت سنة ٣٦٣هـ، الأولى سنة ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة بمصر.
- ١٨ - «الأسس الأخلاقية»، لأبي الأعلى المودودي، ت سنة ١٣٩٩هـ، الأولى سنة ١٩٧١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ١٩ - «الإسلام على مفترق الطرق»، محمد أسد، ترجمة عمر فروخ، الثامنة سنة ١٩٧٤م، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٢٠ - «الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة»، د. محمد البهي، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، مكتبة وهبة بالقاهرة.

- ٢١- «الإسلام وأوضاعنا القانونية»، عبد القادر عودة، الثانية سنة ١٣٨٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٢٢- «الإسلام والطاغات المعطلة»، الشيخ محمد الغزالي، الثانية سنة ١٣٨٣هـ، دار الكتب الحديثة، مصر.
- ٢٣- «الإسلام ومشكلات الحضارة»، للأستاذ سيد قطب، ت سنة ١٩٦٦م، دار الشروق.
- ٢٤- «الإصابة في تمييز الصحابة»، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت سنة ٨٥٢هـ، الأولى سنة ١٣٢٨هـ، السعادة بمصر.
- ٢٥- «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار»، لأبي محمد بن موسى الحازمي الحمداني ت سنة ٥٨٤هـ، تحقيق راتب حاكمي، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦هـ، الناشر: راتب حاكمي.
- ٢٦- «الاعتصام»، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، ت سنة ٧٩٠هـ، المكتبة التجارية، مصر.
- ٢٧- «الاعتقاد على مذهب السلف»، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت سنة ٤٥٨هـ، تحقيق: أحمد مرسي، الأولى سنة ١٣٨٠هـ.
- ٢٨- «الأعلام»، خير الدين الزركلي، الرابعة سنة ١٩٧٩م، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٢٩- «أعلام السنة المنشورة»، للشيخ حافظ الحكمي، ت سنة ١٣٧٧هـ، الثالثة سنة ١٣٩٩هـ، إدارات البحوث العلمية بالرياض.
- ٣٠- «إعلام الموقعين»، لابن القيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط ١٩٧٣م، تصوير دار الجليل، بيروت.
- ٣١- «إغاثة اللهفان من مصاديد الشيطان»، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الثانية سنة ١٣٩٥هـ، تصوير دار المعرفة، بيروت.
- ٣٢- «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، لابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الثانية سنة ١٣٦٩هـ، مطبعة أنصار السنة بالقاهرة.

٣٣- «أقضية الرسول ﷺ»، عبد الله بن محمد بن فرج المالكي، الناشر: حمد ابن فالح آل ثاني.

٣٤- «أمثال القرآن»، لابن القيم، تحقيق: د. ناصر الرشيد، الأولى سنة ١٤٠٠هـ، دار مكة للطباعة.

٣٥- «الأموال»، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ت سنة ٢٢٤هـ، تحقيق: د. محمد خليل هراس، الثانية سنة ١٣٩٥هـ، مكتبة الكليات الأزهرية.

٣٦- «الإنسان بين المادية والإسلام»، للأستاذ محمد قطب، الخامسة سنة ١٣٩٨هـ، دار الشروق.

٣٧- «الأيضاح والتبيين» للشيخ حمود التويجري، الأولى سنة ١٣٨٤هـ، مؤسسة النور بالرياض.

٣٨- «الإيمان»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الثانية سنة ١٣٩٢هـ، المكتب الإسلامي.

٣٩- «الإيمان: حقيقته . أركانه . نواقضه»، د. محمد نعيم ياسين، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، جمعية عمال المطابع، الأردن.

٤٠- «الإيمان»، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ت سنة ٢٣٥هـ، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، سنة ١٣٨٥هـ، المطبعة العمومية بدمشق .

(ب)

٤١- «بدائع الفوائد»، للعلامة ابن القيم، إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة .

٤٢- «البداية والنهاية»، للحافظ إسماعيل عماد الدين بن كثير، ت سنة ٧٧٤هـ، ط سنة ١٩٦٦م، مكتبة المعارف، بيروت .

٤٣- «مضع رسائل في عقائد الإسلام»، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، ت سنة ١٢٠٦هـ، تحقيق: محمد رشيد رضا، الأولى سنة ١٣٤٩هـ، المنار بمصر.

٤٤- «بروتوكولات حكماء صهيون»، ترجمة محمد خليفة التونسي، الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٥- «بيان النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك»، للشيخ حمد بن عتيق ت سنة ١٣٠١هـ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٣هـ، دار الفكر، بيروت.

ت

٤٦- «تاريخ الأمم والملوك»، للإمام محمد بن جرير الطبري ت سنة ٣١٠هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الثانية ١٣٨٧هـ، دار المعارف، مصر.

٤٧- «التبيان في أقسام القرآن»، لابن القيم، تعليق: طه يوسف شاهين، مكتبة القاهرة، مصر.

٤٨- «تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والهجران»، للشيخ حمود التويجري، الأولى سنة ١٣٨٣هـ، مؤسسة النور بالرياض.

٤٩- «التحفة العراقية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الثانية سنة ١٣٩٩هـ، المطبعة السلفية بالقاهرة.

٥٠- «تحكيم القوانين»، للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ت سنة ١٣٨٩هـ، طبع سنة ١٣٨٠هـ، مطابع الثقافة بمكة.

٥١- «التدمرية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الثانية سنة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي.

٥٢- «تذيل على كشف الشبهات»، للشيخ عبد الرحمن الدوسري، الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، مؤسسة النور بالرياض.

٥٣- «التشريع الجنائي»، للأستاذ عبد القادر عودة، الثالثة سنة ١٣٨٣هـ، مكتبة دار العروبة بمصر.

٥٤- «التصوير الفني في القرآن»، سيد قطب، الطبعة الشرعية الرابعة، سنة

- ١٣٩٨هـ، دار الشروق.
- ٥٥- «التطور والنبات في حياة البشر»، للأسد محمد قطب، ط سنة ١٣٩٤هـ، دار الشروق.
- ٥٦- «تعجيل المنفعة»، لابن حجر، طبع هاشم اليماني.
- ٥٧- «التعليق المغني على الدارقطني»، عبد الله هاشم اليماني، ط. سنة ١٣٨٦هـ.
- ٥٨- «التفسير القيم لابن القيم»، جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، تصوير لجنة التراث، بيروت.
- ٥٩- «تفسير كلام المنان»، للشيخ عبد الرحمن بن سعدى، تحقيق: محمد زهري النجار، المؤسسة السعدية بالرياض.
- ٦٠- «تفسير سورة النور»، لابن تيمية، الأولى سنة ١٣٩٧هـ، مكتبة المنار الإسلامية بالكويت.
- ٦١- «تفسير البغوي» المعروف بـ «معالم التنزيل»، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، ت سنة ٥١٦هـ، الثانية سنة ١٣٧٥هـ، مطبعة الحلبي بمصر.
- ٦٢- «تفسير القرآن العظيم»، للحافظ ابن كثير، تحقيق: عبد العزيز غنيم وعاشور والبناء، مطبعة الشعب.
- ٦٣- «تفسير الخازن» المسمى «لباب التأويل في معاني التنزيل»، لعلاء الدين علي بن محمد الخازن، ت سنة ٧٢٥هـ، الثانية سنة ١٣٧٥هـ، مصطفى الحلبي بمصر.
- ٦٤- «تقريب التهذيب»، لابن حجر، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، طبع مصر.
- ٦٥- «تليس إبليس»، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ت سنة ٥٩٧هـ، تحقيق: خير الدين علي، دار الوعي، بيروت.
- ٦٦- «تلخيص المستدرک»، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ت سنة

- ٨٤٨هـ، مطبوع مع المستدرك.
- ٦٧- «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع»، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي، ت سنة ٣٧٧هـ، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، الثانية سنة ١٣٨٨هـ، مكتبة المثنى ببغداد.
- ٦٨- «تهذيب التهذيب»، لابن حجر العسقلاني، الأولى سنة ١٣٢٦هـ، بحيدر آباد، تصوير دار صادر، بيروت.
- ٦٩- «تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد»، للشيخ سليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب، ت سنة ١٢٣٣هـ، ط إدارات البحوث العلمية في الرياض.

« ج »

- ٧٠- «جامع الأصول»، لمجد الدين أبي السعادات المبارك محمد بن الأثير، ت سنة ٦٠٦هـ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الأولى سنة ١٣٨٩هـ، مكتبة الحلواني والملاح ببيروت.
- ٧١- «جامع البيان عن تأويل القرآن» [تفسير الطبري]، لأبي جعفر محمد ابن جرير الطبري، الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، مصطفى الحلبي.
- ٧٢- «الجامع الفريد»، مجموعة من علماء الدعوة، مطبعة المدينة بالرياض.
- ٧٣- «جامع العلوم والحكم»، لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، ت سنة ٧٩٥هـ، الثالثة سنة ١٣٨٢هـ، مصطفى الحلبي.
- ٧٤- «الجامع لأحكام القرآن» [تفسير القرطبي]، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت سنة ٦٧١هـ، تحقيق: أبي إسحاق أطفيش، تصوير عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٨٧هـ، دار الكتاب العربي بالقاهرة.
- ٧٥- «الجانب الآلهي من التفكير الإسلامي»، د. محمد البهي، الخامسة سنة ١٣٩١هـ، دار الفكر ببيروت.
- ٧٦- «جاهلية القرن العشرين»، للأستاذ محمد قطب، ط سنة ١٣٩٤هـ،

دار الشروق.

٧٧- «جنور البلاء»، للأستاذ عبد الله التل، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.

٧٨- «جريدة عكاظ»، العدد الأسبوعي، رقم ٤٧٢٨ في ١٦/٦/١٣٩٩هـ.

٧٩- «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تصوير مطابع المجد بالرياض.

٨٠- «الجواب الكافي»، لابن القيم، الأولى سنة ١٣٩٤هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة .

« ح »

٨١- «حد الإسلام وحقيقة الإيمان»، للأستاذ عبد المجيد الشاذلي، مكتوب بالآلة الكاتبة.

٨٢- «حصاد الفرور»، للشيخ محمد الغزالي، الأولى سنة ١٣٩٠هـ، دار البيان بالكويت.

٨٣- «حصوننا مهددة من داخلها»، د. محمد محمد حسين، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.

٨٤- «الحضارة الإسلامية . أسسها ومبادئها»، للمودودي، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠هـ، دار العربية، بيروت.

٨٥- «الحكم الجديرة بالإذاعة»، لابن رجب (ضمن مجموع)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة أنصار السنة.

٨٦- «حلية الأولياء»، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ت سنة ٤٣٠هـ، المكتبة السلفية.

٨٧- «الحوادث والبدع»، لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، ت سنة ٥٢٠هـ، تحقيق: محمد الطالبي، دار الأصفهاني بجدة.

٨٨- «حياة الصحابة»، للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، دار المعرفة، بيروت.

« خ »

- ٨٩ - «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق.
- ٩٠ - «خاطرات جمال الدين الأفغاني»، اختيار عبد العزيز سيد الأهل، الناشر: دار حراء بالقاهرة.
- ٩١ - «دراسات قرآنية للأستاذ»، محمد قطب، دار الشروق.
- ٩٢ - «الدرر السنية في الأجوبة النجدية»، جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، الثانية سنة ١٣٨٥هـ، دار الإفتاء بالرياض.
- ٩٣ - «درس النكبة الثانية»، د. يوسف القرضاوي، الأولى سنة ١٣٨٨هـ.
- ٩٤ - «الدفاع عن أهل السنة والاتباع»، للشيخ حمد بن عتيق، نشرها: إسماعيل بن عتيق. بدون تاريخ.
- ٩٥ - «دقائق التفسير»، لابن تيمية، وتحقيق: د. محمد السيد الجليند، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، دار الأنصار بالقاهرة.
- ٩٦ - «دمروا الإسلام أيّدوا أهله»، جلال العالم، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ.
- ٩٧ - «دور الإسلام في حياة البشرية»، محمد قطب، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.
- ٩٨ - «رد ابن حزم على ابن النغيلة اليهودي»، تحقيق إحسان عباس، سنة ١٣٨٠هـ، دار العروبة بالقاهرة.
- ٩٩ - «ردة ولا أبا بكر لها»، لأبي الحسن الندوي، الثالثة سنة ١٣٩٨هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.
- ١٠٠ - «الردة بين الأمس واليوم»، محمد كاظم حبيب، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المكتبة العلمية بـلاهور باكستان.
- ١٠١ - «الرسائل المنيرية»، مجموعة من العلماء، المطبعة المنيرية بالقاهرة.
- ١٠٢ - «الرسائل المفيدة»، للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن،

- تصحيح: عبد الرحمن الرويشد، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار العلوم بالقاهرة.
- ١٠٣- «الرسالة التبوكية»، لابن القيم، الثانية سنة ١٣٩٤هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة.
- ١٠٤- «رياض الصالحين»، للنووي، تحقيق: الألباني، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي .
- ١٠٥- «زاد المعاد في هدي خير العباد»، للعلامة ابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وأخيه، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

س

- ١٠٦- «سبيل الدعوة الإسلامية»، د. محمد أمين المصري، الأولى سنة ١٤٠٠هـ، دار الأرقم بالكويت.
- ١٠٧- «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، محمد ناصر الدين الألباني، الثانية سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٠٨- «سنن ابن ماجه»، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت سنة ٢٧٥هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط سنة ١٣٩٥هـ، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٠٩- «سنن أبي داود»، للإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ت سنة ٢٧٥هـ، تحقيق وتعليق: عزت الدعاس، الأولى سنة ١٣٩١هـ، الناشر: محمد علي السيد، سوريا.
- ١١٠- «سنن الترمذي»، الإمام محمد بن عيسى الترمذي، ت سنة ٢٧٩هـ، تعليق: عزت الدعاس، ط سنة ١٣٨٥هـ، دار الدعوة، حمص.
- ١١١- «سنن الدارقطني»، الإمام علي بن عمر الدارقطني، ت سنة ٣٨٥هـ، نشر: عبد الله هاشم اليماني، سنة ١٣٨٦هـ.
- ١١٢- «سنن الدارمي»، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ت سنة ٢٥٥هـ، طبع بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة المحمدية،

تصوير الباز بمكة.

١١٣- «السنن الكبرى»، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تصوير دار الفكر بيروت.

١١٤- «سنن النسائي»، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ت سنة ٣٠٣هـ، الأولى سنة ١٣٤٨هـ، تصوير دار الفكر، بيروت.

١١٥- «السنة»، للإمام أحمد بن حنبل، ت سنة ٢٤١هـ، تصحيح: الشيخ إسماعيل الأنصاري، إدارات البحوث العلمية بالرياض.

١١٦- «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»، د. مصطفى السباعي، الثانية سنة ١٣٩٦هـ، المكتب الإسلامي.

١١٧- «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط سنة ١٣٧٩هـ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

١١٨- «سيرة الرسول ﷺ»، للأستاذ محمد عزة دروزة، الثالثة سنة ١٤٠٠هـ، مؤتمر السيرة الثالث بقطر.

١١٩- «السيرة النبوية»، للإمام عبد الملك بن هشام، ت سنة ٢١٨، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، الأولى سنة ١٣٥٥هـ، مصطفى الحلبي.

« ش »

١٢٠- «شذرات البلاتين»، مجموعة من العلماء، تحقيق: محمد حامد الحفني، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، مطبعة أنصار السنة بالقاهرة.

١٢١- «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، عبد الحي بن العماد الحنبلي، ت سنة ١٠٨٩هـ، تصوير عن الطبعة الأولى، دار الآفاق، بيروت.

١٢٢- «شرح السنة»، للإمام الحسين بن مسعود البغوي، ت سنة ٥١٦هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي.

١٢٣- «شرح الطحاوية»، لابن أبي العز الحنفي، ط ٤ سنة ١٣٩١هـ،

المكتب الإسلامي.

- ١٢٤- «شرح النووي على صحيح مسلم»، للإمام يحيى بن شرف النووي،
الثانية سنة ١٣٩٢هـ، تصوير دار الفكر، بيروت.
١٢٥- «الشرعة»، لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ت سنة ٣٦٠هـ،
تحقيق: محمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٦٩هـ، مطبعة أنصار السنة.
١٢٦- «الشعوبية الجديدة»، محمد مصطفى رمضان، الأولى سنة ١٣٨٩هـ.

١ هـ

- ١٢٧- «الصارم المسلول على شاتم الرسول»، لشيخ الإسلام ابن تيمية،
تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، الأولى سنة ١٣٧٩هـ، مكتبة تاج
بالقاهرة.
١٢٨- «صحيح البخاري»، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ت سنة
٢٥٦هـ، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٨٠هـ،
السلفية بمصر.
١٢٩- «صحيح الجامع الصغير»، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الأولى
سنة ١٣٨٨هـ، المكتب الإسلامي.
١٣٠- «صحيح مسلم»، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، ت سنة
٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٧٤هـ، دار
إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٣١- «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»، لأبي الحسن
الندوي، الثالثة سنة ١٣٩٧هـ، دار القلم بالكويت.
١٣٢- «الصلاة»، لابن القيم، الثانية سنة ١٣٩١هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة.
١٣٣- «صيد الخاطر»، لابن الجوزي، تحقيق: علي وناجي الطنطاوي، الثانية
سنة ١٣٩٨هـ، دار الفكر، بيروت.
١٣٤- «طبقات الحنابلة»، لأبي الحسين محمد بن أبي يعلى، ت سنة ٤٥٨هـ،

- تحقيق: محمد حامد الفقي، سنة ١٣٧١هـ، مطبعة أنصار السنة.
- ١٣٥- «طريق الدعوة في ظلال القرآن»، جمع: أحمد فائز، الثالثة سنة ١٣٩٧هـ.
- ١٣٦- «طريق الهجرتين وباب السعادتين»، لابن القيم، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة.
- ١٣٧- «ضعيف الجامع الصغير وزيادته»، للألباني، الثانية، ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.

« ع »

- ١٣٨- «العبودية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٣٩- «العرب والإسلام»، لأبي الحسن الندوي، الثانية سنة ١٣٨٩هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٤٠- «عصر المأمون»، د. أحمد مزيد رفاعي، الثانية سنة ١٣٤٦هـ، دار الكتب المصرية.
- ١٤١- «العقيدة الطحاوية»، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، ت سنة ٣٢١هـ، الرابعة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٤٢- «العقيدة نبي الله»، للأستاذ عمر سليمان الأشقر، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، مكتبة الفلاح بالكويت.
- ١٤٣- «العقيدة الواسطية»، لابن تيمية، بشرح: الشيخ خليل هراس، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٦هـ، المكتبة السلفية بالمدينة.
- ١٤٤- «علماء نجد خلال ستة قرون»، عبد الله بن عبد الرحمن البسام، الأولى ١٣٩٨هـ، مكتبة النهضة بمكة.
- ١٤٥- «العلاقات الدولية في الإسلام»، محمد أبو زهرة، ط سنة ١٣٨٤هـ، الدار القومية للطباعة، مصر.
- ١٤٦- «العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي»، للأستاذ سفر عبد الرحمن

- الحوالي، الناشر: مركز البحوث العلمي بجامعة أم القرى.
- ١٤٧- «الغارة على العالم الإسلامي»، ترجمة: محب الدين الخطيب ومساعد اليافى، الثانية سنة ١٣٨٧هـ، منشورات العصر الحديث.
- ١٤٨- «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام»، للألباني، سنة ١٤٠٠هـ، المكتب الإسلامي.

« ف »

- ١٤٩- «الفتاوى السعدية»، للشيخ عبد الرحمن بن سعدي، الأولى سنة ١٣٨٨هـ، دار الحياة، دمشق.
- ١٥٠- «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، لابن حجر العسقلاني، الأولى سنة ١٣٨٠هـ، السلفية بمصر.
- ١٥١- «الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد»، لأحمد بن عبد الرحمن الساعاتي، تصوير دار إحياء التراث بيروت.
- ١٥٢- «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»، للشيخ عبد الرحمن بن حسن، ت سنة ١٢٨٥هـ، ط السابعة سنة ١٣٧٧هـ، مطبعة أنصار السنة.
- ١٥٣- «الفرق بين الفرق»، عبد القاهر البغدادي، ت سنة ٤٢٩هـ، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط محمد علي صبيح بالقاهرة.
- ١٥٤- «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، لابن تيمية، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٥٥- «فقه السيرة»، للشيخ محمد الغزالي، مطابع علي بن علي بقطر.
- ١٥٦- «الفكر الإسلامي المعاصر . دراسة وتقويم»، للأستاذ غازي التوبة، الثانية ١٩٧٧م، دار القلم، بيروت.
- ١٥٧- «فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام»، للأستاذ صالح العبود، الناشر: دار طيبة بالرياض.
- ١٥٨- «الفوائد»، لابن القيم، الثالثة سنة ١٣٩٦هـ، مكتبة الجامعة بالقاهرة.

١٥٩- «في ظلال القرآن»، للأستاذ سيد قطب، الطبعة المشروعة، دار الشروق.

« ق »

١٦٠- «القاموس المحيط»، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت سنة ٨١٧هـ، الثالثة سنة ١٣٠١هـ، المطبعة الأميرية ببولاق.

١٦١- «قصص الأنبياء»، لابن كثير، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد، الأولى سنة ١٣٨٨هـ، دار الكتب الحديثة، مصر.

١٦٢- «القصيدة النونية»، لابن القيم، ط سنة ١٣٩٨هـ، إدارة ترجمان السنة بلاهور، باكستان.

١٦٣- «قطر الولي»، للعلامة محمد بن علي الشوكاني ت سنة ١٢٥٠هـ، تحقيق: إبراهيم هلال، الأولى سنة ١٣٨٩هـ، الكتب الحديثة

« ك »

١٦٤- «كتاب التوحيد»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، طبع مع فتح المجيد، تحقيق: محمد حامد الفقي، السابعة سنة ١٣٧٧هـ، مطبعة أنصار السنة.

١٦٥- «كشف الشبهات»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، مؤسسة النور بالرياض.

١٦٦- «كفاح دين»، للشيخ محمد الغزالي، الثالثة سنة ١٣٨٥هـ، دار الكتب الحديثة، مصر.

١٦٧- «الكفر والمكفرات»، أحمد عز الدين البيانوني، ط سنة ١٣٩٥هـ، مكتبة الهدى بحلب.

١٦٨- «الكلمات النافعة»، للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ت سنة ١٢٣٣هـ، الثانية، المطبعة السلفية بالقاهرة.

١٦٩- «كلمة الإخلاص»، للإمام عبد الرحمن بن رجب، تحقيق: زهير

- الشاويش والألباني، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٧٠- «لسان العرب»، محمد بن مكرم بن منظور، ت سنة ٧١١هـ، تصنيف: يوسف خياط والمرعشلي، سنة ١٣٨٩هـ، دار لسان العرب، بيروت.
- ١٧١- «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان»، للشيخ محمد قواد عبد الباقي، تصوير المكتبة الإسلامية، بيروت.

م

- ١٧٢- «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، لأبي الحسن الندوي، العاشرة سنة ١٣٩٤هـ، مطابع قطر.
- ١٧٣- «مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب»، نشرتها: جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٨هـ، الرياض.
- ١٧٤- «ما هي علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى»، للأستاذ أحمد محمود الأحمد، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٧٥- «مبادئ الإسلام»، للمودودي، ط سنة ١٣٩٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ١٧٦- «مجمع الزوائد ومنيع الفوائد»، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت سنة ٨٠٧هـ، الثانية ١٩٦٧م، تصوير دار الكتاب، بيروت.
- ١٧٧- «مجلة رابطة العالم الإسلامي الشهرية»، العدد الخامس، جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ.
- ١٧٨- «مجلة العربي الكويتية»، العدد ٢٦٧، ربيع الأول سنة ١٤٠١هـ.
- ١٧٩- «مجلة المجتمع الكويتية»، العدد ٤٥٠.
- ١٨٠- «مجموع»، لابن تيمية، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ، مطبعة المنار بمصر.
- ١٨١- «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، سنة ١٣٨١هـ، الرياض.

- ١٨٢- «مجموعة التوحيد»، لابن تيمية وابن عبد الوهاب، ط سنة ١٩٧٨م، دار الفكر بالقاهرة.
- ١٨٣- «مجموعة التوحيد النجدية»، مجموعة من العلماء، ط سنة ١٣٨٤هـ، مطبعة الحكومة^(١).
- ١٨٤- «مجموعة رسائل ابن عتيق»، للشيخ سعد بن عتيق، ت سنة ١٣٤٩هـ، ط سنة ١٩٧٩م، دار الاعتصام بالقاهرة.
- ١٨٥- «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»، مجموعة من علماء الدعوة، تحقيق: محمد رشيد رضا، الأولى سنة ١٣٤٦هـ، مطبعة المنار بمصر.
- ١٨٦- «محاسن التأويل»، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد قواد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٧٦هـ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.
- ١٨٧- «المهمل»، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم، ت سنة ٤٥٦هـ، تحقيق: حسن زيدان طلبة، ط سنة ١٣٩٢هـ، مكتبة الجمهورية بمصر.
- ١٨٨- «مختار الصحاح»، محمد بن أبي بكر الرازي، ط سنة ١٣٦٩هـ، مصطفى الحلبي، القاهرة.
- ١٨٩- «مختصر سنن أبي داود»، للحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، ت سنة ٦٥٦هـ، تحقيق: أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٦٧هـ، مطبعة أنصار السنة.
- ١٩٠- «المخططات الصهيونية» [محاضرة]، للأستاذ محمد قطب، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.
- ١٩١- «مدارج السالكين»، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، مطبعة أنصار السنة.
- ١٩٢- «مذكرات المذاهب الفكرية المعاصرة»، إملاءات للأستاذ محمد قطب لطلاب السنة المنهجية بالدراسات العليا بمكة، سنة ٩٨ / ١٣٩٩هـ.

(١) هذه المجموعة والتي قبلها لا تتفقان إلا في خمس رسائل مكررة فيها وبقيت الرسائل مختلفة عن بعضها البعض.

- ١٩٣- «مسائل الإمام أحمد»، رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانيء، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ، المكتب المصري.
- ١٩٤- «المسائل الماردينية»، لابن تيمية، تحقيق: الشاويش، الثالثة سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٩٥- «المستدرک»، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، ت سنة ٤٠٥هـ، ط سنة ١٣٩٨هـ، تصوير دار الفكر، بيروت.
- ١٩٦- «المستقبل لهذا الدين»، للأستاذ سيد قطب، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار الشروق.
- ١٩٧- «المسند»، للإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٩٨- «المسند»، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة الرابعة، سنة ١٣٧٣هـ، دار المعارف بمصر.
- ١٩٩- «مشكاة المصابيح»، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: الألباني، الثانية، سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.
- ٢٠٠- «المصباح المنير»، أحمد بن محمد المقرئ الفيومي، ت سنة ٧٧٠هـ، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار الكتب العلمية.
- ٢٠١- «معارج القبول»، للشيخ حافظ الحكمي، ت سنة ١٣٧٧هـ، الطبعة الأولى، تصوير إدارات البحوث العلمية بالرياض.
- ٢٠٢- «المعارف»، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت سنة ٢٧٦هـ، تحقيق: ثروت عكاشة، الثانية سنة ١٣٨٨هـ، دار المعارف.
- ٢٠٣- «معالم السنن»، للإمام حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، ت سنة ٣٨٨هـ، تحقيق: أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٧٩هـ، مطبعة أنصار السنة.
- ٢٠٤- «معالم في الطريق»، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق.
- ٢٠٥- «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث»، ترتيب: لفيف من المستشرقين،

- الأولى سنة ١٩٣٦م، نشره: د. أي ونسك .
- ٢٠٦- «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، محمد فؤاد عبد الباقي، تصوير: دار إحياء التراث العربي.
- ٢٠٧- «مصعب بن عمير الداعية المجاهد»، للأستاذ محمد بريفش، الثالثة سنة ١٣٩٥هـ، دار القلم، بيروت.
- ٢٠٨- «المغني»، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، ت سنة ٦٢٠هـ، تحقيق: طه محمد الزيني، ط سنة ١٣٩٠هـ، مكتبة القاهرة.
- ٢٠٩- «مفتاح الصحيحين»، للحافظ محمد الشريف بن مصطفى، الثانية سنة ١٣٩٥هـ، تصوير: دار الكتب العلمية.
- ٢١٠- «مفتاح كنوز السنة»، د . أ . ي فنسك، ترجمة: محمد فؤاد عبد الباقي، ط سنة ١٣٩١هـ، نشره: سهيل أكديمي لاهور.
- ٢١١- «المقاصد الحسنة»، للإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ت سنة ٩٠٢هـ، تعليق: عبد الله الصديق، ط سنة ١٣٩٥هـ، مكتبة الخانجي.
- ٢١٢- «مقالات الإسلاميين»، لأبي الحسن الأشعري، ت سنة ٣٣٠هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الثانية سنة ١٣٨٩هـ، مكتبة النهضة بالقاهرة.
- ٢١٣- «مكائد يهودية عبر التاريخ»، للأستاذ عبد الرحمن الميداني، الأولى سنة ١٣٩٤هـ، دار القلم، بيروت.
- ٢١٤- «المنافقون في القرآن الكريم»، للأستاذ عبد العزيز الحميدي، رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة.
- ٢١٥- «المنهاج في شعب الإيمان»، لأبي عبد الله الحسين الحسن الحلبي، ت سنة ٤٠٣هـ، تحقيق حلمي فودة، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، دار الفكر، بيروت.
- ٢١٦- «منهج التربية الإسلامية»، للأستاذ محمد قطب، الجزء الثاني، ط سنة ١٤٠٠هـ، دار الشروق.

- ٢١٧- «منهج القرآن في التربية»، محمد شديد، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٢١٨- «موارد الظلمآن إلى زوائد ابن حبان»، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت سنة ٨٠٧هـ، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، تصوير: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢١٩- «موافقة الصحيح المنقول لصريح المعقول»، لابن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقي، سنة ١٣٧٠هـ، مطبعة السنة المحمدية.
- ٢٢٠- «موسوعة العقاد»، عباد محمود العقاد، ط سنة ١٣٩٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٢٢١- «الموطأ»، للإمام مالك بن أنس، ت سنة ١٧٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، تصوير: دار إحياء التراث، بيروت.

« ن »

- ٢٢٢- «نظرية التربية الإسلامية»، للشيخ محمد الغزالي، بحث مقدم لندوة التربية الإسلامية بمكة، في ١١/٦/١٤٠٠هـ.
- ٢٢٣- «النفاق وآثاره ومفاهيمه»، للشيخ عبد الرحمن الدوسري، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ، دار الأرقم بالكويت.
- ٢٢٤- «النهاية في غريب الحديث»، لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، الأولى سنة ١٣٨٣هـ، دار إحياء الكتب العربية.
- ٢٢٥- «نيل الأوطار»، محمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأخيرة، مصطفى الحلبي.
- ٢٢٦- «هداية الباري ترتيب صحيح البخاري»، عبد الرحيم الطهطاوي، الثالثة سنة ١٣٥٣هـ، المكتبة التجارية، القاهرة.
- ٢٢٧- «هداية الحيارى»، لابن القيم. نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

- ٢٢٨- «الهدية الثمينة»، للشيخ عبد الله السليمان بن حميد، الثانية سنة ١٣٧٤هـ، دار مصر للطباعة، القاهرة.
- ٢٢٩- «الهدية السنية»، جمع الشيخ سليمان بن سحمان، تعليق: رشيد رضا، مطابع دار الثقافة بمكة.
- ٢٣٠- «هذا ديننا»، للشيخ محمد الغزالي، الثانية سنة ١٣٨٥هـ، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
- ٢٣١- «هل نحن مسلمون»، للأستاذ محمد قطب، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار الشروق.

الفهرس

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة بقلم فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٧
التمهيد	١٦
كلمة التوحيد تثبت أربعة أمور وتنفي أربعة أمور	٢٢
تعريف التقوى	٢٥
شروط لا إله إلا الله	٢٨
الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله	٤٠
الرد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط، وبيان المذهب	
الصحيح في الأحاديث الواردة بخصوصها	٤٦
آثار الإقرار بلا إله إلا الله في حياة الإنسان	٥١
نواقض لا إله إلا الله	٥٥
نص قيم لابن القيم في قضية الإيمان والكفر	٥٥
تعليق لا بد منه	٦٨
أنواع الكفر	٧٢
أنواع الشرك	٧٣
نواقض الإسلام العشرة	٧٦
تعريف الياسق	٨١
نص مهم للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ	٨٢

الباب الأول

مفهوم الولاء والبراء

الفصل الأول: تعريفه وأهميته في الكتاب والسنة	٨٧
الولاء في اللغة	٨٧
البراء في اللغة	٨٩
الولاء في الاصطلاح الشرعي	٨٩
البراء في الاصطلاح الشرعي	٩٠
شرح التعريف	٩٠
أهمية هذا الموضوع في الكتاب والسنة ونصيبه من الدراسة والتأليف	٩٣
المقارنة بين طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة وبين أسلوب علم الكلام	٩٨
أسلوب العرض القرآني للعقيدة	١٠١
طريقة القرآن والسنة في غرس عقيدة الولاء والبراء	١٠٥
من لوازم محبة الله اتباع رسول الله	١١٠
الفصل الثاني: أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما	١١٢
عداوة إبليس لآدم عليه السلام	١١٢
بعض صفات أولياء الشيطان	١١٥
طبيعة العداوة بين الفريقين	١٢١
عداوة الشيطان للإنسان تتمثل في سبع مراتب	١٢٢
أسباب العداوة	١٢٤
الفصل الثالث: عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء	١٣٤
الناس في الحب والبغض ثلاثة أصناف	١٣٥
الولاء والبراء القلبي	١٣٨

١٣٩	موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء
١٤٠	تنقسم البدعة إلى كفرية وغير كفرية
١٤٥	الفصل الرابع: أسوة حسنة في الولاء والبراء من الأئمة الماضية
١٤٥	(أ) إبراهيم عليه السلام
١٥٠	(ب) أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى
١٥٩	الفصل الخامس: الولاء والبراء في العهد المكي
١٦١	الملتقى الأول وأولى خطوات الطريق
١٦٤	صدق التحمل
١٦٦	موقف عظيم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه
١٦٧	سمات العلاقة بين المسلمين وأعدائهم في العهد المكي
١٦٨	الحكمة في عدم فرضية القتال بمكة
١٧٤	بر الأقارب المشركين
١٧٦	كيف كانت صورة البراء في العهد المكي
١٧٩	لكم دينكم ولي دين
١٨٤	فرج من الله قريب
١٨٦	صفة البيعة
١٨٩	الفصل السادس: الولاء والبراء في العهد المدني
١٩٠	نبذة تاريخية
١٩٢	وقفه عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
١٩٦	سمات الولاء والبراء في العهد المدني
١٩٨	أصناف الكفار في العهد المدني
١٩٩	أولاً: كيد أهل الكتاب والتحذير من موالاتهم
٢٠٤	ثانياً: النفاق والمنافقون

٢١٣	أعدائهم
٢١٨	(أ) صور البراء من المشركين
٢٢١	(ب) البراء من أهل الكتاب
٢٢٢	(ج) البراء من المنافقين
٢٢٦	(د) قطع الموالاة مع الأقارب إذا كانوا محادين لله ورسوله
٢٣٠	الفصل السابع: صور الموالاة ومظاهرها
٢٤٧	ما يقبل من الأعذار وما لا يقبل في هذه الصور
٢٤٨	موقف المسلم تجاه هذه الصور
	الفصل الثامن: الرد على الحوارج والرافضة في عقيدة الولاء والبراء
٢٥٢	

الباب الثاني

من مقتضيات الولاء والبراء

٣٦٣	أقسام المحبة
٣٦٧	الفصل الأول: حق المسلم على المسلم
٣٧٠	الفصل الثاني: الهجرة
٣٧٠	(أ) الإقامة في دار الكفر
٣٧٤	المقيمون بدار الحرب ثلاثة أصناف
٣٧٧	المراد بإظهار الدين
٣٨٠	(ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام
٣٨٢	الهجرة هجرتان
٣٨٢	تلخيص أنواع الهجرة

٢٨٩	الفصل الثالث: الجهاد في سبيل الله
٢٩١	أهداف الجهاد
٢٩٩	حكم التجسس على المسلمين
٣٠٤	الفصل الرابع: هجر أصحاب البدع والأهواء
٣٠٦	كيفية مخالطة الناس
٣٠٨	موقف المسلم من أصحاب البدع
٣٠٩	أنواع الهجر
٣١٢	من أقوال السلف في الاتباع والنهي عن الابتداع
٣١٤	الفصل الخامس: انقطاع التوارث والنكاح بين المسلم والكافر
	الفصل السادس: النهي عن التشبه بالكفار والحرص على حماية
٣١٩	المجتمع الإسلامي
٣٢١	أصل المشابهة
٣٢٧	متى تكون الموافقة ومتى تكون المخالفة
٣٢٨	تفصيل مخالفة أهل الكتاب كما ذكر ذلك ابن تيمية
٣٣٠	ما بين التشبه والولاء من علاقة
٣٣١	مثال واحد من مشابهة اليهود والنصارى (العيد)
٣٣٥	صورة مشرقة من صور التميز في المجتمع الإسلامي الأول
٣٣٩	نواقض عهد الذمة
٣٤٣	الأمكنة التي يمنع أعداء الله من دخولها والإقامة فيها
٣٤٤	اعتراض وجوابه
٣٤٦	الفصل السابع: تعامل المسلمين مع غير المسلمين
٣٤٦	المبحث الأول: الفرق بين الموالاة وحسن المعاملة

الموضوع	الصفحة
كلمة حول ما يسمى بزمالة الأديان	٣٤٦
الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى	٣٥٢
المبحث الثاني: التعامل مع الكفار	٣٥٦
في البيع والشراء	٣٥٦
الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين	٣٥٨
عيادتهم وتهيئتهم	٣٥٩
حكم السلام عليهم	٣٦٦
المبحث الثالث: الانقطاع بالكفار وبما عندهم	٣٦٤
شروط عمل المسلم عند كافر في أرض الحرب	٣٦٧
حكم استعمار المشرك في الغزو	٣٦٨
نصوص تاريخية تثبت خيانة اليهود والنصارى في ولايات المسلمين	٣٦٩
مراعاة الفرق بين استخدام الكافر كفرد وبين كونه صاحب سلطة	
ونفوذ	٣٧٢
التقية والإكراه	٣٧٢
متى تكون التقية	٣٧٣
الإكراه	٣٧٥
شروط الإكراه	٣٧٦
أنواع الإكراه	٣٧٨

الباب الثالث

الصورة التطبيقية للولاء والبراء في الماضي والحاضر

الفصل الأول: كيف طبق السلف الولاء والبراء	٣٨٥
موقف كعب بن مالك رضي الله عنه	٣٨٧

٣٨٨	موقف عبد الله بن حذافة السهمي
٣٨٩	موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي
٣٨٩	موقف أبي عبيدة عامر بن الجراح
٣٨٩	موقف زيد بن الدثنة
٣٩٠	موقف أنس بن النضر
٣٩٣	الفصل الثاني: صورة الولاء والبراء في عصرنا الحاضر
٣٩٧	الكواكبي وما قام به
٣٩٧	محمد عبده
٣٩٨	عباس محمود العقاد
٣٩٨	كلمة قيّمة للأستاذ الدكتور محمد محمد حسين
٣٩٩	طه حسين
٣٩٩	خطط أعداء الإسلام وأساليبهم
٣٩٩	(١) في التربية والتعليم
٤٠٠	الابتعاث
٤٠٣	رفاعة الطهطاوي
٤٠٤	صورة من صور الولاء الفكري المعاصر
٤٠٧	(٢) وسائل الإعلام
٤١٢	(٣) نشر كتب المستشرقين
٤١٧	(٤) المذاهب اللادينية
٤١٧	خطورة إحياء الحضارات الجاهلية
٤١٩	القومية والوطنية
٤٢٥	العالمية
٤٢٦	مقال لمعروف الدواليبي حول العالمية

الموضوع	الصفحة
مقالان لفتحى عثمان وفهمى هويدي حول العالمية	٤٢٧
كلمة حول هذه المذاهب	٤٢٩
الخلاصة	٤٣١
الإسلام طريق الخلاص وسبيل النجاة	٤٣١
فهرس الأحاديث والآثار	٤٣٩
فهرس الأعلام	٤٤٩
فهرس المصادر والمراجع	٤٥٣
فهرس الموضوعات	٤٧٧

